ملحمة رامايانا

لخصها وترجمها من التاميلية الى الانكليزية

ر .ك .نارايان



ترجمة

د . جوزيف نادر بولس

دار المأمون

ملحمة رامايانا

دار المأمون

ملحمة رامايانا

ترجمة

د . جوزيف نـادر بولس

لخصها وترجمها من التاميلية الى الانكليزية

ر .ك .نـارايان

دار المأمون للترجمة والنشر

ملحمة رامايانا
The Ramayana

لخصها وترجمها من التاميلية الى الانكليزية

ر . ك . نارايان
R . K . Narayan

دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد (١٠٨٤) لسنة ١٩٨٧
توجه المراسلات الى:
دار المأمون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
بغداد ـ الجمهورية العراقية ١٩٨٧
ص . ب : ٢٤٠١٥
تلكس: ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع دار الحرية للطباعة ـ بغداد

الفهرس

مقدمة المترجم

يتطلع كل شعب باستمرار الى حياة اسعد وافضل واكثر اكتمالاً. وهذا التطلع الدائب الى ماهو افضل يجد جذوره في ماضي هذا الشعب. وتتأثر او تتلون مثل هذه الرؤيا بآمال وطموحات الحاضر. إن مثل هذه الرؤيا تمنح الحياة معناها، وتدفع هذا الشعب الى التفوق على نفسه. وتسعى الملحمة إلى التعبير عن هذه الرؤيا. ولكن الرؤيا، في حد ذاتها، لا تؤدي الى كتابة الملحمة.

لقد تربعت الملحمة على قمة الفن الأدبي في السابق، او في الأقل شاركت المأساة المسرحية مثل هذه القمة. والشاعر الملحمي يثير، بخياله الواسع والعميق، اسرار الحياة والطبيعة البشرية، ويتطلع من خلالها إلى حياة ذات مغزى. وباسلوب بليغ يصوغ الشاعر مثل هذه الموضوعات في قصة جيدة الحبكة تتناول اعمال بعض الشخصيات البطولية، والتي تعكس تجارب متنوعة لـ..ـة كاملة من تاريخ الانسان وحضارته. وهناك اوضاع تاريخية معينة تتيح، ..ـر من غيرها، الفرصة لظهور الشعر الملحمي.

وعادةً مايبدا الشاعر ملحمته بالتعريف بموضوعها، وهذا مايفعله كامبان في الكتاب الثاني من ملحمته الكاملة. وملحمة «جلجامش» تخبرنا في سطورها الأولى انها قصة صديق ادرك بعد لأي، فشل محاولته لإعادة صديقه الى الحياة. والشيء نفسه يفعله الشاعر الاغريقي هوميروس في بداية ملحمتيه «الإلياذة» و«الأوديسا»، وكذا الشاعر اللاتيني ڤرجيل الذي يتغنى بقصة أنياس الذي قطع المسافات وعبر البحار من بلده الأصلي طروادة الى ايطاليا حيث أسس دولة اللاتين. أما ميلتون الشاعر الانجليزي فيعلن في بداية

«الفردوس المفقود» عن عزمه على سرد قصة خطيئة الإنسان الأولى وسقوطه في الشركي يبرر للناس حكمة الله في خلقه واعماله.

وكثيراً ما يتضرع الشاعر الملحمي الى الآلهة عموماً، و آلهة الشعر خصوصاً، كي تلهمه أعذب الكلمات لتأتي قصيدته جديرة بان تحكي قصص الآلهة وانصاف الآلهة والبشر ذوي القوة الخارقة الذي يأتي الشاعر على ذكرهم في ملحمته. وتتضمن الملحمة ايضاً اعمالاً بطولية خارقة للطبيعة، كثيراً ما تنعكس في معارك حربية تنشب بين ابطالها، ويكتنف الغموض بعض احداثها، لا لعدم وضوح هذه الأحداث، وانما لأنها تعكس مفاهيم غيبية او ميتافيزيقية.

تلك هي ابرز سمات الملحمة عموماً، والتي نجد لها انعكاساً في هذه الملحمة الهندية، التي كتبها كامبان، وهي تحكي قصة الصراع بين قوى الخير من جانب ممثلةً في راما، التجسيد البشري للإله الأعظم، وبين قوى الشر من جانب اخر يقودها رافانا الذي استحوذ على قدرات هائلة منحته اياها الالهة، ولكنه سخَّر هذه القدرات لتحقيق مصلحته الخاصة الانانية فتجبر وطغى، بل وتطاول على ذات الآلهة التي منحته بركتها في الماضي، وعاث في الكون فساداً

ويذهب بعض الباحثين والدارسين الى ان «الرامايانا» كتبها اولاً الشاعر الهندي فالميكي باللغة السانسكريتية حوالي عام ٥٠٠ قبل الميلاد. ثم اعاد كتابتها باللغة التاميلية الشاعر كامبان حوالي عام ٩٠٠ الميلادي. وقد ترجم النص الكامل لملحمة كامبان الى اللغة الانجليزية الكاتب الهندي المعاصر ك. نارايان في ستة مجلدات، ثم قام الكاتب نفسه باختصارها في كتاب واحد نشره عام ١٩٧٢

لقد وجدت حكاية راما منذ اقدم العصور، فقد حكت قصة «داساراتا ـ

جاتكا» حكاية نفي داساراتا، رغماً عنه، لابنه الفاضل الأمير راما. وتصور القصة ايضاً حب الأب لإبنه ومؤامرة زوجة الأب وكيدها ضد راما، وكذلك حب باراتا لأخيه راما. وفي هذه القصة أيضاً، ترافق سيتا أخاها راما الى الغابات وتبقى معه هناك. وعندما تنتهي فترة نفيه، يعود راما إلى المملكة ويتزوج من أخته سيتا. ولكن هذه القصة لا تتضمن الجزء الرئيسي في ملحمة ڤالميكي، وفي ملحمة كامبان ايضاً، الا وهو اختطاف راڤانا لسيتا ومايتبع ذلك من نتائج. وهذا الجزء الاخير هو موضوع قصة اخرى كتبت باللغة الصينية*

وهكذا يبدو ان ڤالميكي، بعبقريته الشعرية الفذَّة، استطاع ان ينسج من هاتين القصتين ملحمته العظيمة.

وعلى الرغم من ان ڤالميكي وكامبان يتناولان نفس القصة والموضوع، إلّا أن الملحمتين تختلفان في عدد من التفاصيل التي تعكس شخصية وآراء ومعتقدات كل كاتب. فمثلاً عند الحديث عن كوسالا، يقوم ڤالميكي بوصفها في اختصار مشيراً الى قلاعها وشجاعة وبسالة محاربيها، وكيف يستخدم الوزراء الجواسيس للتجسس على بعضهم البعض، وايضاً على افراد الشعب، مستفيدين من ذلك في مناوراتهم ومؤامراتهم الخفية. بينما يصف كامبان بالتفصيل الحياة في كوسالا، ويجعل منها مدينة سلام ينعم سكانها بالأمن والرفاهية، فاقتصادها مزدهر والناس فيها على درجة عظيمة من الثراء، تقوم علاقاتهم على الحب والاخاء والصداقة، ويخلص الوزراء في عملهم، ويسهر الملك على مصالح شعبه. وتخلو المدينة من الجواسيس حيث لاحاجة

---

* قام حديثاً البروفيسور ت. ب. ميناكشيسوندران بترجمة هذه القصة الى اللغة التاميلية في عام ١٩٧٣، ونشرت في المجلة الشهرية «كاليكادير» التي تصدر في الهند.

إليهم، فهو مجتمع فاضل مثالي، ليس في حاجة لمؤسسات القانون والنظام. إنها تشبه فردوس ميلتون حيث ينعم آدم وحواء بما لذَّ وطاب، ويعيشان في سعادة وهناء.

ويعتقد النقاد والكتاب ان ملحمة كامبان تفوق ملحمة ڤالميكي، ويشيرون في ذلك إلى بعض التفاصيل. ففي ملحمة ڤالميكي، يأمر ڤيسواميترا راما بقتل تاتكا الشريرة قبل ظهورها. الا ان هذا الأمر يحدث، في ملحمة كامبان، بعد ظهور تاتكا. ويصدر ڤيسواميترا أمره متأخراً قليلاً، مما يضفي على المشهد الإثارة والدرامية.

كما تبرز عبقرية كامبان في المشهد الذي تحاول فيه سورپاناكا إغراء راما. فبينما تقوم سورپاناكا القبيحة، في ملحمة ڤالميكي، بتلك المحاولة، مما يجعل المشهد مضحكاً مثيراً للسخرية، يجعلها كامبان تغيّر اولاً من شكلها فتتحول إلى إمرأة فاتنة قبل ذهابها الى راما ولقائها معه، مما يجعل المشهد اكثر معقوليةً.

وفي ملحمة ڤالميكي أيضاً، يتنكر راڤانا في ملابس ناسك يظهر أمام سيتا، ويبدأ في التغني بجمالها، ثم يكشف عن شخصيته، مما يشعر القارىء بانه لم يكن هناك اصلاً حاجة الى تنكره. اما كامبان فيجعل راڤانا المتنكر كناسك يتحدث عن خصال راڤانا العظيمة ويكيل المديح له في محاولة لإثارة رغبة سيتا فيه، حيث يخبرها الناسك المتنكر بأن راڤانا يبحث له عن زوجة. وعندما يتمادى الناسك في مديحه لراڤانا وعشيرته، تخبره سيتا ان نهايتهم قد قربت لأن مهمة زوجها في الحياة هي القضاء عليهم. وهنا ينتاب الناسك المتنكر الضيق ويتملكه الغضب، فيسقط قناعه ويظهر على حقيقته. ولاشك ان ذلك يبرز براعة كامبان الفنية ويعكس تفوقه على ڤالميكي.

ويجد القارىء لملحمة ڤالميكي ان راما لا ينتابه اي حرج او ألم لإطلاقه سهمه على ڤالي من مخبئة. اما في كامبان، ومن خلال حوار راما وڤالي، نشعر ان راما يجد صعوبة في الدفاع عن فعلته، فيهب أخوه لاكشمانا للدفاع عنه. ويعكس المشهد بذلك، والى حدٍ ما، الصراع الداخلي الخفي في نفس راما.

وفي ملحمة ڤالميكي، وقرب نهايتها، يظهر باراتا وقد انتابه الحزن والأسى لعدم عودة راما. اما كامبان فيجعل هذا الجزء اكثر قوة وتأثيراً حيث نرى باراتا يستعد لإلقاء نفسه في النار. كما يصور المشهد ذاته الحب الأخوي المتبادل بين باراتا وساتروغنا.

وهناك بعض نقاط التشابه ايضاً بين «الرامايانا» وبين بعض الملاحم الأخرىٰ. «فالرامايانا» باختصار هي قصة اختطاف راڤانا لسيتا ورحيله بها إلى لانكا، ممايؤدي إلى حصار لانكا وتدميرها. ويذكرنا ذلك بما يحدث في «الإلياذة» التي تحكي قصة حصار طروادة وتدميرها من قبل الجيوش الاغريقية، بعد ان هرب باريس بهيلين زوجة مينلوس. كما ان المعركة الهائلة بين اخيل وهكتور تجد نظيرها في القتال الذي يدور بين راما وراڤانا في «الرامايانا».

وفي «الرامايانا»، يتزوج راما من سيتا بعد ان يتمكن من شد وتر قوس شيڤا وضم نهاياته بل وكسره، بينما يفشل في ذلك كل من تقدم للزواج منها من قبل. ويشبه ذلك ما يحدث في «الأوديسا»، حيث يفشل الأمراء، الذين تجمعوا في قصر اوديسيوس للزواج من بنيلوب، في شد وتر القوس الضخم، بينما ينجح اوديسيوس المتنكر في ذلك.

وهناك ايضاً عدة نقاط تشابه بين «الرامايانا» و«الفردوس المفقود»، اضافةً إلى ما سبق الإشارة اليه في التشابه بين كلٍ من كوسالا وفردوس ميلتون.

فالحبكة في «الفردوس المفقود» تتكون من جزئين: الاول وفيه يُطرد الملائكة

المتمردون من الجنة الى النار، والثاني يصور إغواء الشيطان لحواء وآدم وسقوطهما في الخطيئة. كذلك تتكون «الرامايانا» من جزئين: الاول تتآمر فيه كايكيي، تحت تأثير كلمات كوني، على راما ويتم نفيه، والثاني يسرد حب سورپاناكا لراما وحنقها عليه ثم اختطاف راڤانا لسيتا.

في «الفردوس المفقود» ايضاً، يقص الملاك روفائيل على آدم ماحدث في السماء من معارك بين الله وملائكته من جانب، وبين الشيطان وانصاره من جانب اخر بهدف تعليم آدم وتحذيره، وفي «الرامايانا» يتلقى راما تعليمه على يدي ڤيسواميترا الذي يقص عليه حكايات تاتكا ومهابالي واهاليا.

كما يتشابه راما وسيتا اللذان يتآمر راڤانا ضدهما مع آدم وحواء اللذين يتآمر الشيطان ضدهما. ويمكننا ان نضيف هنا ايضا انه بينما كان الشيطان رئيساً للملائكة في السماء قبل ان ينتابه الغرور والطمع، فإن راڤانا كان تقياً ورعاً حتى اكتسب الكثير من القدرات الخارقة للطبيعة التي وهبتها له الآلهة، فانتابه الغرور ونصَّب نفسه دكتاتوراً على الكون كله. وهناك زاوية تشابه اخرى بين الشيطان وراڤانا. فالشيطان، كما صوَّره ميلتون، أناني يستخدم الآخرين لمآربه الخاصة. ونفس القول ينطبق على راڤانا الذي يضحي باخوته وابنائه في سبيل الاستحواذ على سيتا والفوز بها.

وفي ملحمة ميلتون ايضا، نرى حواء وقد اكلت الثمرة المحرَّمة وتسببت بذلك في سقوطها وسقوط آدم في الخطيئة. وفي «الرامايانا» تطلب سيتا من راما مطاردة الغزال الذهبي وتجبر لاكشمانا على اللحاق براما لانقاذه، وتتسبب بذلك في تسهيل مهمة راڤانا في اختطافها.

وفي «الرامايانا» يطير هانومان الى لانكا، مجتمع الحسِّيات واللذات، ويكون وصوله مؤذناً بنهاية راڤانا وعشيرته الشريرة. ويتشابه ذلك، مع الفارق طبعاً، مع ذهاب الشيطان الى الفردوس، مجتمع الطهارة والفضيلة، ويكون

وصوله اليه نذير شؤم بسقوط آدم وحواء.

ولايفوتنا هنا ان نذكر ان راما، مثل المسيح، في الديانة المسيحية، غير مدرك لالوهيته.

تلك بعض النقاط التي اثارتها قراءة وترجمة «الرامايانا» في ذهني، والتي ارجو ان تكون معيناً للقارىء على فهم هذه الملحمة.

كلمة اخيرة، إن ترجمة الآداب العالمية والاطلاع عليها ودراستها تشكل ثروة لاغنىٰ عنها للقارىء العربي الذي يتطلع الى تغيير حاضره الى الأحسن واستعادة امجاد الماضي من اجل مستقبل افضل ـ

المترجم

مقدمة

تمشياً مع التقليد الكلاسيكي، يبدأ كامبـان ملحمته بوصف البلاد التي تقع فيها احداث القصة. ويذكر المقطع الشعري الأول نهر سارايو الذي يجرى في بلاد الكوسالا. ويرتفع المقطع الشعري الثاني بخيالك نحو السماء لترقب السحب البيضاء الناعمة التي تنساب عبر السماء نحو البحـر، وتعود فيمـا بعد كتـلاً سوداء محملـةً بالميـاه الى قمم الَجبال، حيث تتكثف وتنسـاب الى اسفل المنحـدرات في جداول تطهـر جوانب الجبـل من كنـوز معـادنـه وخلاصة مواده. (مثل امرأة لعوب، حقـاً، تسلب خليلها بلطف، اثناء معانقتها ايّاه، من كل ماهو ثمين). وينحدر النهر بكل مايحمله من سلع، مثل الأحجار الثمينة وخشب الصندل وريش الطاووس وبتلات الزهور ذات الألوان القزحية وحبوب اللقاح، حاملاً ايّاها عبر جبال وغابات ووديان وسهول بلاد الكوسالا، ويصّب مجراه في البحر بعد ان يقوم بتوزيع هداياه بشكل عادل.

ثم يصف الشاعر الريف بحدائقه وبساتينه، برجاله ونسائه المنهمكين تماماً في العمل، الذين تتنوع نشاطاتهم بين حراثة الأرض والحصاد ودرس الحنطة الى مشاهدة صراع الديكة وقت العصر. ويُسمـع خلف المنظر أنـين الطـواحـين وهي تسحق القصب او القمـح، او خـوار المـاشيـة، او جلبـة عـربـات القـوافـل التي تجرها الثيران والمحملة بالمنتجات، والتي تتجه الى بلاد بعيـدة.

وترتفع في الهواء انواع مختلفة من الأدخنة المتصاعدة من التنانير ونيران المحُرقَات وهناك خشب يحرق من اجل رائحته الزكّية. كانت هناك انواع مختلفة من الرحيق ـ عصير قصب السكر والبالمير، او هناك الطلّ في قلب زهرة اقحوان او زهـرة لوتس، او خليـة نحل محفوظة بشكل جيد تحت اشجار الاروما ـ كلها كانت تطعم نحل العسل وايضاً فهناك العصافير الصغيرة التي كانت تقتات فقط على مثل هذه الاغـذية، وحتى الاسمـاك قد استمتعت بتلـك الحلاوة المنسابة مع النهر. وعند معبد او آخر كان هناك دائماً احتفال او زفاف يحييه الطبل والمزمار وترافقه المواكب. ويصف كامبان كل صوت ومنظر ورائحـة في البلاد، الى حـد ذكر اكـوام النفايـات، واسراب الغربان والدجاج التي انشغلت بنبشها والتنقيب فيها.

كانت كوسالا بلاداً واسعة، وقليلون مَن زعموا انهم عبروها من بدايتها الى نهايتها. وكانت أيوديـا عاصمتهـا ـ مدينـة القصور والمنازل الفخمة والنافورات والسـاحات والمتـاريس، حيث يطل قصر الملك على ذلك المنظر الطبيعي. كانت مدينة مهيبة تنافس في ذلك مدينة امرڤاتي الخرافية التي كانت لإندرا*، او الكابوري في كوبرا. وكان الملك داساراتا يترأس هذه العـاصمة وتلـك البلاد. وكان حكمه مزيجاً من الرأفة والشجاعة، وقد احبه واجلّه رعاياه. كان ينعم بالسعادة من نواحٍ كثيرة، الاّ ان سبب همّه الاكبر كان عدم انجاب اطفال.

---

* إندرا: إله الجو في الاساطير الهندية القديمة ـ المترجم

وذات يوم قام باستدعاء الحكيم ڤاسيشتا ناصحه في البلاط، وقال له: «إنني في مأزق مؤسف، فيبدو ان السلالة الشمسية ستنتهي بنهايتي، وليس هناك من يخلفني بعد موتي. وهذه الفكرة تعذبني ارجوك، خبّرني كيف أعالجها.

عند ذلك ذكر ڤاسيشتا حادثة شاهدها خلال رؤيا له. ففي وقت ما، ذهبت الآلهة كلها الى الاله الأعظم ڤيشنو* يطلبون العون منه، وبيّنوا له «ان راڤانا ذا الرؤوس العشرة ومعه اخوته استمدوا منّا قوى خارقة من خلال زهدهم وصلواتهم، والان يهددون بتدمير عوالمنا واستعبادنا. انهم سادرون برعونة في طريق الطغيان وقمع كل ماهو فاضل وطيب حيثما وجد. ان شيڤا لايمكنه ان يساعدنا، وبراهما الخالق ليس بأمكانه ان يفعل سوى القليل، حيث ان القوى التي يسيء الان راڤانا واخوته استخدامها كانت قد وُهبت لهم في الأصل من قبل هذين الإلهين، ولا يمكنهما استرجاعها انت فقط الحامي، وعليك انقاذنا». وعليه كان وعد ڤيشنو بان «من الممكن تدمير راڤانا فقط من قبل الإنسان. ذلك لأنه لم يطلب الحماية ابداً ضد الإنسان وسوف اتجسد على هيئة ابن لداساراتا، اما محارتي وعجلتي، اللتان امسك بهما في كل من يدي لأغراض معينة، وكذلك اريكتي المسماة اديسيشا ، الحيّة التي استريح على لفائف جسدها، فسوف تولد كإخوة لي، وسيولد ايضاً كل الآلهة هنا، من العالم السفلي، كعشيرة قردة ـ حيث قد قُدرت اللعنة على راڤانا منذ أزمنة سحيقة بأن يتوقع دماره فقط من قبل قرد».

---

* اعظم الآلهة عند الهندوس هم: ڤيشنو وبراهما وشيڤا. (المترجم)

استذكر قاسيشتا تلك الواقعة ومن غير ان يذكرها لداساراتا الملك، نصحه قائلاً: «عليك ان تستعد في الحال لتقديم مُحْرقَة، والشخص الوحيد المؤهل للإشراف على مثل هذه الأضحية هو الحكيم ريشيا سرينغا».

تساءل داساراتا: «وأين هو ؟ وكيف احضره الى هنا؟»

اجاب قاسيشتا: «إن ريشيا سرينغا موجود في الوقت الحاضر في بلاد انغا المجاورة لنا».

فهتف داساراتا: «يالحسن الحظ! كنت اظنه في جبله البعيد».

وعندما اوضح له قاسيشتا: «من اجل انهاء فترة جفاف طويلة، أُشير على ملك أنغا ان يحضر ريشيا سرينغا لزيارة بلاده، لانها كانت دائماً تمطر حيثما يكون، لكنهم عرفوا ألا أحد في حسبانه ان ريشيا سيوافق على مغادرة مكان اعتزاله بالجبل. وبينما كان الملك يفكر في كيفية حل المشكلة، قامت باقة من الجميلات بعرض خدماتهن، وذهبن يبحثن عن هذا الشاب الحكيم. وعندما وصلن الى صومعته، وجدنه وحيداً، فأغرينه بالحضور الى انغا. ولم يكن قد رأى ابداً أيّ انسان باستثناء أبيه. وعندما احاطت به عذارىٰ انغا، لم يستطع ان يعرف ماهية هذه المخلوقات، ولكن، وبدافع غريزي، اثاره حب الاستطلاع، فاسلم نفسه كي يعتنين به. اما هن فقد قدّمن انفسهن كناسكات، ودعونه لزيارة صومعتهن، وقمن بحمله.» (بولاية ميسور في كيغا، وعلى ارتفاع اربعة آلاف قدم فوق سطح البحر، يوجد حفر على عمود احد المعابد يصوّر الناسك الشاب محمولاً على مِحفة مصنوعة من الأذرع المتشابكة لنسوة

عرايا).

وعند وصوله الى انغا هطلت الأمطار. وسُرّ الملك، فكافأ النسوة، واقنع الشاب بان يتزوج من ابنته ويقيم في بلاطه».

ارتحل داساراتا الى انغا، ودعا الحكيم الى زيارة ايوديا وقام بالاشراف على مُحْرقَة اضاحي استمرت عاماً كاملاً. وفي نهايته، خرج كائن ضخم خارق للطبيعة من نيران المحرقة، حاملاً بين يديه طبقاً فضّياً به حفنة من الأرز المقدس، فوضعه الى جانب الملك داساراتا واختفى ثانية في النار.

نصح ريشيا سرينغا الملك قائلاً: «خذ الأرز وقسّمه بين زوجاتك، ولسوف ينجبن». وفي الوقت المناسب انجبت زوجتا الملك، كوساليا وكايكيي، راما وباراتا على التوالي، كما انجبت سوميترا لاكشمانا وساتروغنا.

اكتسبت حياة داساراتا معناها الكامل، وشعر بسعادة غامرة وهو يرقب اطفاله ينمون. وعند كل مرحلة من مراحل حياتهم، كان يستخدم معلمين خصوصيين لتدريبهم وتطويرهم واثناء ذلك كان الفتية يذهبون كل صباح الى البساتين في اطراف المدينة ليتعلموا اليوغا والفلسفة من خبراء يسكنون هناك. وفي ساعة متأخرة من المساء، ومع انتهاء دروسهم، كان الأمراء يعودون الى القصر مشياً على الأقدام، بينما احتشد المواطنون على الطرقات لإلقاء نظرة عليهم. وكان راما دائماً يلاطف كل فرد من المحتشدين، سائلاً: «كيف حالك؟ هل اطفالك سعداء؟ هل تحتاج الى مساعدة

مني؟» وكانوا دائماً يجيبونه :«معك كأمير لنا، ومع والدك العظيم كراعٍ لنا؛ لاشيء ينقصنا.

الفصل الأول

خطوات راما الأولى

طوال اليوم، كانت قاعة الاجتماعات الجديدة، مفخرة داساراثا الأخيرة، تعّج بالزوار النبلاء ورسل الملوك، وبالمواطنين الذين وفدوا بشكاواهم اودعواهم يلتمسون العدالة. كان بالإمكان دائماً مقابلة الملك الذي كان يؤدي واجباته كحاكم لكوسالا، دون ان يأسف على الوقت الذي يقضيه في الخدمة العامة.

وفي عصر احد الأيام، هرول الرسل نحو البوابة ليعلنوا: «الحكيم فيسواميترا». وعندما بلغ الملك النبأ، نهض واسرع لملاقاة الزائر. فقد كان فيسواميترا ملكاً وفاتحاً واسماً مرهوباً الى ان تخلى عن دوره الملكي واختار ان يصبح حكيماً (وهو مابلغه من خلال زهده وتقشفه). وجمع في شخصه بين نبل الحكيم وسلطان الملك، كما كان سريع الغضب واثقاً من نفسه. قادة داساراثا الى مقعد مناسب، قائلاً: «انه يوم نعتز به، ونرحب بحضورك المبارك. لابد انك حضرت من مكان بعيد. هل لك ان تستريح اولاً؟».

فأجاب الحكيم في بساطة :«ليس هناك داعٍ ». فلقد كانت له السيادة الكاملة على احتياجاته البدنية من خلال سيطرته على اهوائه وتقشفه، فلم تؤثر فيه الحرارة والبرودة والجوع والتعب، وحتىٰ الشيخوخة. فيما بعد سأله الملك بأدب: «هل هناك شيء استطيع ان افعله؟». نظر ڤيسواميترا الى الملك في ثبات واجاب :«نعم، جئت اطلب معروفاً منك، ارغب في تقديم مُحْرقَة في سيدا سراما قبل حلول البدر. ولاشك انك تعرف اين تقع؟».

«لقد مررتُ عدة مرات بتلك الأرض المقدسة التي تقع فيما وراء الغانج».

فقاطعه الحكيم :«ولكن هناك مخلوقات تحوم حول المكان وتتحيّن الفرصة لتفسد اية محاولة مقدسة هناك. ولابد من التغلب عليها بنفس الطريقة التي يقهر بها المرء الشرور الخمسة * داخله قبل ان يتمكن من بلوغ درجة القداسة. ان هذه المخلوقات الشريرة لديها قدرة لا محدودة على التدمير، ولكن واجبنا ان نسعى الى اهدافنا دون ان يحول دوننا حائل. وستقوّي المحرقة، التي اقترح القيام بها، القوى الخيّرة في هذا العالم وتسعد الآلهة.

«من واجبي ان احمي جهدك النبيل. حدِّد الوقت وسأكون هناك».

قال الحكيم: «لاحاجة لأن تقلق شخصك الجليل. ارسل ابنك راما معي، وسوف يساعدني.. في امكانه ذلك».

فصاح الملك مستغرباً :«راما! في حين انا هنا في خدمتك».

---

* وهي الشهوة والغضب والبخل والأنانية والحسد.

بدأ مزاج ڤيسواميترا يتعكر، وقال مقاطعاً الملك :«اعرف عظمتك. ولكني اريد ان يذهب راما معي. فإذا لم تقبل بذلك، فيمكنك الافصاح بذلك.

توتر الجو فجأة واخذ المجتمعون، بما فيهم الوزراء وكبار الموظفين، يراقبون الموقف في صمت مهيب. ابتأس الملك وقال :«إن راما مايزال طفلاً يتعلم الفنون ويتدرب على استعمال السلاح». ولكن جمله تثاقلت اثناء محاولته شرح الأمر، ولم تصل الى خاتمتها :«انه صبيّ، طفل. انه اصغر وارّق من ان ينازل الشياطين».

«ولكني اعرف راما». كان ذلك كل ماأجاب به ڤيسواميترا.

«يمكنني ان ارسل جيشاً معك، او ان اقود بنفسي جيشاً لحماية محرقتك. ماذا يمكن لغلام مثل راما ان يفعل ضد تلك القوى المرعبة...؟ سوف اساعدك، بالضبط مثلما ساعدت إندرا ذات مرة عندما أُنهك وانتزعت منه مملكته».

ولكن ڤيسواميترا تجاهل كلامه ونهض كي يرحل :«اذا لم يكن بإمكانك ان ترسل راما، فلست بحاجة الى اي شخص اخر.»

وبدأ يتقدم في الردهة كي يغادر المكان.

عجز الملك عن الحركة. وبعد ان قطع ڤيسواميترا نصف المسافة، ادرك ان الضيف يرحل دون ان يظهر أيه كياسة تجاهه، وأن احداً لم يرافقه الى الباب. عندما همس ڤاسيشتا، كاهن الملك ومرشده، في اذن داساراتا :«اتبعه واطلب منه ان يعود». ثم اسرع امامه حتىٰ قبل ان يتمكن الملك من فهم ماقاله. وذهب مهرولاً عندما وصل ڤيسواميترا الى نهاية القاعة، اعترض طريقه وقال :«ارجوك، لاتذهب فالملك آتٍ. انه لم

يقصد...

لمعت ابتسامة ساخرة على وجه ڤيسواميترا، وقال بلا مرارة :«لماذا تقلق انت أو اي شخص آخر؟ جئتُ هنا لمهمة، وقد فشلت. ليس هناك سبب كي اطيل من اقامتي هنا».

«اوه! ايها السيد الجليل لقد كنت ملكاً».

«وما علاقة ذلك بنا الآن؟» تساءل ڤيسواميترا بضيق لأنه كان يكره كل اشارة الى ماضيه الدنيوي، وكان يريد دائماً بأن يُعرف على انه كاهن براهما.

اجاب ڤاسيشتا بلطف :«فقط لأذكرك بمشاعر إنسان عادي، وخاصة انسان مثل داساراتا لم يكن له اطفال وكان عليه ان يصلّي بحرارة من اجل ان يكون له ذرّية..»

«حسناً، فليكن ذلك، ايها العظيم. مازلت عند قولي انني جئتُ في مهمة، وقد فشلت، وارغب في الرحيل».

قال ڤاسيشتا :«لم تفشل»، عندئذ كان الملك قد لحق بهما في الردهة. ووقف المجتمعون في انتظار مايحدث.

انحنى داساراتا انحناءةً عميقة قائلاً :«ياصاحب القداسة، عُد الى مقعدك».

تساءل ڤيسواميترا :«وما الهدف، ياصاحب الجلالة؟».

«من الأسهل ان نتحدث ونحن جلوس..»

«لاأؤمن بالكلام». قال ڤيسواميترا. ولكن ڤاسيشتا الحّ عليه في الرجاء الى ان عاد الى كرسيه.

عندما جلسوا ثانيةً، خاطب ڤاسيشتا الملك :«لابد ان هناك هدفاً

مقدساً يتحرك خلال هذا العرّاف الذي ربما يعرف شيئاً لايفصح عنه. انها لمكرمة ان يطلب مساعدة راما. فلا تعترض طريقة، ودعه يذهب مع الحكيم».

تساءل الملك في قلق: «اوه! متىٰ، متىٰ؟».

«الآن». قال ڤيسواميترا: اما الملك فقد اعتراه الغم واليأس، ورقّ الحكيم لحاله وحاول مواساته بكلمة: «انك لاتستطيع ان تتمسك بشخص تحبه بالقرب منك طوال الوقت. ان البذرة التي تنبت بالقرب من جذع الشجرة الأم تظل متوقفة عن النمو الى ان تنقل الى تربة اخرىٰ.

سوف يكون راما في رعايتي، وسيكون بخير. ولكنه في النهاية سيتركني انا ايضاً. على كل انسان، عندما يحين وقته، ان يرحل ويبحث عن تحقيق ذاته بطريقته الخاصة».

«سيدا سراما بعيدة جداً...؟» بدأ الملك يقول».

«من اجله، سوف اسهِّل له الطريق، ولاحاجة الى مركبة تأخذنا الى هناك.» قال ڤيسواميترا مدركاً ما يدور في ذهن الملك.

فناشده الملك: «لم ينفصل راما ابداً عن اخيه لاكشمانا، فهل من الممكن ان يذهب هو ايضا معه؟» وبدا عليه الارتياح عندما سمع ڤيسواميترا يقول: «نعم، ولسوف اعتني بكليهما، رغم ان مهمتهما ان يرعياني. دعهما يستعدا كي يتبعاني، ولينتقيا اسلحتهما المفضّلة، ويستعدا للرحيل».

استدار داساراتا، وفي عينيه نظرة من يدفع بأسرى الى يدِ عدو، الى وزيره وقال: «احضر ابنيَّ».

سار راما ولاكشمانا خلف استاذهما كظل له الى خارج حدود المدينة

حتى وصلوا نهر سارايو الذي كان يحدّ العاصمة من الشمال. وعندما هبط المساء، استراحوا في بستان كثير الشجر، وعند الفجر عبروا النهر. وعندما غمرت اشعة الشمس قمة الجبل، كانوا قد وصلوا الى بستان غطّته سحابة عطرة من الدخان كانت قد تكونت من نيران المحرقات العديدة. فقال ڤيسواميترا الى راما موضحاً «هنا كان الإله شيڤا يقضي بعض الوقت في التأمل ذات مرة حين أحال إله الحب الى رماد عندما حاول ان يفسد عليه هذا تأملاته. ومنذ أزمنة سحيقة، كان القديسون الذين يضرعون الى شيڤا يحضرون الى هنا لتقديم محرقاتهم. وحجاب الدخان الذي تلاحظه هو من نيران محرقاتهم».

ومن مكان اعتزالهم، خرج عدد من النسّاك لاستقبال ڤيسواميترا، ودعوه مع تلميذيه لتمضية الليلة معهم. وفي الفجر استأنف ڤيسواميترا رحلته، ووصل عند منتصف النهار الى منطقة صحراوية. لاتعكس كلمة «صحراء» وحدها، وبدرجة كافية، الجفاف المطلق لهذه الارض، فقد جفّت كل الخضروات تحت اشعة الشمس الحارقة وتحولت الى رماد. حتى الحجارة والصخور تفتت وتحولت الى رمال ناعمة، مكونةً بذلك كثباناً واسعة تمتد حتى الافق. هنا كان كل شبر من الأرض جافاً محروقاً ساخناً الى درجة لايمكن تخيلها. كانت الأرضٍ متشققة ومتصدعة، تظهر في كل مكان منها شروخ كبيرة. لم يكن هناك فارق بين الفجر والظهر والمساء، حيث بدت الشمس وكأنها لاتغيب، تحرق الأرض دون ان تتحرك. كانت هناك عظام بيضاء، وبقايا حيوانات ميتة، من بينها ثعابين ضخمة فتحت افواهها من شدة العطش المميت. وقد اندفعت الأفيال اليائسة الى داخل هذه الأفواه الضخمة بحثاً عن مكان تستظل به (على

حد قول الشاعر). مات الجميع، من ثعابين وافيال، وتحجرّوا وارتفع غمام الحرارة واحرق حتى السّماء. لاحظ ڤيسواميترا، اثناء عبورهم هذه الأرض، الذهول والأسى يكسو وجه الشابين، فنقل الى ذهنيهما تعويذتين (اسماهما «بالا» و«ادي ـ بالا») وعندما استغرقهما التأمل في هاتين التعويذتين وتلاوة ما بهما، بدأ الجو الخانق يتغير فيما تبقى من طريقهما، وشعرا كما لو كانا يجتازان جدولاً فاتراً، وهبّت نسمة صيف جنوبية في وجهيهما وتساءل راما، الذي كان حب الاستطلاع يدفعه دائماً الى معرفة البلاد التي يمرّون بها: «لماذا تبدو هذه الأرض رهيبة جداً؟ لماذا تبدو وكأن اللعنة قد نزلت بها؟»».

«سوف تعلم الإجابة عندما تستمع الى هذه القصة ـ لإمرأة بغيضة قاسية، تأكل وتهضم كل المخلوقات الحية، وتمتلك قوة الف فيل مستعر الهياج».

قصة تاتكا:

المرأة التي اتكلم عنها هي ابنة سوكيتا، وهو نصف إله ذو بسالة عظيمة وقوة ونقاء. لقد كانت إمرأة جميلة ممتلئة حيوية جامحة. وعندما كبرت تزوجت من شيخ قبيلة يدعى صوندا، وانجبا طفلين ـ ماريتشا وصوباهو ـ كانا يتمتعان بقوة هائلة خارقة للطبيعة، اضافة الى قوتهما البدنية. وأدى غرورهما وحيويتهما الزائدة الى تخريب كل مايحيط بهما. وسُرّ ابوهما بمزاحهما وانتقلت اليه العدوى فشاركهما نشاطهما.

فانتزع الاشجار القديمة واخذ يقذف بها، وقام بذبح كل المخلوقات التي كانت في طريقه. ووصل نبأ ذلك الى العالم العظيم اغاستيا (القديس الصغير الذي رشف مياه المحيط ذات مرة عندما اختبأت بعض الكائنات الشيطانية في قاعه، وطلب منه إندرا مساعدته كي يتعقبهما). كانت صومعة اغاستيا في هذه الغابة، وعندما لاحظ آثار هذا الدمار، لعن مرتكب الجريمة، فسقط صوندا ميتاً. وعندما علمت زوجته بموته، قامت وولداها باقتحام الصومعة طلباً للانتقام من القديس. امّا هو فقد واجه تحديهم باللعنة: «لأنكم تدمرون الحياة، فلتصبحوا شياطين ولتسكنوا العوالم السفلية». (لقد كانوا حتى ذلك الحين انصاف آلهة، أما الآن فقد انحطوّا الى مرتبة الشياطين). وفي الحال اعتراهم تحوّل، فاصبحت ملامحهم وقاماتهم بغيضة، وصارت طبيعتهم تتناسب وذلك التحوّل. وذهب الولدان للإنضمام الى كبار الشياطين. وتُركت الأم وحدها، ومازالت تعيش هنا، تنفث ناراً وتنزل اللعنة بكل شيء. لاشيء يزدهر هنا، فقط تبقى الحرارة والرمال. إنّها نار حارقة، وهي تحمل رمحاً ثلاثي الشعب ذا نتوءات، وسوارها حيّة من نوع الكوبرا تلتف حول ذراعها. واسم هذه المخلوقة المخيفة تاتكا. كما ان وجود قليل من الوضاعة يجفف ويشوّه اية شخصية انسانية سويّة، كذلك فان وجود هذه المسخ يحوّل هذا الاقليم، الذي كان خصباً، الى صحراء. وهي دائماً ما تضايق النسّاك في صلواتهم، وتبتلع ايّ شيء يتحرك، وترسل به الى جوفها.

تحسس راما القوس المعلّقة على كتفه ثم تساءل: «وأين نجدها؟» وقبل ان يجيب ڤيسواميترا، ظهرت والارض تهتز تحت اقدامها تسبقها عاصفة. وبدت لهم وعيناها تقدح ناراً، مكشرةً عن انيابها فاغرة فاهها

المشيق، يهتز حاجباها غضباً. ثم رفعت رمحها ثلاثي الشعب وزأرت: «في مملكتي هذه، سُحقت اصغر مصادر الحياة. ولقد ارسلتم لي حتى لا ابقى جائعة».

شعر راما بالتردد، فعلى الرغم من شرورها، كانت ماتزال امرأة. كيف له ان يقتلها؟ فقال له فيسواميترا وقد قرأ افكاره: «لاتعتبرها امرأة على الاطلاق. إن مثل هذا المسخ يجب ألّا يكون له أيّ اعتبار. فقوتها وقساوتها ومظهرها يجعلها لا تنتسب الى ذلك الجنس. في الماضي قام الإله فيشنو نفسه بقتل كياتي زوجة بريغو، التي امرت الشياطين الذين هربوا من غضبه، ورفضت تسليمهم له، كما قهر اندرا ماندوراى، المرأة التي اصرّت على تدمير كل العوالم، وكسب بذلك امتنان البشرية له. هذان مثلان فقط. ان المرأة ذات النزعات الشيطانية تفقد كل اعتبار لتعامل كأمرأة. وهذه التاتكا اكثر بغضاً من ياما، إله الموت، الذي لا ينتزع الحياة الا عندما يحين اجلها. ولكن هذه المسخ تتعطش للقتل والأكل كلما شمّت رائحة مخلوق حيّ. لاتحسبها امرأة على الاطلاق. عليك ان تخلّص هذا العالم منها، فهذا واجبك».

اجاب راما: «سأنفّذ رغبتك».

قذفت تاتكا برمحها ثلاثي الشعب في اتجاه راما، الذي لمس قوسه واطلق سهماً في اتجاه الرمح المتوهج، فهشّمه تهشيماً. بعد ذلك، قذفت تاتكا بوابلٍ من الحجارة كي تسحق اعداءها. فقام راما بإطلاق سهامه التي نجحت في حمايتهم من هذا الهجوم. واخيراً اخترق سهم راما حلقها وانهى حياتها. وهكذا بدأت ايضاً مهمة راما في الحياة وهي تدمير الشر والشياطين. وتجمع الآلهة في السماء وأعلنوا عن فرحتهم

وارتياحهم، وأمروا ڤيسواميترا «ياسيد السلاح الماهر، امنح، ودون تحفظ، كل معرفتك وقوتك لهذا الصبيّ. انه لمنقذ». فأُطاع ڤيسواميترا هذا الامر وعلّم راما كل تقنيات السلاح الخفية. بعد ذلك، ظهر آلهة السلاح، امام راما في خشوع واعلنوا «الان نحن لك، مُرْنا ليل نهار».

وعندما وصلوا الى غابة فوق جبل يلفّها الضباب، قصّ ڤيسواميترا عليهم قصةً اخرى.

قصة مهابالي:

كانت هذه ارضاً مقدسة حيث كان ڤيشنو يجلس يستغرقه التأمل. (بالرغم من ان راما كان هو نفسه ڤيشنو، الّا ان تجسده الانساني جعله غير مدرك لحقيقة شخصيته في تلك اللحظة). وبينما كان ڤيشنو مشغولاً هكذا، استولى مهابالي على الارض والسماء واخضعهما لسيطرته. واحتفل بانتصاره بتقديم محرقة عظيمة، وبهذه المناسبة وجّه الدعوة الى كل الرجال الحكماء وكرّمهم. امّا الآلهة الذين هزموا في عراكهم مع مهابالي، فقد وصلوا كمجموعة الى المكان الذي كان ڤيشنو يتأمل فيه، وناشدوه ان يساعدهم لاسترداد ممالكهم. واستجابة لنداءاتهم، تحت ولادة ڤيشنو في عائلة من البراهمة كشخص ذي حجم ضئيل جداً. ولكن كان داخل هذه الشخصية شديدة الصغر قدر كبير من القوة والعلم. وسرعان مادرك مهابالي عظمة هذا الرجل القزم عندما قدم الى بوابة قصره. وتلقى مهابالي ضيفه بترحاب واحترام.

وقالْ الضيف: «جئت من مكان بعيد بعد ان سمعت عن عظمتك. وكان طموحي في الحياة القاء نظرة على شخص يشتهر بالبسالة والكرم معاً. والآن وبعد لقائي معك تحققت امنية حياتي. فإنجازات مثل انجازاتك لايمكن قياسها. وعندما يُلقي رجل فقير مثلي بنظرة على الوهيتك فانه يحظى بجزء منها ايضاً».

اجاب مهابالي: «ايها العظيم، لا تمدحني، فانني مجرد مقاتل وفاتح ـ وانها لصفات وضيعة بالمقارنة مع شخص مثلك وانجازاتك الخاصة. وانا لاتخدعني المظاهر ببساطة، وبأمكاني ان اعرف كم انت عظيم. وسأكون سعيداً لو قبلت هديةً مقابل شرف زيارتك لي».

«لاأريد شيئاً. ولاأُحتاج الى ايةّ هدية سوى رضاك».

«لا، لاتذهب، من فضلك. اطلب شيئاً، اذكر ايّ شيء تريد، ولسوف يسعدني ان امنحك ايّاه».

«اذا كنت مصرّاً، اعطني اذن قطعة ارض».

«نعم، اختر مايحلو لك».

«ليس اكثر مما يساوي ثلاث خطوات من قدمي...

ضحك بالي ونظر اليه من قمة رأسه الى اخمص قدميه، ثم قال: «هل هذا كل شيء؟» .

«نعم».

«والآن سوف...» بدأ مهابالي يقول، ولكن قبل ان يتمكن من اكمال جملته، قاطعة استاذه سوكرا تشاريا ليحذره: «ايها الملك، لاتتسرع، فالشكل الصغير الذي تراه انما هو خدعة. انه صغير جداً، ولكن هذا الشكل المصغر...» .

«اوه، توقف! انا اعرف مسؤوليتي. ان تعطي طالما انّ ذلك في امكانك فذلك هو الوقت المناسب، امّا حجب الهدية فذلك عمل غير مقدس ولايليق بك. الأنانيّ ليس باسوأ ابداً من ذلك الذي يوقف اليد المعطاء. لاتوقفني». قال الملك ذلك وهو يصب قليلاً من الماء من اناء في راحة يد الرجل الصغير مصداقاً لوعده. (ويقال في بعض النصوص انه في هذه اللحظة اتخذ سوكرا تشاريا شكل نحلة وطار الى فم الاناء كي يمنع انسياب الماء ويوقف بذلك اتمام القسم .وعندما شعر القزم بذلك، اخذ حفنةً من الحشيش الحار ودفع به الى فم الاناء ليزيل الانسداد، ففقأ عين سوكرا تشاريا الذي اصبح يُعرف بعد ذلك بالعالِم ذي العين الواحدة). وبينما كان بالي يصب هذه التقدمة من الماء، قال للرجل الصغير: «والان؛ قِسْ وخُذ خطواتك الثلاث من الارض».

وفي اللحظة التي سقط فيها الماء على يده، اتّخذ هذا الشخص، الذي كان اضحوكة الى ذلك الحين حتى لوالديه، قواماً مهيباً بامتداد الارض والسماء. وفي خطوته الاولى غطّىٰ كل الارض، وفي الثانية غطىّ السموات. ولم يبق اي مكان في الكون كله، فسأل مهابالي: «اين اضع خطوتي الثالثة؟» .

انتابت الرهبة مهابالي، فركع وانحنى له قائلاً: «هنا على رأسي، ان لم يكن ثمة مكان اخر». رفع فيشنو قدمه ووضعها على راس مهابالي، وضغط عليها باعثاً ايّاه الىٰ العالم السفلي، وقال له: «يمكنك ان تبقى هناك». وهكذا تخلص من مُقْلِق العوالم كلها.

وعند اختتامه للقصة، اعلن فيسواميترا: «هذه نهاية رحلتنا في الوقت الحاضر. وسأقوم هنا بتقديم المحرقات في ظل حمايتكما».

بعد برهة وجيزة، احضر ڤيسواميترا جماعة من القديسين، واعدّ العُدة للمحرقة، بينما قام راما ولاكشمانا بحماية المنطقة. اثناء ذلك اجتمعت الشياطين في السماء فوق الارض المقدسة واستعدت لإفساد مراسيم المحرقة. لقد تسلحت الشياطين بعدد متنوع من الاسلحة القاتلة، ثم صرخت وولولت وحاولت بطرق اخرى ان تحدث الفوضى، فقذفت ماءً مغلياً وبعض النفايات على الارض المقدسة، واطلقت التهديدات واللعنات والتجديفات. وكانت تقتلع صخوراً ضخمة وتقذف بها. لقد أحدثت شغباً سحرياً مخيفاً.

بُدا الذهول على جماعة القديسين، ولكن راما اشار عليهم: «لاتنزعجوا واستمروا في صلواتكم».

قال لاكشمانا لراما: «سأتولى أنا أمرهم». واطلق سهامه عليهم، بينما ارسل راما سهامه الى اعلى، وشكّل بذلك مظلة لحماية النار المقدسة من تدنيسها بدماء الشياطين. واعتقد صوباهو وماريتشا، ابنا تاتكا، ان هذه افضل فرصة للانتقام لموت والدتهما، ووجها هجومهما نحو راما الذي حملت طلقته الاولى ماريتشا وقذفت به في البحر، وقضت الثانية على صوباهو. اما الشياطين، التي كانت قد تجمعت في حماسة، فقد انسحُبت مذعورة.

وتم انجاز المحرقة بنجاح. واعلن ڤيسواميترا: «يا راما، انت الوحيد الذي تمكنت من مساعدتي في هذه المهمة. لقد تمّت هذه المحرقة، ليس لإشباع رغبتي الخاصة، ولكن لفائدة الإنسانية ذاتها».

فسأل راما: «وماذا يعّد ذلك؟».

اجاب ڤيسواميترا: «لقد انجزت الكثير الآن. ومايزال هناك الكثير

امامك»، ملمحاً بذلك الى المهام التي كان على راما ان ينجزها في تجسده هذا «في الوقت الحاضر، دعونا نتجه إلى مدينة ميتلا، حيث سيقوم الملك جانكا بتقديم محرقة عظيمة، وسوف يأتي الكثيرون الى هناك. ولسوف تستمتعون بهذه التسلية». وعلى الرغم انه اقترح هذه الخطوة كنوع من الاستجمام لراما، الاّ انه ادرك بنفاذ بصيرته انها لم تكن سوى بداية سلسلة من الاحداث العظيمة التي ستؤثر في مستقبل راما.

وفي نهاية رحلة اليوم، وصلوا الى وادٍ ينساب فيه نهر الجانجا.

فقال ڤيسواميترا «هناك تشاهدون نهر الجانجا، اقدس انهار العالم، الذي يبدأ من الهمالايا ويتخذ مساره خلال جبال ووديان وعبر عدة ممالك. انه ينساب اليوم في هدوء، ولكن في البداية..... والآن استمعوا الى قصته».

قصة الجانجا:

ربما ادركتم الان ان كل شبر من الارض له ارتباط إلهي. ان أمّنا الارض وُجدت منذ بدء الخليقة، فهي واحدة من العناصر الخمسة الاولية، وقد شاهدت عدداً لايحصى من الاقدام تسرع وراء الآلاف من الاهداف والاغراض، الشرير منها والطيب. وسيستمر ذلك حتى يبتلع الزمن («كالا») كل شيء ويهضمه. وحتى بعد اختفاء كل المسهمين في ذلك، فسيظل كل شبر من الارض يحتفظ بآثار كل ماحدث من قبل. إننا نحصل على الفهم الكامل فقط عندما نعي الارتباطات الإلهية والاخرى

لكل قطعة ارض نسير عليها. وخلاف ذلك سيكون مثلنا مثل رجل اعمى يسير في قاعات وحدائق مضيئة. ذلك هو السبب في انني شرحت لكم قصة كل مكان مررنا به. والان تشاهدون هذا النهر. انه الجانجا ينساب في الوادي، يأتي من الهمالايا ويحمل معه عطر الاعشاب النادرة والعناصر الموجودة في طريقه. انه يجري عبر ممالك كثيرة، وكل شبر من الارض يلمسه يصبح مقدساً، فالجانجا يطهّر ويغيّر. وبرشفة من هذا الماء او برماد بعض العظام، ينال المحتضر خلاصه الان تجدون النهر هادئاً وجميلاً. ولكن كان لابد من ترويض الجانجا والسيطرة عليه قبل ان يلمس هذه الارض. وترتبط قصته بمصير اجدادكم الأوائل.

حكم ساكارا، احد اجدادكما، الارض بشكل متميز عظيم في وقت من الأوقات. وكان له الكثير من الابناء الشجعان والمخلصين لوالدهم وفي وقت مناسب من حياته، خطّط لأداء محرقة هامة جداً - «محرقة الحصان».

وفي الاستعدادات لهذا الاحتفال، يُطلق سراح فرس لامع يكسوه سرج مزركش، ويسرع الفرس حراً عبر حدود ممالك كثيرة. ويُعتبر كل بلد يسمح بمرور الفرس عبر اراضيه بأنه قَبِل سيادة صاحب الفرس عليه. ولكن لو حاول شخص ما عند اية نقطة أن يوقف الفرس، يُعتبر ذلك تحدياً يؤدي الى الحرب. فيهاجم صاحب الفرس الاصلي البلد الذي اوقف الفرس، ويطلق سراحه ثانيةً. ويتكرر ذلك المرة تلو الاخرى حتى يعود الفرس الى موطنه. عندئذٍ تصبح جميع البلاد التي مرّ بها تابعةً للملك، ويحتفل الملك بانتصاره بأقامة «محرقة الحصان» التي تجعل منه سيد الارض الأعظم. الذين يشرعون في تنفيذ مثل هذه الخطّة يكونون

واثقين من النصر ويطمحون في نهاية الامر في توسيع حدود امبراطوريتهم وتحدّي إندرا ذاته. ومن هنا ينتاب إندرا وكل الآلهة اليقظة والقلق كلما أُعِّد لمحرقة، ويفعلون كل ما بوسعهم لإفشالها.

عندما بدأ فرس ساكارا مسيرته، قام إندرا باختطافه واخفاه في اعمق عالم سفلي، خلف الحكيم كابيلا الذي كان قد التمس هذه العزلة بعيداً جداً عن الارض، وذلك من اجل طقوسه الروحية. وعندما عُرف نبأ فقدان الفرس في العالم السفلي، بدأ ابناء ساكارا في الحفر على نطاق واسع وعميق، ونزلوا الى احشاء الارض. فوجدوا فرسهم مقيداً خلف الرجل المتعبد، فامسكوا بالفرس وقاموا بتعذيب القديس ظناً منهم انه قد سرقه. وعندئذٍ حوّلهم القديس بنظرة غاضبة الى رماد. ولكن احدهم بقي حياً بعد هذه الحملة، وكان حفيداً للإمبراطور، فقد اعتذر للحكيم وعاد الى موطنه، ثم ساعد الملك العجوز في استكمال «محرقة الحصان». وفي مابعد، تخلىٰ الملك ساكارا عن هذا العالم لحفيده الذي كان والد باغيراتا، وهو المسؤول عن نزول الجانجا الى الأرض.

وعندما كبر باغيراتا وعلم بمصير اجداده. جعل مهمته في الحياة مساعدتهم في نيل الخلاص بدلاً من ترك ارواحهم معلقةً في الجو دون اجراء مناسب للتخلص من بقاياهم. فصلّىٰ بحرارة ولمدة عشرة الآف سنة الى براهما الخالق الذي نصحه بان يطلب المعونة من شيفا لإنزال الجانجا من اعلىٰ السماء من اجل غسل وتطهير عظامهم في المياه المقدسة. فصلّىٰ لمدة عشرة الآف سنة الى شيفا الذي ظهر له ووعد بأن يمنحه رغباته اذا تمكن بطريقة ما من اقناع الجانجا بالنزول. وعندئذٍ صلّىٰ الى الجانجا لمدة خمسة الآف سنة، فظهر له الجانجا على شكل فتاة

صغيرة وأنيقة، قالت له: «لاشك ان شيفا وعدك بالمساعدة، ولكن اذا نزل الجانجا بكل قوته فلن تحتمله الارض، لانه ليس هناك شيء على الاطلاق يمكنه ان يتحمل قوة نزوله. لقد وافق شيفا على مساعدتك ـ ولكن عليك ان تعرف نواياه. صلِّ له مرة اخرى».

وبعد المزيد من التأملات قام بها باغيراتا، ظهر له شيفا ثانيةً، وقال له: «فلينزل الجانجا، وسوف اساعدك. وسأتدبر الامر بحيث لن تضيع هباءً ايّة قطرة من تلك المياه، ولن يُسمح لها بإن تسبب المتاعب لأحد». وهكذا كان الموقف يتطور الى سلسلة من التحديات بين شيفا والجانجا. وبدأ باغيراتا يشعر بأنه اصبح العوبة يتقاذفها إلهان يتحدى احدهما الاخر. ولكن ذلك لم يثبط من عزيمته (اسمه يعني الجهد الذي لايعرف الكلل)، فقام بتقديم الصلوات لمدة ثلاثين الف سنة كاملة، ملتزماً التقشف الصارم ـ كالاقتيات بأوراق الشجر المتساقطة والجافة، ثم بالهواء، وبعد ذلك بأشعة الشمس، وفي المراحل الاخيرة تخلّى حتى عن هذه الاشياء وعاش عملياً على لاشيء، ولم يعد يعي شيئاً سوى هدفه وايمانه.

وفي نهاية كفارة باغيراتا، بدأ الجانجا، الذي كان منبعه في العالم البعيد لبراهما الخالق، في النزول على شكل طوفان هادر. وكان شيفا عند وعده وظهر على مسرح الاحداث، بالضبط عندما كان الطوفان على وشك ان يرتطم بالارض ويدمرها. واتخذ شيفا موقعه وثبّت قدماه بقوة، واضعاً ذراعيه في خاصرته، وتلقى الصدمة على رأسه، واختفى الطوفان بين ضفائره المتشابكة والمجدولة. كانت هذه نهاية وديعة بالمقارنة مع ماأظهره الجانجا من قبل من غرور وضجيج ـ بل كانت هادئة ووديعة

حقاً لدرجة انّ باغيراتا بدأ يشعر بالقلق. وبدا له ان هذه نهاية الجانجا، وان كل صلواته وكفاراته لم تؤدِ الى نتيجة في النهـاية. وادرك شيڤـا مخاوفه، فاطلق من شعره مجرى صغيراً سار به باغيراتا، في عناية وقلق، الى ماتحت الارض حيث رماد اجداده، وساعد بذلك ارواحهم على نيل الخلاص. وهكذا قدم باغيراتا المساعدة ليس لأجـداده فحسب ولكن للبشرية كلها، حيث ان عدداً لايحصى من المعابد المقدسة اقيمت على ضفاف الجانجـا، كما انه يقدم الغذاء، على طول مجراه، الى مـلايين الناس وكذلك الى الارض. اما الحفرة التي قام ابناء ساكارا بحفرها اثناء بحثهم عن فرسهم فقد امتلأت ايضاً بالمياه ونشأت المحيطـات الحالية.

عندما اصبحوا على مرمى البصر من مدينة ميتلا، واثناء عبورهم لمساحة من الارض مرتفعةً قليلاً، لاحظ راما وجود لوحة حجرية لاشكل لها، وهي نصف مدفونة عمودياً في الارض، وعند مروره بها، سقط غبار قدميه عليها، فتحولت في الحال الى امرأة جميلة. وبينما انحنت المرأة في اجلال ووقفت جانباً في احترام، قام ڤيسواميترا بتقديمها الى راما: «اذا كنت قد سمعت عن الحكيم غوتاما، الذي ادّت لعنته الى ان يصبح جسم إندرا العظيم مغطى بآلاف العيون... فهذه السيدة كانت زوجته واسمها أهاليا». ثم قصّ على راما قصتها.

قصة اهاليا:

ذات مرة خلق براهما إمرأةً من مقومات الجمال المطلق، واسماها اهاليا (التي تعني باللغة السانسكريتية لاعيب فيها). ولقد افتتن الإله إندرا، اعظم إله من بين الآلهة، بجمالها، واقتنع بأنه الوحيد الجدير بطلب يدها. وعندما لاحظ براهما غرور إندرا ووقاحته، تجاهله وأتى بالحكيم غوتاما. فكبرت البنت في رعايته وعندما حان الوقت، اعادها الى براهما وسلّمها اليه.

اعجب براهما بنقاء عقل وقلب غوتاما (لم يحدث ابداً ان خطرت بباله فكرة شهوانية)، وقال له: «تزوجها فهي تليق بان تكون زوجةً لك، او بالأحرى انت الوحيد الذي يستحق ان يكون زوجها». وعليه، تزوجت منه وباركها براهما والآلهة الاخرون. وكانت اهاليا، التي قضت طفولتها مع غوتاما، تعرف احتياجاته، وهكذا اثبتت أنها زوجة مثالية، وعاشا معاً في سعادة.

اما إندرا فلم يستطع ابداً التغلب على افتتانه باهاليا، وكثيراً ماكان يحضر متخفياً بالقرب من صومعة غوتاما، يتحين الفرص ليستمتع برؤية اهاليا، كما راقب عادات الحكيم فلاحظ أنه كان يترك صومعته فجر كل يوم ويغيب مدة ساعتين عند النهر ليستحم ويصلّي. وعندما لم يعد قادراً على تحمل آلام الحب، قرر إندرا ان يحصل بالحيلة على المرأة التي يحبها. ذات يوم لم يستطع الانتظار حتى يخرج الحكيم في موعده المعتاد، فصاح مثل الديك وايقظ بذلك الحكيم الذي اعتقد ان النهار قد طلع فذهب الى النهر. اتخذ إندرا شكل الحكيم ودخل الى الكوخ ونام مع

اهاليا التي اسلمت نفسها له. ولكنها ادركت بعد فترة ان الرجل الذي يستمتع بها ليس الاّ محتال؛ لكنها لم تستطع ان تفعل شيئاً. وفي هذه اللحظة، عاد غوتاما بعد ان شعر بان هناك خطأ ما قد حدث، وفاجأ الاثنين في الفراش، انتحت اهاليا جانباً وهي تشعر بالعار والندم، واتخذ إندرا لنفسه شكل قط (اقدر الحيوانات على التسلل) وحاول ان ينسل خارجاً. فنظر الحكيم من القط الى المرأة، ولم تنطلِ عليه الخدعة. فاوقف القط حيث كان بهذه الكلمات:

«ايها القط، اني اعرفك، واستحواذ الانثىٰ على اهتمامك سيؤدي الى هلاكك. فليكتسي جسمك بالآلاف من علامات الانوثة حتى يعرف الناس في كل العوالم مايدور في ذهنك حقيقةً في كل الاوقات». وما ان تفوه بهذه الكلمات حتى تغطّى كل شبر من جسم إندرا بعضو الانثىٰ التناسلي، ولم يكن هناك عار اكثر من هذا يحّل بإندرا المتكبر المختال.

وبعد ان انسلّ إندرا خارجاً، عائداً الى عالمه، نظر غوتاما الى زوجته وقال: «لقد ارتكبت الخطيئة بجسدك، فليتحول جسدك هـذا، وحيث تقفين، الى قطعة من الجرانيت لاشكل لها...» توسلت اليه اهاليـا في يأس: «لقد أُرتكب خطـأ عظيم. ومن طبيعة الارواح النبيلـة ان تغفر اخطاء الكائنات الأقل منها شـأناً. ارجوك... انني اشعـر بثقل كبـير يزحف الى اعلى قدميْ. افعل شيئاً... ارجوك ساعدني...

عندئذٍ شعر الحكيم بالأسف من اجلها، وقال: «سيحـل خلاصـك عنـدمـا يمـر رامـا بن داسـاراتـا من هـذا الطـريق في وقت مـا في المستقبل.....

«متىٰ؟ وأين؟» بدأت تتساءل في يأس، ولكن وقبل ان تفارق الكلمات

شفتيها تحولت الى قطعة من الحجارة.

في البداية صارت ورطة إندرا سخرة في كل العوالم، ولكنها تحولت الى مأساة فيما بعد، فقد اعتزل في الظلمة ولم يعد بإمكانه ابداً الظهور امام الرجال او النساء. وقد اقلق ذلك كل الآلهة، حيث ان مهامه المتنوعة في كل العوالم ظلت معطلة، وذهبوا بكامل هيئتهم الى براهما وناشدوه ان يتوسط لدىٰ غوتاما. وخلال هذا الوقت كان استياء الحكيم قد انتهى، واستجابةً لمناشدة براهما، قال: «لتصبح الآلاف، التي اضيفت الى ملامح إندرا، عيوناً منذ ذلك الحين اصبح إندرا يُعرف «بالإله ذي الألف عين».

ختم ڤيسواميترا قصته وخاطب راما: «ايها العظيم، لقد ولدتَ كي تعيد الصلاح والفضيلة الى البشرية، ولكي تجتث الشر كله. عند المحرقة، شاهدتُ قوة ذراعيك، والآن اشاهد عظمة لمسة قدميك».

فقال راما لاهاليا: «ابحثي عن زوجك الموقّر والحقي به، وكرِّسي نفسك لخدمته مرةً اخرىٰ. ولاتثقلي على نفسك بما مرّ وانتهى».

وفي طريقهم الى ميتلا، توقفوا عند صومعة غوتاما للاستراحة، وقال ڤيسواميترا للحكيم: «لقد استعادت زوجتك هيئتها الطبيعية بلمسة من قدم راما. اذهب وعُد بها، فلقد تطهر قلبها من خلال المحنة التي مرّت بها». وعندما تم ذلك كله، ساروا في طريقهم، مخلِّفين وراءهم البساتين العطرة والغابة، واقتربوا من البوابات الحصينة لمدينة ميتلا.

الفصل الثاني

الزفاف

بعد كل ذلك الترحال عبر الغابات والطرقات الجبلية والوديان وعبر اماكن يسودها الصمت والوحشة، انشرح صدرنا لوصولنا ميتلا مدينة الالوان والمتعة حيث يستمتع الناس بالحياة. ومنذ اللحظة الأولى التي يدخل فيها راما الى ميتلا، يلاحظ الابراج والقباب الذهبية والقلاع والاعلام المزركشة تخفق كما لو كانت ترحب بعريس ملكيّ. وتتألق الشوارع بكل انواع المجوهرات التي القىٰ الناس بها (مثل قلادة انقطعت اثناء رقصة او لهو، او قذفت بعيداً لأنها كانت مصدر ازعاج اثناء عناق)، ولم يكن هناك احد يرغب في التقاطها في مجتمع الرفاهية هذا ولم يكن هناك حاجة الى التصدق بها في بلاد الكوسالا حيث لم يكن هناك من يتلقاها. وعلى جانب الطريق وكانت هناك اكوام من اكاليل الزهور الممزقة يتجمع النحل فوقها. كانت الإفرازات السود على افخاذ الافيال الجبلية تتدفق في الطرق الرئيسية مختلطة بالزبد الابيض الذي كان يندلق من افواه الخيل التي كانت تعدو بسرعة، والملطخة بالطين

والغبار المتطاير من عجلات المركبات.

وعلى مصطبات مرتفعة كانت النسوة يغنين ويرقصن على انغام الآلات الموسيقية والطبول الهادئة. وكان هناك ازواج من الناس يستمتعون بالتأرجح الى الامام والى الخلف على اراجيح تتدلى من قوائم مرتفعة مصنوعة من سعف النخيل، بينما تتطاير قلائدهم واكاليل زهورهم في الهواء. ومرّ راما ولاكشمانا بمحال تعرض الاحجار الكريمة والذهب والعاج وريش الطاووس والخرز والشعر المستعار المصنوع من شعر غزال الهمالايا النادر. ولاحظا وجود حلبات تدور فيها معارك غريبة للأفيال، ترافقها هتافات تصدرها حشود الشباب، ومجاميع من النساء يغنين اشعاراً قصصية وأغاني حبّ تحت مظلات على جانب الطريق، وتعدو الخيول وتدور بلا توقف حول حلبات مسوّرة يشهدها رجال ونساء متأنقون، وحمامات السباحة بأسماكها متعددة الالوان والتي يثيرها منظر الناس الذين يسبحون في الماء معها.

عبروا الخندق المائي الذي احاط بقصر جانكا بابراجه الذهبية التي ترتفع اكثر عن المباني الأخرى في المدينة. وهنا لاحظ راما الأميرة سيتا مع رفيقات لها في احدى الشرفات. فوقف مشدوهاً بجمالها، وشاهدته هي ايضاً في اللحظة نفسها. والتقت عيناهما. لقد كانا معاً منذ فترة ليست بالطويلة في ڤايكونتا، موطنهما الأصلي في السماء، كڤيشنو وزوجته لاكشمي. ولكنهما في تجسدهما الراهن كانا يعانيان من كل مايعاني منه البشر، ونظر احدهما للأخر، كغريبين. ان سيتا، التي كانت تتزين بالحلّي والأزهار وتجلس وسط مرافقاتها، لمعت في عينيه كشعاع من البرق، وتوقفت هي كي تشاهد راما يختفي ببطء عن ناظريها، يرافقه

استاذه الحكيم واخوه. وفي اللحظة التي اختفى فيها، انتاب ذهنها قلق عميق. ظهر في عينيها بصيص ضئيل من الحب انتشر فيما بعد وشمل كيانها كله، فشعرت أنها مريضة.

وعندما لاحظت مرافقاتها التغيّر الذي طرأ عليها، وابتئاسها المفاجيء وذبول كيانها كله حتى ان الأساور حول معصمها انسلتت منها، انصرفن بها وفرشن لها مناماً مريحاً لترقد عليه.

راحت تتقلب على فراشها وتشكو: «ايتها البنات، لقد نسيتن كيف تصنعن فراشاً مريحاً انتن جميعاً تسخرن مني». لم ترها وصيفاتها في مثل هذه الحالة من قبل، فتحيرن وضحكن في البداية، ولكن سرعان ما انتابهن القلق عندما لاحظن الدموع تنهمر على خديها ووجدنها تهذي بلا وعي «اكتاف من الزمرد، وعينان كنبتة اللوتس، من هو؟ لقد غزا قلبي ونزع عني الخجل. ياله من لص يسير سريعاً. لماذا لم يتوقف كي احظى بنظرة اخرى منه واهدّيء من مشاعر قلبي المشاغب هذا كان هنا، وفي اللحظة التالية كان هناك، ثم اختفى الى الابد. لايمكن ان يكون الهاً ـ فقد ارتجفت جفون عينيه... ام كان ساحراً يفتن الناس بسحره؟»

غربت الشمس فيما وراء البحر، هكذا يقول الشاعر ـ وعندما يذكر الشاعر البحر فعلينا ان نتقبل ذلك، فلا ضرر ان تركنا شاعراً يصف رؤيته، ولا داعي لأن نشكك في جغرافيته. ـ ارتفع تغريد الطيور وهي تستقبل الليل وتستعد له، وازدادت اصوات الامواج على شاطيء البحر وضوحاً مع تقدم المساء نحو العشاء والليل. وهبّت نسمة باردة من البحر، ولكن ذلك لم يجلب الراحة لسيتا، بل زادت هذه الساعة في لوعة

الحب واثارت في قلبها شوقاً يائساً، ونادىٰ طائر نادر، يدُعى «انريل»على رفيقته.

وكان من عادة سيتا في مثل هـذه الساعـة ان تنصت الى تغريـده الشجيّ، ولكن صوته في ذلك اليوم بدا اجش قبيحاً. ناشدته سيتا: «ألا ايها الطائر،اينما كنت، الزم الهدوء، من فضلـك. انك تبغي إيـذائي وتزعجني بصيحاتك ونواحك. ان خطاياي التي ارتكبتها في ميلاد سابق لي * اتخذت هيئتك، وهاهي تعذبني الآن!» بزغ البدر من وسط البحر وغمـر الارض بضيائـه الخافت. لـدى رؤية سيتـا له، غطّت عينيهـا براحتيها، وشعرت بأن كل مايحيط بها غريب عنهـا يفاقم من المهـا. لاحظت وصيفاتها حزنها وخشـين ان يكون قـد المّ بها فجـأة مرض عضال، فأشعلن مصابيح خافتة الضوء تتغذىٰ فتائلها بالزبد الصـافي، ولكنهن وجدن انها لاتحتمل حتى مثل هذا الضوء. فأطفأن المصابيح ووضعن بدلاً منها جواهر متلألئة يشع منها ضوء خافت. وصنعن لها فراشاً مريحاً علَى لوح من حجر القمر تكسوه عدة طبقات من البتلات ناعمة الملمس، ولكن الازهار ذبلت. وتلوّت سيتا ألماً وتأوهت، وتشكت من كل شيء ـ الليل والنجوم وضوء القمر والزهور: كون كامل من عناصر لا شفقة عندها. واستمر السؤال يتردد في ذهنها: «من هو؟ وأين ذهب؟ لقد برق فجأة واختفى ـ ام انني اهلوس؟ لايمكن ان يكون هذا ـ «فالهلوسة وحدها لاتضعف المرء كثيراً».

وفي دار الضيافة، خلا راما بنفسه لينام. وفي غرفة نومه، بدأ يفكر في الفتاة التي شاهدها في شرفة القصر. وبدا القمر، بالنسبة له، وكأنه يعمق

* يؤمن الهندوس بفكرة تناسخ الارواح. (المترجم)

من احساسه بالوحدة. شعر في قرارة نفسه بالاضطراب رغم انــه لم يظهر ذلك. لقد جعله احساسه المتأصل بالآداب وضبط النفس يخفي مشاعره امام الآخرين. والآن اخذ يفكر في الفتاة التي كانت بالشرفة واشتاق الى رؤيتها مرة اخرى . من تكون؟ لم يكن هناك مايشير الى انها اميرة - ربما كانت واحدة من بين مئات الفتيات في القصر. لايمكن ان تكون متزوجة، فقط ادرك راما انهـا لو كـانت متزوجـة لأبتعد عنهـا بالغريزة. ووجد نفسه الآن يفكر فيها من النواحي كافة. تخيل انها تقف امامه، وودّ لو احتضن هذا الصدر وقبّله. وقال لنفسه: «حتى لـو لم اتمكن من ضمِّها بين ذراعيْ، اليس بالإمكان ان القي نظرة اخرى، مهما كانت قصيرة، على ذلك الوجه المشرق وتلك الشفاه؟ العيـون والشفاه وضفائر الشعر المجعد التي تغطي جبينها - كل واحدة من تلك الملامح تبدو على استعداد كي تهاجمني وتتغلب عليَّ - انا الذي دمّرت الشياطين بقوسي، اصبحت الآن تحت رحمة اله الحب الذي يستخدم فقط قوساً من قصب السكر ويستعمل الزهور سهاماً له...» وابتسم من سخرية الاقدار.

انقضى الليل، ولكن راما لم ينل إلّا قسطاً ضئيلاً من النوم. وغرب القمر عند الفجر. ووجد راما انه قد حان الوقت لينهض ويعِّد نفسه كي يرافق استاذه الى مراسم الاستقبال في قصر جانكا.

في قاعة الاجتماعات شاهد الملك جانكـا راما ولاكشمـانا، فســأل فيســواميترا: «مَن همـا هذان الشــابان الجـذّابان؟» فـاوضــح لـه فيسواميترا ذلك. وعندما استمع جانكا الى سلالة راما وبراعته الفائقة، قال وهو يتنهد: «كم اتمنى لو كان بإمكاني ان اقترح عليه الزواج من

ابنتي». ادرك فيسواميترا سبب يأسه، فقد كان هنـاك شرط يبدو من العسير التغلب عليه بالنسبة لموضوع الزواج من سيتا.

كان لدى الملـك جانكـا قوسـاً ضخمةً، كـانت تخص، في وقت من الاوقات، شيفا، التي تخلى عنها وتركها في رعـاية احـد جدود جـانكا الأوائل، فبقيت مع ورثته. وكانت سيتا، كطفلة رضيعة، هدية من أمنا الارض الى جانكا، وجدوها في اخدود بأحد الحقول اثناء حراثته. وتبنى جانكا الطفلة ورعاها، فكبرت واصبح جمالها آيةً حتى ان الكثـير من الأمراء، الذين اعتبروا انفسهم اهلاً لهـا، احتشدوا في قصر جـانكا وتنافسوا في طلب يد سيتا. ولأن الملك جانكا لم يكن في مقدوره تفضيل احدهم على وجه الخصوص، ولكي يتخلص منهم، أعلن شرطاً وهو ان كل من استطاع ان يحمل قوس شيفا ويشد وترهـا يمكن اعتباره زوجـاً مناسباً لسيتا. وعندما القى خطّابها نظرة على القوس، ادركوا انه شرط مستحيل وغير مقبول، فانصرفوا غاضبين ثم عادوا فيما بعد بجيوشـهم، وهم على استعداد للفوز بسيتا بالقوة. لكن جانكا تصدّى لعدوانهم. وفي النهاية اضطروا الى الانسحاب. ومع مرور الوقت بدأ جانكا يقلق حول إمكانية ان يرى ابنته متزوجة ومستقرة ـ حيث انه لم يعد في الامكان سحب الشرط الذي كان قد أعلنه. وبدا كما لو انه ليس هناك احد على وجه الارض جدير بالاقتراب من قوس شيفا. وانتابت الحسرة جانكا: «كلما فكّرت في مستقبل سيتا انتابتني الرعشة وشككت في صحة قراري الذي ربط بين مستقبلها وبين هذا الإرث الالهي العظيم لدى عائلتنا».

قال فيسواميترا مخففاً عنه: «لاتيأس. كيف تعرف انه لم يكن إلهاماً الهياً ذلك الذي اعطاك هذه الفكرة؟»

«هل هناك احد في كل العوالم يستطيع ان يتولى امر هذه القوس التي ارتعشت وانهارت الآلهة المخطئة وصغار الآلهة لمجرد رؤيتها في يد شيڤا ـ حتى تخلى عنها شيڤا وتوقف عن استعمالها؟»

«هل تأذن لنا بأن نراها؟»

قال جانكا: «سوف آمر باحضارها الى هنا، بعد ان ظلّ متروكاً فترةً طويلةً جداً.. من يدري، ربما تغيرت اقدارنا لو اخرجناه.» وطلب من خدمه ان يحضروا القوس... تردد الخدم، فأصدر أمره: «اعهدوا بهذه المهمة الى الجيش اذا كان ذلك ضرورياً. على اية حال، هذا المكان مقدس لأنه قد اديت به حديثاً الطقوس المقدسة... ومن المناسب احضار القوس الى هنا».

وُضعت القوس على عربة ذات ثمانية ازواج من العجلات، ووصلت يجرها عدد كبير من الرجال. واثناء مسيرتها في الشوارع تبعها حشد كبير من الناس. كان من الضخامة بحيث لم يكن بإمكان احد ان يشمله بنظرة واحدة. وتعجب الناس: «هل هذا قوس ام انه ذلك الجبل المسمى ميرو الذي مخض الحليب في الزمن الغابر؟» واندهش البعض وقالوا «ياله من هدف ذلك الذي يتلقى السهم الذي يُطلق من هذه القوس، حتى لو تمكن احدهم من رفعها وشدّ وترها! اذا كان جانكا جاداً في ان يجد زوجاً لابنته فعليه ان يتنازل عن هذا الشرط. انها لحماقة منه!»

نظر راما الى استاذه، فهزّ ڤيسواميترا رأسه كأنه يقول: «جرّبه». وبينما كان راما يقترب في وقار وتؤدة من القوس، حبس المشاهدون انفاسهم وراقبوه. وتضرع البعض من اجله في صمت. وعلّق البعض. «ياللقسوة! ألا يخجل هذا الحكيم المزعوم من ان يضع هذا الشاب

الرقيق والعجيب في هذه التجربة القاسية!» «ان الملك لأحمق وقاس لوضعه هذا الشاب، الذي يشبه الآلهة، في مثل هذا المأزق... لو كان جاداً فكان من واجبه ان يضع يد سيتا في يده بدلاً من ان يطلب منه القيام بهذا العمل البهلواني...» «ان هدف الملك الاحتفاظ بسيتا معه الى الأبد ـ هذه طريقته كيلا يفارقها ابداً!» وقالت بعض الشابات اللاتي وقعن في غرام راما حين رأينه: «اذا فشل هذا الرجل، فسوف نقفز كلنا الى النار. اذا فشل فمن المؤكد ان سيتا ستنتحر، وسوف نتبعها جميعاً».

وبينما هم يتفكرون هكذا، اقترب راما من القوس. واغمض بعض المشاهدين اعينهم، غير قادرين على تحمل التوتر، وتضرعوا من اجل نجاحه قائلين: «اذا فشل في ضم نهايتيْ القوس الى بعضهما البعض، فماذا سيحدث للفتاة؟» ولأنهم اغمضوا عيونهم، فاتهم ان يلاحظوا كيف التقط راما القوس بسرعة وشد وترها في احكام وضم نهايتها. وانتابتهم الدهشة لسماعهم صوت اصابهم بالصمم نتج عن تكسّر قنطرة القوس التي لم تتحمل ضغط قبضة راما.

زال التوتر فجأة وارسلت الآلهة وابلاً من الزهور والبركات، وتفرقت السحب وهطل المطر. وقذفت المحيطات من اعماقها بكل كنوزها النادرة في الهواء. وصاح الحكماء: «انتهت محن جانكا وتجاربه». وامتلأ الجو بالموسيقىٰ. وتبادل المواطنون العناق واكاليل الزهور ومسحوا بعضهم البعض بالعطور، ونثروا مسحوق خشب الصندل في الهواء. وارتدىٰ الناس ابهى ملابسهم وتجمعوا عند بوابات القصر والساحات العامة، ورقصوا وغنّوا دون قيد. واصدرت آلات الفلوت والمزمار والطبل اصواتاً علت علىٰ صوت الترانيم والأغاني الصادرة من العديد من الحناجر.

واتخذت الآلهة، التي كانت ترقب هذا المشهد السعيد، صورة البشر واختلطت بالحشود وشاركتها فرحتها. وعلّقت بعض النسوة: «ان جمال العريس الملكي لايمكن الاحاطة به إلاّ اذا امتلك المرء الف عين. انظروا الى اخيه! يا لوسامته! ان والديهما لمباركان لانجابهما مثل هذين الابنين!».

كانت سيتا قد خلت بنفسها، ولم تدرِ بالتطورات الاخيرة. وكانت تنتقل من فراش الى فراش لالتماس الراحة، ورقدت، بجوار احد الينابيع، على لوح من حجر القمر ـ افضل مضجع وجدوه لها. وحتىٰ هناك، لم تجد الراحة حيث ان زهرات اللوتس في حوض النافورة ـ ظلتها تشعر بالضيق لأنها ذكّرتها بشكل عينيه او مظهره. فأخذت تدمدم: «لاطمأنينة هناك... لقد تخلّوا عنيّ. وذهني تعذبه الذكريات. مافائدتها اذا لم اكن اعرف حتى اين ابحث عنه؟ اي نوعٍ من الرجال يمكن ان يكون لكي يسبب لي كل هذا العذاب ثم يرحل دون أن يفعل شيئاً ليخفف منه؟ مظهر ملكي، ولكنه في الواقع يمارس السحر!»

قطع عليها حبل افكارها المعذّبة وصول الخادمة، التي بدلاً من ان تنحني وتحيّ سيدتها، كما جرت العادة، راحت تدور حولها وتغنيّ مقتطفات من اغنية حب. فاعتدلت سيتا في جلستها وصاحت بها: «الزمي الهدوء! هل انت ثملة؟» اجابت الخادمة: «البلد كلها ثملة. كيف لكِ ان تعرفي، ياسيدتي الطيبة، اذا حبست نفسك واستغرقت في النحيب والتفكير الكئيب!» واخذت تشرح لها في سرعة وبطريقة مشوّشة: «ملك ايوديا... ابن، عريض المنكبين واله على الارض. لم يره احد، كان رشيقاً وسريعاً، ولكنه ضغط، هكذا يقولون، على احد الاطراف بقدميه، وامسك

بيده الطرف الآخر، وسحب الوتر، اوه!...

«اوه، ايتها الجميلة المخمورة، ماذا تقولين؟» وعندما ادركت سيتا ماحدث، نهضت وصدرها يجيش بالعواطف. وانتصبت واقفة وهي تقول: «هل تعرفين اذا كان هو نفس الشخص الذي سحرني بنظرته اثناء مروره في الطريق؟ أما اذا كان شخصاً آخر فلسوف اقتل نفسي».

وعندما هدأت موجة الاثارة الأولية، طلب الملكِ جانكا نصيحة ڤيسواميترا: «ماذا سأفعل بعد ذلك؟ فجأة اجد نفسي في موقف لم اتوقعه. هل ترغب في ان احضر الكهنة والمنجِّم، وأحدد موعد الزفاف في اقرب وقت ام ابعث برسالة الى داساراتا وانتظر موافقته؟».

اجاب ڤيسواميترا «ابعث برسول يحمل النبأ السعيد، وادع داساراتا رسمياً.» فانسحب جانكا في الحال كي يكتب دعوة مناسبة لداسارلتا بمساعدة شعراء وكتّاب قصره، ثم ارسل بها.

وبعد فترة قصيرة، قام رسل جانكا بتقديم الرسالة في قصر داساراتا فأمر الأخير قارئه بان يتلقى الرسالة ويقرأها له: احتوت الرسالة على كل ماحدث منذ رحيل راما عن ايوديا الى تكسّر قوس شيڤا. فأغدق داساراتا الرسل بالهدايا، وعلّق ضاحكاً: «قل لهم في ميتلا اننا سمعنا صوت تكسّر القوس...» ثم اصدر اوامره: «اعلنوا، في لغة ملائمة وعلى نطاق واسع، ان الملك جانكا يدعو كل رجل وامرأة وطفل في عاصمتنا الى حضور زفاف راما. وليبدأ كل من له القدرة على السفر الى ميتلا في الرحيل في الحال، وقبل رحيلنا». فقام منادون محترفون، على الأفيال ترافقهم الطبول، بأيصال بيان الملك الى كل زاوية وركن في العاصمة.

ازدحم الطريق الى ميتلا بالرجال والنساء والأطفال. وعندما بدأ

الحشد الهائل في التجمع والسير على الطريق، بدا العالم وكأنه انكمش فجأة. كانت الفيلة تحمل الأعلام وغطيت جبهاتها بسبائك ذهبية. كانت الخيل تتبختر وتخب، وسار العديد من العربات والمركبات المختلفة التي تجرها الثيران، اضافة الى حشد كبير كان يسير على الاقدام. وسقطت اشعة الشمس على الآلاف من المظلات المصنوعة من الساتان الابيض وعلى اوسمة رجال الجيش المتألقة، فعكستها. وجلست نسوة، بارزات الصدور يلبسن ملابس رقيقة كنسيج العنكبوت، على افيال داكنة، واخذت قلائدهن تتأرجح مع حركة الافيال، ويحيط بهن فرسان يحملون السيوف والاقواس على ظهور الخيل.

ويشعر الشاعر بسعادة خاصة عندما يصف بإسهاب حالة الشبان النفسية ونشاطاتهم في هذا الحشد البهيج. فقد تبع شاب، وهو يهرول، احدى العربات مثبتاً عينيه على نافذة ظهر منها وجه منذ لحظات قليلة، آملاً في نظرة اخرى من ذلك الوجه. شاب اخر لم يستطع ان يزيح عينه عن صدر فتاة، مغطى بغطاء رقيق، في احدى المركبات. حاول ان يسبقها وهو ينظر من فوق كتفه الى الوراء، غير مدرك لما كان امامه، فاصطدم بمؤخرة الافيال وهي تسير. وعندما سقطت عفواً احدى الفتيات عن ظهر حصان التقطها شاب، ولكن بدلاً من ان يعيدها الى مكانها بعد انقاذها، واصل رحلته وهي بين ذراعيه. وآخر كان يسير مكتئباً يستغرقه التفكير بينما كان يحملق في محبوبته. وسار بعض الازواج، الذين كانوا قد تشاجروا حول بعض الترتيبات الخاصة بهذه الرحلة، جنباً الى جنب دون ان يتبادلوا الحديث، لم تهتم المرأة بان تتحلى بزهرة في شعرها، ولكن كانت التكشيرة فقط تعلو وجهها، ومع ذلك فقد سارا متجاورين

حتى لايفترقا وسط الزحام. وقال احد الشباب، ولم تكن الفتاة قد تحدثت اليه، انما كانت قد أثارته رسائل عينيها البليغة: «الا تريدين ان تتكلمي؟ سوف تحتاجين بالتأكيد الى ذراعين قويتين تحملاك عندما تعبرين النهر، فكيف سأعرفك اذا لم تتحدثي اليّ؟ اعرف انك ترفضين الكلام فحسب، وليس ملامستي لك، اذ سوف تحتاجين الى ذلك حتماً عندما نصل الى حافة النهر».

وسارت الجمال تحمل احمالاً ثقيلة وهي عطشىٰ الى ان عثرت على اشجار المارجوزا ذات الاوراق شديدة المرارة ـ ذلك لأنها تتجنب الخضرة سهلة المضغ ـ وشعرت بالعطش ثانيةً بعد مضغها تلك، مثلها مثل الرجال الذين يبحثون عن النبيذ فقط كي يرووا عطشهم، فينتج عن ذلك عطش اكبر. وحمل رجال اقوياء الهدايا ومؤن الرحلة على اكتافهم.

وفي الخلف سار رجال الدين البراهمة الذين كانوا يمارسون التقشف والزهد، وظلوا منعزلين خوفاً من السير بين الفيلة ومن الاصطدام بالناس وعن المناطق التي بها نساء قد يصرفن انتباههم عن رؤاهم الداخلية. كان البعض منهم يثبون بخفة على اطراف اقدامهم حتى لايدوسوا على اي مخلوق حيّ على الارض، ووضع آخرون اصابعهم على انوفهم كي يسيطروا على تتابع انفاسهم، وايضاً لئلا تلامس اصابعهم الأجزاء السفلى من اجسادهم بينما ينشغل ذهنهم بالتفكير في الله.

كان من المستحيل على اي شخص ان يسمع مايقوله شخص اخر بسبب الضوضاء الصادرة من عجلات المركبات الدائرة والأبواق والطبول والضجيج العام. وبعد فترة سار الناس في صمت، يستعملون

الإشارات فقط في احاديثهم بينما تثير اقدامهم سحباً هائلة من الغبار. أما الثيران، التي تجر العربات المحّملة بالأمتعة، فقد أثارهـا ضجيج الطبول فنزعت عنها أنيارها فجأة وأخذت تعدو في فوضىٰ واضطراب، تاركةً الأمتعة مبعثرة على الطريق، وعندما كانت الفيلة تشاهد بركة ماء، كانت تندفع مسرعةً كيْ تغطس فيها، وتبقىٰ مغمورة بالمياه حتىٰ أنيابها البيضاء. كما جلس الموسيقيون علىٰ ظهور خيولهم يلعبون علىٰ آلاتهم ويغنون.

خلف هذا الجيش ، سارت المفضّلات من بين نساء الملك. وجاءت الملكة كايكيي علىٰ محفتها يحيط بها ألف من المرافقات. وبعدها جاءت سوميترا يصحبها ألفان من المرافقات، ثم كوساليا أُم راما يحيط بها موسيقوها، وفي رفقتها ايضاً العديد من الأقزام الحدُب ومن أخرين غير أسوياء. ولكن كان يشكل الجزء الرئيسي من موكبها ستون الفاً من النسوة، رائعات الجمال، يتبعنها في مركبات متنوعة الاشكال. وتبع ذلك الحكيم ڤاسيشتا كبير المستشارين في القصر، جالساً على محفة مرصعة باللآلىء، ويحيط به الفان من رجال البراهمة والكهنة. وجاء من بعده باراتا وساتروغنا، اخوة راما الأصغر، وبعد ان ادّىٰ داساراتا مهامه اليومية وطقوسه الدينية، وقدّم الهدايا الىٰ رجال البراهمة، غادر قصره في ساعة ميمونة من اقتران الكواكب، يتقدمه عدد من الكهنة والرجال الذين يحملون في ايديهم قدراً ذهبية مملوءةً بالمياه المقدسة التي نثروها في طريقه، بينما كانت العديد من النساء يرتلن.

ولدىٰ خروج الملك من قصره، كان الكثير من حكام الدول المجاورة في انتظاره كيْ يحيوه. وارتفعت اصوات الابواق والهتافات ومظاهر

الحفاوة والتكريم عندما بدأت مركبته تسير.

بعد مسيرة عشرة أميال، أقام الملك مع جيشه واتباعه مخيّماً لهم في ظل جبل سيلا. ثم انتقل المخّيم، في اليوم التالي، الى احد البساتين المجاورة للنهر.

وفي ميتلا، تم استقبال واستيعاب الأجزاء المتقدمة من المشاركين، الذين وصلوا بالفعل الىٰ هناك، في منازل وقصور ومخيمات العاصمة. وتم ايضاً استقبال المزيد من الجماعات التي وصلت. كانت الحركة تتواصل بين أيوديا وميتلا. وكانت مجموعة الملك داساراتا اخر من وصلت، وعندها سارع المراقبون، الذين كانوا يترقبون وصولها، الى العودة علىٰ ظهور خيولهم ليعلنوا عن رؤيتهم لجماعة داساراتا. فخرج جانكا مع وزرائه وكبار الرسميين وحرس الشرف لاستقباله. والتقى الملكان وحيى بعضهما البعض وتبادلا المراسيم في ادب، بعدها دعا جانكا دارساراتا الى الصعود الى مركبته، وواصلا طريقهما الى العاصمة. وعند دخولهما من احدى، بوابات المدينة، قابلهما راما وبرفقته لاكشمانا، وحيى والدهما ورحّبا به، وامتلأ داساراتا زهواً لدى رؤيته لابنه الذي بدا قوامه الآن اكثر جلالاً

عند هذه النقطة يبدأ كامبان في وصف الاستعدادات لزفاف راماوسيتا. وهذا الجزء من أفضل اجزاء الملحمة. تفاصيل سرادق الزفاف، والزينات، ووصول ضيوف من بلاد اخرىٰ، الزهور والبهجة، فرحة المواطنين ومشاركاتهم، الفعاليات في منزل العروس، وتلك في منزل العريس، والاستعدادات الخاصة بالعروس والعريس ذاتهما: ملابسهما وحليّهما، وحالهما النفسية ـ كل شيء يصفه كامبان في

تفصيل دقيق يصل الى عدة آلاف من الأبيات الشعرية.

وفي ساعة ميمونة من التقاء الكواكب تلائم برجا راما وسيتا، تم زفافهما تبعاً لمراسيم أدّاها كبار الكهنة في ميتلا وأيوديا في قصر جانكا

ويقول كامبان في وصفه اللقاء الأول للعروسين في خاتمة احتفالات الزفاف: «هذان اللذان كانا معاً منذ فترة قصيرة فقط، اجتمعا مرة اخرى، ولم تكن هناك حاجة لأية طقوس كلامية معقدة بينهما».

ونتيجة لجهود جانكا، تم ايضاً ايجاد عرائس لإخوة راما الثلاثة وتزوجوا في نفس الوقت في ميتلا. وبدأ الملك داساراتا، عندما انتهت الاحتفالات، الاستعداد للعودة الى أيوديا، مع ابنائه وزوجاتهم، وفي يوم رحيلهم، قال ڤيسوا ميترا لداساراتا: «الان اعيد اليك راما ولاكشمانا. ان افعالهما العظيمة لاتوصف، ولكن سيكون هناك المزيد منها. انهما مباركان». ثم استأذنهم، ورحل فجأة الى الشمال. لقد عاد الى عزلته في الهمالايا بعيداً عن كل النشاطات كيْ يقضي بقية حياته في التأمل.

الفصل الثالث

وعدان يتجددان

ربما لم ينظر د اساراتا قط الىٰ مرآته بأمعان بسبب مشاغله ولم تتح له الفرصة ليتفحص نفسه طويلاً فيها او ينشغل بفحص افكاره ومشاعره الباطنية. وذات يوم لاحظ فجأة شعره الآخذ في البياض والتجاعيد اسفل عينيه ـ لاحظ الرجفة البسيطة ليديه، والتعب الذي يحل بساقيه لدى مشاركته في لعبة ما، وتحقق أن الشيخوخة قد ادركته. لم يكن عمره قصيراً، فالشاعر الأصلي ڤالميكي يذكر ان عمر د اساراتا كان ستين الف سنة! ربما اختلفنا مع هذا الرقم طبقاً لحساباتنا العصرية، ولكن فليكن ستين او سبعين او ثمانين سنة، ومهما كان ذلك، فإنه يشير الىٰ تقدمه في السن.

وعندما كان د اساراتا وحيداً في غرفته، قال لنفسه: «يجب علىٰ المرء ان يعرف متىٰ يتوقف، دون انتظار للموت او الخرف. لاعتزل وارتح وقدراتي مازالت سليمة. لامعنى للاستمرار وتكرار نفس النشاطات الى ظللت اؤديها كل هذه السنين العديدة، كما تبدو لي الآن. كفى، لقد فعلت

مايكفيني. عليّ الآن ان اجد الوقت كيْ اعتزل واكتفي بالمراقبة، وانحّي جانباً أعباء الحكم».

وصل داساراتا الىٰ قرار خطير، فاستدعى مساعده الىٰ الباب وطلب منه استدعاء سومانترا، كبير وزرائه، في الحال. «إرسل في طلب كل كبار موظفينا ورجال الحكم والحكماء، وكل حلفائنا وملوكنا واقاربنا ليتجمعوا في قاعة الاجتماعات. فليأتِ اكبر عدد ممكن».

واضاف، بينما سومانترا ينتظر: «لاحاجة لأن تخبر أسواپاتي قريبنا».

كان أسواپاتي والد زوجته الثالثة كايكييّ، وكان ابنها باراتا قد ذهب الىٰ هناك كي يمضي بضعة أيام مع جده. «وليس هناك داعٍ لإزعاج جانكا ايضاً، فميتلا بعيدة جداً، ولن يتمكن من الحضور في الوقت المناسب».

«هل هناك اي شخص آخر نغفله؟»

«لا ادع اكبر عدد ممكن وبشكل مناسب، وكذلك كل مواطنينا». وتم ارسال الرسل في كل الاتجاهات، وامتلأت قاعة الاجتماعات، وصعد داساراتا الدرج الى كرسيه. وبعد اداء المراسيم التقليدية، اشار على الجميع بالجلوس وتحدث اليهم:

«لقد اديت مهامي كملك لهذه البلاد لفترة طويلة وكافية. واشعر الآن شعوراً لايقاوم بأن اعباء الحكم يجب ان تنتقل الىٰ اكتاف اصغر سناً. فماذا تعتقدون، أيها السادة، في ذلك؟ في ظل المظلة البيضاء للمملكة، يبدو أنه ليس هناك تغيير ـ ولكن الجسم الذي تحتها يذوي في الحقيقة. لقد عشت واديت مهامي لفترة طويلة كافية. وإذا ظللت افكر بان استمر هكذا الىٰ مالانهاية، فإن ذلك يكون أنانيةً مني. منذ بضعة أيام ادركت ان

توقيعي على احد المستندات كان غير واضح، ولابد ان يدي كانت قد ارتعشت دون ان اتنبه لذلك. لقد حان الوقت، بالنسبة لي، كيْ اعتزل وارتاح ـ وانتظر مولد احفادي. وإذا وافقتهم، فإنني أريـد ان اسلم المملكة الىٰ راما. يجب ان يكون خليفتي، فهو تجسيد لكل ماهو كامل. انه مستكمل لكل الشروط وسيكون حاكماً مثالياً. إنه عطوف وعادل وشجاع، ولا يميَز بين البشر ـ كباراً كانوا ام صغاراً، امراء أم فلاحين. يراعي مشاعر الجميع، وليس هناك من يعادله في الشجاعة والبسـالة وكـل الصفات. سيكون افضل مدافع عنكم ضد أية قوىٰ معادية، بشرية كانت أو دون أو فـوق البشر. إن اسلحته، التي حصـل عليها من استـاذه ڤيسواميترا، لم تخطىء هدفها ابداً آمل ان احصل علىٰ تأييدكم في تكريسه فوراً امبراطوراً علىٰ كوسالا».

دوت صيحات الفرح في قاعة الاجتماعات، فانتظر داساراتا حتى هدأت ثم سأل: «لقد لاحظت الحماس الذي تستقبلون به خليفتي. هل اعتبر ترحيبكم به دليلاً، علىٰ انكم كنتم تتحملونني في صمت، لأي سبب من الأسباب، كل هذه السنين، بالرغم من أنني كنت اعتقد انني كَرست حياتي بشكل كامل من أجل رفاهية رعيتي؟»

ونهض احد المتحدثين موضحاً: «ايها الملـك، لاتخطىء فهمنا. إن حبنا لراما هو الذي يجعلنا سعداء الآن. منذ فترة طويلة ونحن نتطلع بشوق الى هذه اللحظة. أن نراه يركب الفيل الامبراطوري في اجمل ابهته في شوارع عاصمتنا هي نظرة الى المستقبل نتعلق بها، صغاراً وكباراً، لأننا بُهرنا بروعة شخص راما. ان حدسنا هذا هو الذي يجعلنا نرحب باقتراحك دون اي تحفظ، وليس لأننا لانرغب في بقائك ملكاً علينا.

فقال داساراتا: «انني اوافقك. كنت اريد فقط ان اعرف، دون ادنىٰ شك، انكم توافقون علىٰ رغبتي في ان اجعل راما ملكاً عليكم. وارغب في ان يُتوّج راما غداً عندما يلتقي النجم پوشيا بالقمر، ويبشّر الوقت بالنجاح».

ثم استدعى وزيره والكاهن: «فليكن كل شيء، وكل التفاصيل الصغيرة، جاهزاً لحفل التتويج غداً. لتنتشر الزينات ولتعد كل المراسيم في قاعة التتويج. لتغسل الشوارع وتُنظّف وتُزيّن. ليحتفل الناس ويلعبوا ويمتعوا أنفسم بلا حدود. لتكن هناك ترتيبات لتقديم الولائم بشكل مستمر في كل ركن من هذه العاصمة....

ثم ارسل في طلب راما. واخذ يرقب وصوله من شرفته، تلقاه بحرارة وانتحى به جانباً، وقال:: «غداً سوف يتم تتويجك خلفاً لي، انني في حاجة لأن ارتاح من عملي».

وافق راما على الاقتراح في بساطه فطرية. وواصل داساراتا: «انت تعرف كل شيء، ولكني اشعر ان من واجبي ان اقول لك بضع كلمات، عليك ان تتبع سياسة العدالة المطلقة في ظل كل الظروف. التواضع والحديث اللطيف ـ ليس هناك في الحقيقة حدود لهذه الفضائل. لايمكن ان يوجد في قلب ملك مكان للشهوة او الغضب او الخسّة». واستمر في حديثه لبعض الوقت ثم انهى المقابلة. وعندما عاد راما الىٰ قصره واخذ يشرح الموقف لسيتا، كان سومانترا يدق بابه مرةً أخرىٰ.

«ارسل ابوك في استدعائك».

«ثانيةً؟ لقد عدتُ لتوّي من هناك».

«يعرف ذلك ولكنه يريدك ثانية».

وعندما جاء راما، طلب منه داساراتا الجلوس، وقال: «قد تندهش لأنني استدعيتك ثانيةً. ان القلق ينتابني ولابد ان يتم تتـويجك دون تأخير. هواجس مخيفة تتملكني. احلم بالشهب، واستمع إلىٰ صرخات شنيعة اجهل مصدرها. لقد قيل لي ان نجمي ليس في موضع سعيد الآن. وحلمت بأن مولدي قد تحطم واشتعل. إن المرء ليشعر بأنه مدين، بسبب ميلاده في وقتٍ مناسب، لبركة الحكماء الخالدين ولأجداده ولـلآلهة. وهذه الديون الثلاثة يجب ان تُسدد وبشكل كامل خلال فترة حياة المرء. وليس عندي شك في انني سددت ديوني بالكامل. لقد استمتعت بحياتي، وحكمتُ كملك ذي سلطة مطلقة؛ وكسبتُ حب وثقة رعيتي. لم يبقِ شيء يمكنني ان افعله. لقد صرتُ عجوزاً، وجسدي علىٰ وشك الفناء....

لقد قال هذه الأشياء من قبل، وهو الآن يكرر نفسه، وادرك راما انه لابد وان يكون هنـاك قلق عميق داخله ولكن، وبـدافع من الاحتـرام والأدب، اصغى الىٰ كل شيء مرة اخرىٰ كما لو كان يستمع اليها للمرة الأولىٰ. «إنّ نجميَّ، مارس وجوبيتر، يتخذان نفس المجال، هكذا يقول المنجمون، وهذا الموضوع يعني حدوث وفاة او شبه وفاة او كارثة ما، ولهذا اريد ان اوضح أهمية هذا الموضوع، نجم الغد سيكون پوشيا، ويجب إجراء المراسيم دون ايـة عراقيـل او شكوك. لاتعتقـد للحظة بأمكان تأجيل أي شيء. يجب الّا يؤجل اي شيء، لأنه ليس بإمكاننا ان نقول كم هو متقلب العقل البشري وماهي التغيرات التي قد تحدث فيه... المهم هو أننا يجب ان نُجري المراسيم دون ابطاء. اريدك ان تكون حذراً جداً هذه الليلة حتى تُنجز المراسيم. لاتخرج بدون حارسك، واتبع كل اجراءات الصوم والقسم بمنتهى الـدقة. يجب عليـك انت وسيتا ان

تأخذا حماماً طبقاً للطقوس. تجنب فراشك، ونم قليلاً على حصيرة من الحشائش اليابسة... الطقوس ستبدأ عند الفجر. كن مستعداً، وتأكد ان رداءك جاهز. يجب عليك ان تصوم الليلة، وحذِّر سيتا من أي تأخير. إن حضور الزوجة ومشاركتها الدقيقة في الاحتفال لهما اهمية كبرى...

انصت راما اليه ووعد بتنفيذ كل كلمة من تعليماته بأمانه. واخيراً قال له داساراتا موضحاً: «من الأفضل ان يتم ذلك كله وباراتا بعيداً في منزل جده. شيء جيد انه ليس هنا. اعرف إخلاصه لك، ولكن العقل البشري ـ كما تعرف ـ يمكن ان يكون متقلباً... ربما تساءل لماذا لم يصبح هو الملك... ولكنه لو علم بها كحقيقة واقعة، فليس عندي شك في انه سيكون سعيداً جداً.

كانت مراوغة والده مدعاة للدهشة، ولكن راما لم يظهرها، حتى لو كان قد لاحظها.

وقد تبين ان هذا القلق في ذهن داساراتا حول دعوى باراتا له مايبرره. فرغم ان باراتا كان بعيداً إلا ان أمه كايكيي تبنت قضيته ودعواه بحماس ادّىٰ الىٰ وقوع مأساة وغيّر مجرىٰ كل الأحداث في حياة راما. وهذا ماحدث. كانت كوني غريبة الشكل حدباء الظهر (وقد اطلق عليها هذا الاسم بسبب هذا التشوه)، ولكنها كانت مفضلة لدىٰ كايكيي، زوجة الملك المفضلة. وفي هذا اليوم الهام، صعدت الىٰ السطح العلوي في قصر كايكيي لتلقي نظرة على المدينة، فلاحظت الزينات والأضواء، وتساءلت: «بماذا يحتفلون اليوم؟»

وعندما نزلت اخذت تسأل حتىٰ عرفت سبب الاحتفال. وانتابها الهياج فعضت لسانها وتمتمت: «سوف اوقف هذا». واسرعت إلى غرفة

كايكيي وصاحت بسيدتها التي كانت تستريـح: «هل هـذا وقت نوم؟ استيقظي قبل ان ينزل بك الخراب» وفتحت كايكيي عينيها وصاحت: «انت أين كنت؟ ماذا يزعجك؟»

اجابت كوني: «الكارثة التي تتهددك».

تعجبت كايكيي، ولكنها قالت وما تزال مضطجعة: «كوني، يبدو ان هناك امراً مـا يتعلق بصحتك، ألا تستـدعي طبيباً كيْ يعـافيك؟» ثم ضحكت وقالت «اهدئي الآن. اجلسي بجواري وانشدي لي أغنية».

اجابتها كوني بحدّه: «ألا تعرفين ان الجمال والشباب هما مصدرا قوتك الوحيدتين؟ وإنك مدينة لجمالك بوضعك كملكة لمن غزا العالم؟»

سألتها كايكيي، وهي ماتزال في حالـة نفسية مـرحة «وهـل هذا صحيح؟»

«ولكن الجمال والشباب، كلاهما مثـل نهر هـائج، فبينمـا يندفـع منحدراً إلىٰ الأسفل على جانب الجبل، يسحق الزهور واروراق الشجر، يجعلك تعيشين في دوامة ولكن كم من الوقت يستغرق ذلك؟ إنه سريعاً ماينتهي. وفي مكانه تجدين القاع الرملي فقط... إنها فقط مسألة وقت عندما تكبرين تغور الخدود، وتصبحين شخصية مهملة يدفعك حبيبك جانباً باسفل يده، وتصبحين تحت رحمة الآخرين».

ضحكت وقالت: «احضري تلك المرآة ودعيني أرَلماذا تتحدثين هكذا هل صرتُ عجوزاً اليوم؟».

«لستِ عجـوزاً. ولكنك معتـده بنفسك وتـواجهين خطـراً والقدر المشؤوم يحوم حول رأسك».

شعرت كايكيي الآن بالانزعاج: «اذا لم يكن في إمكانك ان تفصحي،

فأذهبي من هنا، وعودي فيما بعد. يبدو أنك مصممة علىٰ إثارتي اليوم».

«لاتبددي شبابك وجمالك المفتون بهما زوجك. وقبل ان تفقديهما، اطلبي من زوجك ان يساعدك، وانقذي نفسك، انهضي وافعلي شيئاً قبل فوات الأوان». وفي قلق اعتدلت كايكيي الآن في جلستها. وسُرّت كوني لتأثير كلماتها واعلنت: «لقد خدعك الملك. غداً سيتوج راما ملكاً علىٰ أيوديا، ثم يعتزل».

نهضت كايكيي وهي تهتف: «مدهش! هدهش! هاهي مكافأتك علىٰ الانباء الطيبة التي تحملينها». وخلعت قلادتها ورمت بها الىٰ كوني، التي تلقتها ووضعتها جانباً. والآن قالت كايكيي: «إنك تستحقين اكثر من ذلك لأن اخبارك ممتازة. اخبريني بما تريدين وستناليته». اثار ذلك كوني فصرخت فيها: «قلتُ ان راما سيصبح ملك أيوديا، وتتصرفين كما لو أنني قلت ان ابنك باراتا....

«انا لا افرق بين اثنين. إنه الشيء نفسه، بالنسبة لي. لقد خُلق راما لها، وإنني لاشعر بالفخر والسعادة كأم.....

«أنتِ، أم راما!»

«نعم، ألا تعرفين ان من كان في مكانة راما له خمس أمهات: تلك التي ولدته، وزوجة أبيه، وأخت والده، وزوجة الأخ الأكبر، وزوجة استاذه ـ كل اولئك لهنَ المرتبة نفسها كأم. وعليه تأكدي إنني غبية ولا افهم شيئاً!» عندها لطمت كوني جبهتها براحة يديها بقوة حتىٰ ان كايكيي قالت لها: «لقد آذيت نفسك ـ واحدثت كدمة كبيرة في حجم الإبهام!»

«سأكون سعيدة لو انني قتلت نفسي او انني لم اكن قد ولدتُ ابداً، بدلاً من ان اشاهد كل الخيانات التي تحدث في هذا العالم». انتحبت

كوني: «اشعر الآن بالاسف من أجلك، القدر المشؤوم يتهددك. إن قلبي ليتمزق لرؤيته برأءة قلبك الذي يخلو من كل هم ـ ان ذلك يذكرني بحمامة صغيرة ترفرف بجناحيها بالقرب من فكيْ هر برّي».

بهذه الكلمات، اعدّت كوني ذهن كايكيي لتلقي ماقالته بعد ذلك: «إن زوجك الامبراطور ماكر جداً. وقدرته على الخداع عظيمة، ودون ان يثير ريبتك، حقاً انه لخداع عميق وعظيم لاتعرفينه انتِ. انك لاتستطيعين ان تتخيلي مثل هذا العمق في الخداع، حتى في اكثر احلامك جموحاً. انتِ وهو غير متكافئين. عندما طلب يدك كان كبير السن مثل أبيك. وقد رفض أبوك طلبه بالطبع. ولكن العريس العجوز كان مخموراً بمنظر جمالك وشبابك، وكان على استعداد لأن يعد بأي شيء. واقسم لأبيك ان يجعل الابن الذي تلدينه وريثاً للعرش، ولقد كنتُ الوحيدة التي استرقت السمع إلى ذلك. ولا يعلم به أيّ شخص آخر. والآن، وعندما حان الوقت، نصح العجوز باراتا في لطف: «لِمَ لاتذهب وتمضي بضعة أيام عند جدّك؟ لقد طلب مني ذلك منذ وقت طويل». وهكذا تخلص منه ومن أخيه ساتروغنا الذي لايفارقه. كان من المحتمل ان يرسلك انت ايضاً بعيداً ـ لولا أنه لايمكنه العيش، وحتى ولو ليوم واحدٍ، دون ان يبادلك القبلات! إن مفاتنك ماتزال فعّالة، وعليكِ ان تنقذي نفسك بوساطتها قبل فوات الأوان... يجب ألاّ يتوج راما غداً».

«لِمَ لا؟ ربما يكون لدى الملك أسبابه الخاصة، وانا لاأرى فارقاً بين راما وباراتا».

«هل تعرفين كيف يتغير الناس بين عشيه وضحاها؟ غداً وفي مثل هذا الوقت، سيكون راما شخصاً مختلفاً، هدفه الوحيد ان يبقى طويلاً وقوياً

علىٰ كرسيه. ومن اجل ذلك سيزيل كل العقبات. والعقبة الرئيسية ستكون باراتا الذي قد يدافع عن حقه في أي وقت ويكسبه بالتأييد الشعبي. وسيقوم راما بنفيه او تحطيمه او قطع رأسه، لن تعودي ملكة بل ملكة سابقة لملكٍ سابق، وربما خفّضت مرتبتك إلىٰ وصيفة للملكة الأم كوساليا».

«ابداً! كيف تجرؤ على ذلك!» صرخت كايكيي دون شعور «دعيها تحاول!»

«غداً في مثل هذا الوقت، من الممكن ان يحدث ذلك. لابد ان يحدث عاجلاً ام آجلاً»

وهكذا وصلت كوني بكايكيي الى حافة الرعب قبل ان توضح لها كيفية معالجة الموقف: «هل تذكرين انك انقذت داساراتا ذات مرة، وان هناك وعدين قديمين عليه ان يبرَّ بهما دعي جانباً وعده لوالدك: فانتِ لاتهتمين بذلك. ولكن تمسكي بالوعدين اللذين قطعهما لك. طالبي اولاً بنفي راما الىٰ الغابات لمدة اربعة عشر عاماً، وثانياً بتتويج ابنك بدلاً منه في الحال».

«إنها لشروط مستحيلة. لابد انك مخمورة».

«لا، بل عملية جداً فقط اتّبعي هذه الطريقة....»

وهكذا عندما سعى داساراتا الى رفقة كايكيي، كما كان من عادته، لم يجدها في غرفتها ولا في الحديقة. واخبرته إحدى الوصيفات: «إنها في الكوبا غراها».

«لماذا، لماذا هناك؟» لقد قضى يوماً متعباً، وكانت له عدة لقاءات، المرة تلو الأخرى، مع كبير مستشاريه الروحيين ڤاسيشتا، ومع رئيس وزرائه

سومانترا، باحثا في تفاصيل الترتيبات الخاصة بمراسيم واحتفالات اليوم التالي. وكان قد قال: «غداً، سيكون أهالي المدينة كلهم ضيوفي. لاتدعوا أي شخص يشعر بالحاجة». وذكر مراراً وتكراراً كيف يجب ان يُزيّن كل بيتٍ وشارع ومبنى كي يبدو مشرقاً، وكيف انه يجب علىٰ الموسيقيين والراقصات ونجوم التسلية ان يستعدوا ليكونوا في قاعة الاحتفالات قبل الفجر، وكيف يجب ان تسير الفيلة والخيل ومركبات الدولة في موكب الملك المتوج الجديد وحدّد اسماء الطرقات التي يجب على الموكب ان يمر بها. «إن الشعب يجب ان يرى راما ويشاهده في الموكب، فيجب إعطاء الفرصة لكل رجل وإمرأة وطفل كي ينظر اليه. اخبر المشرفين على الموكب ان يتحرك ببطء، ولكن ليس لدرجة إنهاك راما...» لقد بحث تفاصيل المراسيم. وعندما ادركه التعب في المساء سعى الى رفقة كايكيي طلباً للراحة.

لم تعجبه فكرة استقبال كايكيي له في الكوپاغراها (اي غرفة الغضب التي كانت جزءاً من احد المباني، يمكن ان يعتزل المرء فيها حتىٰ يتخلص من حالته النفسية السيئة).

وعندما دخل اليها، وجدها ممددة علىٰ الأرض في الظلام الخافت، وشعرها مشعث، والزهور التي كانت ترتديها ممزقة، وجواهرها مبعثرة، وترتدي ملابس مختلفة. ولم تلحظ وصوله. انحنىٰ يسألها بلطف: «هل انت مريضة؟» فلم تجب علىٰ سؤاله حتىٰ كرره، ثم أجابته بفتور: «أوه، في صحة جيدة من النوحي كافة. لااشعر بأي مرض بدني من اي نوع».

«آسف، لقد تأخرت. انتظرتُ حتىٰ آتيك بالانباء بنفسي. كنت اعرف انها ستجعلك سعيدة حقاً، ورغبت في ان اسعد بمشاهدة فرحتك».

تعطفت كايكيي عليه وغمغمت: «أعرفها. لست بغبية أو صماء او عمياء حتىٰ لاأعرف مايجري...»

في الظلام ومن الطريقة التي اشاحت بوجهها، لم يكن بإمكانه ان يحكم علىٰ مزاجها، وكان من الصعب عليه ان ينحني هكذا الى اسفل، فناشدها: «لِمَ لاتنهضين وتجلسين على تلك الأريكة حتىٰ اجلس الىٰ جوارك بشكل مريح واستمع إليك؟»

«يمكنك ان تبحث عن الراحة التي تريدها، اما انا فلا حاجة لي اليها. من الآن فصاعداً، قسمتي هي التراب والأسمال البالية».

«ما لا يجعلك تتكلمين بهذه الطريقة؟ انهضي وشاركي البلاد كلها فرحتها لنخرج في مركبتك ونشاهد الفرحة التي تملّكت الشعب»

«اريد ان اموت. هذا كل شيء. اذا امكنك ان ترسل لي طاسة سم، فسوف اتقبلها الآن بترحاب اكبر». لم يكن من الملائم بتاتاً بالنسبة له ان يجثم او يجلس علىٰ الأرض محاولاً استرضاءها. تألمت مفاصلة وصرّت. ولكن كايكيي لم تتزحزح عن مكانها. لم يكن الوقت مناسباً لاستدعاء خادم، لهذا دفع بمقعد الىٰ جوارها وجلس عليه، وبعد قدر كبير من التزلف اليها، اعلنت: «اِقسم لي بكل ماهو مقدس ان تمنحني مااطلبه، والاّ دعني أمت في سلام».

«أنا لم انكر عليك اي شيء البته. ولسوف تحصلين على كل ماتريدين».

فسألته: «هل تقسم براما؟»

تجنب ان يعطيها إجابةً مباشرة لشعوره بالقلق لدى ذكر اسم راما، فقال لها في وضوح: «اخبريني بما تريدين».

«منذ فترة طويلة عرضت عليّ ان تهبني شيئين. ربما تكون قد نسيت ذلـك، ولكني لم أنسَ. هل لي ان اذكـرهمـا الآن؟» واعتـدلت الآن في جلستهـا، واصبح من الأسهـل الحديث معهـا، حاول ان يمـد يـده ويلمسها، ولكنها ابعدتها: «في ارض المعركة، عندما ذهبت لنجدة إندرا واصبت بالاغماء، هل تذكر من افاقك؟»

قال: «نعم، كيف لي ان أنسى ذلك؟ لقد عشتُ حتىٰ يومنا هذا لأنني افقتُ من غيبوبتي، وإلاّ كان من الممكن لعجلات ايةِّ مـركبة، في ذلـك المساء، ان تمر فوقي.

«ذاكرتك قوية، وإنني لسعيدة إذ تتذكر ذلك، هل تذكر ايضاً من التي كادت تضحي بحياتها كيْ تعتني بك وتعيد الحياة إليك؟»

«نعم»

«بمَ وعدتها في مقابل ذلك؟»

ظل الملك صامتاً للحظة، ثم قال: «لم انسَ ذلك.»

«احتملني لو كررتُ بعض التفاصيلِ الصغيرة التي قد تكون غابت عن ذاكرتك. دعني اساعدك. لقد قلت: أُطلبي هبتين تختارينها ولسوف تنالينهما، وعندئذٍ ماذا فعلت هي؟»، عندمـا لم يجبها، اكملت: «قلتُ سوف اؤجل الحصول عليهما، واقسمت، في اي وقت تشائين ـ حتىٰ لو كان ذلك بعد مائة سنة، سوف تحصلين على ماتطلبين.

وببساطة قال الملك، وكان قد بدأ يشعر بالقلق: «ارى ان الوقت قد حان بالنسبة لك كيْ تطلبي». كانت نبرته تخلو من الانشراح، وتملكته الهواجس الكئيبة».

«هل اذكرها ام لا؟»

«انهضي وارتدي ملابسك ومجوهراتك الخاصة بالاعياد حتى تتألقي كنجمة لامعة. هيّا بنا نذهب.

«نعم ـ في الوقت المناسب ـ بعد ان تكون قد انجزت وعدك لي». لم تعد لديه الشجاعة اطلاقاً ليدعها تذكره. كانت اصوات الكلمات مثل «وعد» و«قسم» و«تنجز» و«هبة» تهز أعصابه. رفعت ناظريها نحوه والدموع تملأ عينيها. لم يجرؤ على النظر إليها، كان يعلم انها ستتغلب عليه بجمالها وفي الحال قالت له «اتركني الآن عُدْ الىٰ كوساليا واحتفل واستمتع. اتركني وشأني». لم يكن عليها ان تذكر «طاسة السم» مرة اخرى، فقد عرف انها تعنيها. وأفقده ذلك رباطة جأشه. فقال لها في حرارة: «تعرفين كم احبك. ارجوك ان تخرجي من هذه الغرفة وهذه الحالة».

«لقد وعدت بان تمنحني هِبتين، واقسمت علىٰ ذلك باسم راما ـ ابنك العزيز راما. والآن ساذكرما في ذهني، وإذا رفضت طلبي، فلسوف تكون اول شخص من جنس إكشفالو، السلالة العظيمة لإله الشمس ذاته، لايفي بوعد من اجل مصلحته الخاصة». ثم التقطت انفاسها وطالبته: «إنف راما الىٰ الغابات لمدة اربعة عشر عاماً، وتوّج باراتا واحتفل باعتلائه العرش بالترتيبات نفسها التي اعددتها فعلاً».

صمت الملك برهة ليفهم مدلول ذلك، ثم نهض علىٰ قدميه وهو يدمدم: «هل جننت؟ ام انك تمزحين ام تحتبرينني؟» ثم ابتعد عنها، باحثاً عن الأريكة. وشعر بالإغماء وتحسس المكان من حوله ليجد مكاناً يرتاح فيه، وكأنه لم يعد يبصر، تهالك على الاريكة واغلق عينيه، بينما واصلت كلامها: «ابعث برسول كيْ يحضر باراتا في الحال... انه بعيد جداً. اعطه

الوقت الكافي ليعود. واخبر راما بان يرحل من هنا».

همس وعيناه ماتزال مغلقتين: «إنك لشيطانة».

«لا تلعنيّ، ايها الملك العظيم. انا لايدهشني ان تجدني اقل انسجاماً معك من كوساليا. عد إليها وتمتع برفقتها، فانا لم اطلب منك ابداً ان تحضر إلى هنا وتلعنيّ. لقد اعتزلت هنا فقط كي اتجنبك».

استمرا في حديث من هذا النوع طوال الليل. وبذل داساراتا جهداً أخيراً للوصول الى حلٍ وسط: «حسن جداً، كما ترغبين. ليتوجّ باراتا..... ولكن دعي راما ايضاً يبقَ هنا. انك تعرفينه. وهو لن يؤذي احداً، فليصبح باراتا ملكاً، بكل سرور - انه طيب، ولكن ارجوك، سألمس قدميك -فانا لا يهمني ان انكب على الارض امامك -ولكن دعي راما يبقَ هنا في بيته ولا يرحل . كيف يمكنه ان يسير في طرقات الغابة الوعرة ويعيش في الخلاء ، بلا مأوى..؟»

«يمكنه ذلك، فهو ليس بالطفل الضعيف الذي تتصوره. يجب ان يحيا بعيداً لمدة اربعة عشر عاماً، يرتدي لحاء الشجر ويأكل جذور النباتات واوراقها...

صرخ الملك: «هل تريدين موته...؟ آه..

قالت فقط: « لا داعي للشجار، إمّا ان تحافظ على وعدك أو لا. ذلك كل شيء».

انقضى الليل في صمت تام. وظلت كايكيي حيث كانت على الأرض، وتمدد الملك على الأريكة، ولم يدخل عليهما أحد، فقد كان من المعتاد عدم إزعاج الملك اثناء وجوده مع احدى زوجاته. حتى الخدم ظلوا خارجاً. رغم ذلك، كان من المحتم ان يحضروا في طلب الملك عاجلاً ام آجلاً. كان

هناك مسائل كثيرة لابد من استشارته فيها. وكاد رئيس وزرائه يجن وكان سؤاله الدائب: «أين الملك؟ أين الملك؟»

كانت قاعة الاجتماعات تزداد ازدحاماً بالضيوف البارزين وبالعامة الذين تدفقوا ليشاهدوا حفلة التتويج. كان راما مستعداً، وارتدى ملابس حريرية بسيطة بعد ان استحم عدة مرات طبقاً للطقوس وخضع لمراسيم تطهّر أمر بها كبير الكهنة، وراح ينتظر الرداء الرسمي، وقبل الفجر بقليل، اوقدت النار المقدسة حيث توضع القرابين لكسب رضاء الآلهة في السماء. وكانت جماعات الكهنة قد بدأت بالفعل في إنشاد التراتيل المقدسة. وامتلأ الجو بالموسيقى التي صدحت من عدة جهات. واستمر الحشد في الثرثرة. ولكن كان هناك قلق في الحلقة الداخلية حيث تجمع كبير الوزراء واعضاء اللجنة التنفيذية الآخرون. «كان يجب على الملك ان يصل قبل الآن. يجب ان يفتتح المراسيم، وعليه ان يستقبل الحكام الذين سيصلون عاجلاً.....» ونهض كبير الوزراء سومانترا ليعرف سبب التأخير. كان يجب ان يتم كل شيء طبقاً لجدول زمني بكل التفاصيل حتى تتزامن مع حركة النجوم الميمونة، ولسوف يتسبب اي تأخير في إرباك المراسم كلها. غادر سومانترا قاعة الاجتماعات وذهب يبحث عن الملك. تردد لحظة عند باب الكوپاغراها، ولكنه ازاح الستائر وفتح الباب، ودخل. وروّعه بالطبع المنظر الذي رآه. وتساءل الوزير: «هل جلالته مريض؟» فأجابته كايكيي: «اسأله بنفسك».

تساءل الوزير في قلق: «هل انتِ أيضاً مريضة؟ هل ألمتكما بعض الأطعمة؟» فلم تجبه الملكة. واقترب الوزير في هدوء من الأريكة وهمس: «انهم في انتظارك. هل انت على استعداد للحضور الى المجلس؟» تحرك

الملك قليلاً وقال: «قل لهم جميعاً ان يعودوا أدراجهم، انتهى كل شيء. لقد وقعت في شرك شيطان». وتدخلت الآن كايكيي لتوضح له: «لقد اجهد الملك نفسه، واصبح مشوشاً. اذهب وابعث براما».

وصل راما متوقعاً ان تباركه زوجة أبيه قبل الاحتفالات. ولدى رؤية داساراتا له، صرخ: «راما!» ثم توقف عن الحديث. بعث مظهره وطريقة تصرفه القلق في راما: «هل فعلت شيئاً أغضبه؟ هل هناك أية زلّة في واجباتي او أدائي؟».

قالت كايكيي: «سأتحدث نيابةً عنه، فصعب عليه أن يتكلم. لن يتم تتويجك اليوم». ثم حددت في كلمات لالبس فيها ماتتوقع منه. اخبرته بكل شيء عن القسم الأصلي والظروف التي أدت إليه». من واجبك ان تساعد والدك على الوفاء بوعده، خلاف ذلك سينزل على نفسه اللعنة في هذا العالم وفي العوالم الأخرى. انت مدين له باعتبارك ابنه».

تلقى راما الصدمة واستطاع امتصاصها داخله، وقال: «سوف انفذ رغباته دون مناقشة، تأكدي ياأماه انني لن اتهرب من واجبي. انا لااهتم بان اكون ملكاً، ولا تربطني بمثل هذه المناصب أيةّ رابطة، ولا انفر من العيش في غابة».

فذكّرته: «اربعة عشر عاماً».

«نعم، اربعة عشر عاماً. اسفي الوحيد هو ان والدي لم يذكر ذلك لي بنفسه. لو طلب مني مباشرةً، لكان ذلك مصدر فخر لي».

«دعك من هذا. مازال بإمكانك ان تُسعده بما تفعله. ارحل الآن فوراً، ولسوف يشعر بالسعادة لانك تصرفت دون ان تسبب له الارتباك».

«أريدك ان تؤكدي له انني لااشعر بالألم ابداً لهذا الأمر. ولسوف

اتقبل كلمتك على انها كلمته». ولاحظ ألم ابيه الشديد فاقترب منه.

فقالت كايكيي: «سوف اهتم انا بامره. لاتُضعْ وقتك يجب ان ترحل دون اي تاخير، هذه رغبته».

«نعم، نعم. سأفعل ذلك. سأبعث برسول كيْ يحضر باراتا دون ابطاء».

قالت كايكيي: «لا، لا لاتشغل نفسك بباراتا. سوف اقوم بترتيب كل شيء، عليك ان تسرع بالرحيل اولا». كانت تعلم مقدار حب باراتا لراما، ولأنها لم تكن علىٰ يقين من كيفية تصرفه، فضّلت ان تزيح راما اولا عن طريقها قبل وصول باراتا. قال راما: «سوف اقوم بتوديع امي كوساليا اولا، ثم ارحل في الحال». والقى بنظرة اخرى تجاه والده الصامت، وذهب.

عندما خرج راما من قصر داساراتا، كان هناك حشد من الناس في انتظاره لكي يتبعوه الىٰ قاعة الاجتماعات. وعندما نظروا الىٰ وجهه لم يلحظوا فيه اي تغيير. ولكنه بدلاً من ان يصعد الى المركبة التي كانت تنتظره، شرع يمشي في اتجاه قصر والدته، فتبعوه.

قصد راما. أمه كوساليا التي كانت تشعر بالوهن بسبب صيامها وتقشفها من اجل سعادة ابنها. كانت تتوقع ان يأتي اليها في كامل لباسه الملكي، ولكنها لاحظت الملابس الحريرية العادية التي كان يرتديها، فسألته: «لماذا لم ترتدِ ملابسك حتى الآن من اجل حفلة التتويج؟»

«لقد قرر والدي ان يتوج باراتا ملكاً» قال راما في بساطة.

«اوه، لا! لكن لماذا؟»

قال راما: «من اجل مصلحتي انا. ولأبي طلب آخر، وذلك من اجل

تقدمي وسعادتي الروحية».

«ماهو؟ ماذا يمكن ان يكون؟»

«فقط يريد مني ان أرحل بعيداً واسكن الغابات لمدة اربعة عشر عاماً في صحبة القديسين لاكتسب كل فائدة منهم».

انهارت كوساليا وانتحبت، واخذت تعتصر يديها في ألم. شعرت بالوهن في اعماق احشائها، وتنهدت. بدأت تتكلم ولكنهما. ابتلعت كلماتها ثانيةً. ثم قالت بحرارة: «ياله من طلب رائع من أب لابنه!» وتساءلت: «متى يجب ان تذهب؟ وايّة جريمة ارتكبت؟»

رفع راما أمه بيديه وقال: «إن أبي مشهود له بتمسكه بكلامه. اتفضلين أن يتكلم زيفاً؟ إن البركة لتحل عليّ ثلاث مرات، حين اجعل اخي ملكاً، وانفذ اوامر والدي، واعيش في الغابات. فلا تحزني».

لايمكنني القول اعصِ اباك»، فقط دعني أذهب معك، فانا لااستطيع العيش بدونك»

«مكانك هو ان تظلّي الى جوار زوجك، عليك ان تسهري على راحته وتهتمي به، وألّا تدعيه يستغرق في حزنه بسبب نفيي. لايمكنك ان تتركيه الان. وايضاً، ربما يحتاج والدي، فيما بعد، الى القيام باداء بعض الطقوس الدينية من اجل سعادته، وسوف تكون هناك حاجة اليك لتكوني الى جانبه. سوف أعود بعد ان أعيش في الغابات ـ فمهما كان الأمر، يمكن للأربعة عشر عاماً ان تمر كأيام. وكما تذكرين، لقد جلبت لي اقامتي الأولى في الغابات مع فيسواميترا بركات لاحصر لها. وقد تكون هذه فرصة اخرى مشابهة، بالنسبة لي. لهذا لاتحزني».

ادركت كوساليا الآن انه لايمكن لها ان توقف راما. وفكرت. «لأطلب،

في الأقل، من زوجي ان يساعدني كيْ يثنيه عن عزمه..» ومع ذلك، فعندما وصلت الىٰ غرفة الملك ورأت حالته، ايقنت لاجدوى منها. فحينما كان يرقد هناك في صمتٍ وذهول، فهمت انه لابد وان يكون في خطب عظيم. ولم يكن في استطاعتها ان تتحمل رؤية زوجهاالهامد بلا حراك، فاطلقت نحيباً عالياً. كان بكاؤها مرتفعاً جداً لدرجة ان الضيوف في قاعة الاجتماعات جفلوا، وطلبوا من الحكيم ڤاسيشتا ان يصعد في الحال ليعرف السبب، كان الجو كله ممتلئاً بكل أنواع الموسيقى وإنشاد التراتيل والصلوات والضحك والكلام، غير أن العويل المفاجىء هذا أجهز على جو الفرح الكبير. اسرع ڤاسيشتا، فوجد الملك وكأنه ميت، بينما جلست كايكيي على انفراد ترقب المشهد دون قلق، وكوساليا في حالة يأس وبؤس كاملين. حاول بسرعة تقدير الموقف. ولم يرَ جدوى في ان يسأل كوسالياً، فاستدار الىٰ كايكيي الهائلة ذات النظرة الثابتة: «سيدتي، ماذا حدث؟»

«لاشيء يستدعي كل هذه الضجة» قالت كايكيي. «يجب عليك ان تتجاهل موقفاً كهذا، فإنها مسألة عائلية بحتة. لاتنزعج، ياسيدي. عُد الىٰ الاجتماع، واطلب اليهم ان يهدأوا. هناك تغييرات بسيطة في الترتيبات، وهذا كل شيء. ولسوف يتم اخبارهم بها في الحال».

«اريد ان اعرف كل شيء»، قال ڤاسيشتا مؤكداً».

فاسرعت تقول: «بالطبع فانت استاذنا ومرشدنا الروحي، ولك كل الحق في ان تطلب تفسيراً للموقف». وبينما كانت تتحدث، رأى ڤاسيشتا كوساليا تتلوى في ألم وضيق، ودا اساراتا يتحرك قليلاً. كان من الواضح أن دا اساراتا يعي مايجري في الغرفة رغم عجزه عن المشاركة في الحديث.

وخشية ان يبدأ احدهما في الكلام عن اشياء تتعارض واهدافها. قالت كايكيي: «سيدي، ان حكمتك تؤازرنا. وسوف تتحقق من انه لم يحدث شيء سيء. لقد فهم راما ووافق حتى قبل ان اكمل حديثي كله. الآخرون هم السبب في كل هذا الهياج. لقد تخلى راما عن حقه في العرش لصالح باراتا، وسوف يبقى بعيداً في الغابة لمدة اربعة عشر عاماً. إنه شيء يخصه في الدرجة الأولى. وقد وافق على ذلك دون ان ينطق بكلمة، وبكل كياسه. ولكن هؤلاء يعتقدون....» رفعت ذراعها مشيرةً الى عدة اشخاص معادين.

فهم ڤاسيشتا ولكنه واصل سؤاله: «ماسبب هذا التغيير؟»

قالت كايكيي الآن، وقد بلغ سلوكها المؤدب نهايته: «إذا تكلم زوجي، فإنه يستطيع ـ والاّ فانتظر من فضلك. فقط إخبر هؤلاء المجتمعين ان هناك تغييراً طرأ على البرنامج».

«هذا ماسنفعله فيما بعد» قال ڤاسيشتا. «يجب اولاً ان نعيد الملك الى وعيه». وانحنى فوق الملك الممدد على الأريكة ورفع رأسه برفق، وساعده على الجلوس. «إننا في حاجة الى جلالتك، فانت مولانا وربان سفينتنا. ماذا سيحدث لو انسحبت هكذا؟».

غمغم الملك: «كايكيي، كايكيي...»

قال ڤاسيشتا: «إن الملكة كايكيي تراعي مشاعر الآخرين، ولن تفعل شيئاً ضد رغبتك. وانا متأكد من أنها كريمة وسوف تساعدنا. لم تتح الفرصة لمناقشة هذه المسائل مع جلالتها، فاهتمامنا العاجل هو بسعادتك». ولكن كايكيي انصتت في بلادة الى قول ڤاسيشتا هذا المفعم بالأمل.

سأل داساراتا، متعلقاً بقشة أمل: «هل ترِّق؟ اذا فعلت، فسوف يصبح راما ملكاً، أمّا بالنسبة لوعدي، فلها ان تطلب اي شيء آخر تفكر به.

شعر ڤاسيشتا بالارتياح للتحسن الذي طرأ على الملك، فاستدار الى كايكيي وناشدها بكل تواضع ممكن في نبرة صوته «كل شيء طوع يدك... ارجوك، اعتبري نفسك صاحبة فضل على الإنسانية. وسوف يشكرك العالم كله على مساعدتك. ارجوك، فكّري مرة اخرى».

انفعلت كايكيي وقالت في استهجان «إذا لم يستطع المرء الاعتماد على وعدٍ من ملك مشهور، فليس هناك مايستحق الحياة. وعلى كلٍ فانا لم اطلب اكثر من الوفاء بوعده الذي اعطاني إيّاه طواعيةً، وتتحدث انت كما لو أنني ارتكبتُ جرماً!»

قال ڤاسيشتا «إنك لاتدركين النتائج السيئة لفعلتك، وليس لديك الاستعداد كي تنصتي وتفهمي عندما نحاول الإيضاح. ان عنادك لا إنساني». وعندما لم يبدُ عليها التأثر استمر: «لم ينطق لسان الملك بكلماتٍ عن النفي، ولكنك دسست ذلك على أنه أمر منه، وانتِ تعلمين ان راما لن يشكك اطلاقاً في حقيقة الأمر. لقد استغللت وضعك كمليكته المفضلة».

وعلى الرغم من مناقشته، ايّاها ومحاولته إقناعها، تمّسكت كأيكيي برأيها في هدوء ساخر. «اوه، أيها المعلم، انت ايضاً تتحدث مثل هؤلاء الناس الجهلة الذين لايفكرون الاّ بأنفسهم، ويعتبرونني مخطئة دون فهم منهم»

في النهاية انفجر الملك قائلاً «اوه، ايتها الشيطانة، انتِ امرت بنفيه!

هل رحل؟ لقد بحثت عن الموت عندما بحثت عنك كشريكة حياة. كنتُ اظن ان تلك الشفاه الحمراء كالكرز تمدني بأسباب الحياة، ولكنها كانت فقط مصدر اشد السموم هلاكاً كيْ تقضي عليّ. فليكن هذا الحكيم شاهدي. انتِ لم تعودي زوجتي، ولن يكون لابنك الحق في احراق جثتي عندما اموت»

تأثرت كوساليا عندما شاهدت حالة زوجها وحاولت أن تخفف عنه بطريقتها الخاصة. أخفت تعاستها لنفي راما، وقالت لزوجها في وضوح: «اذا لم تحافظ على امانة وصدق كلماتك، وتحاول الآن ان تبقي على راما، فلن يتقبل العالم ذلك منك. حاول ان تقلل من تعلقك براما، وان تهدىء من روعك».

لكن الملك لم يركن الى نصيحتها· «إن الماء المقدس الذي اتوا به من الجانجا من اجل الاغتسال اثناء حفلة التتويج سيكون بالنسبة لي شرابي الأخير، والنار المقدسة التي اضرمت سوف تستخدم لإشعال النار في محرقة جنازتي. راما، راما، لاتذهب. انني ارجع عن كلمتي لكايكيي... كيف يمكنني ان اراك ترحل؟ لن اعيش بعد رحيلك. وإذا عشتُ بعد رحيلك، فماذا سيكون الفارق بيني وبين ذلك الوحش على هيئة زوجة ـ كايكيي

هكذا استمر داساراتا في النواح.

قال ڤاسيشتا: «لاتحزن... سوف اهتم باقناع راما بالبقاء». أما

---

* تقضي التقاليد الهندوسية بان يقوم اقرب شخص الى المتوفي بإشعال النار في جثته. (المترجم).

داساراتا، الذي وهنت عزيمته، فقد تعلق بهذا الأمل عندما رأىٰ الحكيم يذهب. وهوّنت كوساليا الملك بقولها: «من المحتمل جداً ان يعود ڤاسيشتا براما». ورفعته في رفق واهتمت به، واخذت تربت على رأسه وكتفه، بينما اخذ هو يكرر: «هل سيأتي راما؟ متى؟ ياله من شيء رهيب ان تتسبب كايكيي، التي احببتها كثيراً، في موتي كيْ تضع باراتا على العرش!» وساد الصمت فترة، ولكن ليعود ثانية الى نواحه ومخاوفه، وبشكل متصاعِد.

«كوساليا، ياأعز زوجة لي، اصغي اليّ. لن يغير راما من هدفه، وسيرحل بالتأكيد، وسوف تنتهي حياتي. هل تعرفين لماذا؟ انها قصة قديمة.

«ذات مرة وانا اصطاد في غابة سمعت خرير ماء ـ كالصوت الذي يحدثه فيل حين يشرب الماء، فاطلقت سهماً في ذلك الاتجاه، وفي الحال سمعت صرخة انسان يتألم. فذهبت ووجدت انني اصبت صبياً صغيراً كان يملأ ابريقاً. واحدث الماء المتدفق داخله ذلك الصوت. كان الصبي يحتضر، واخبرني ان والديه العجوزين، كفيفا البصر، وهما ليس بعيدين عن ذلك المكان. كان يرعاهما ويحملهما علىٰ ظهره. وقد توفيا لدى سماعهما بالمأساة، بعد ان صبا اللعنة على الرجل الذي قتل ابنهما بأن ينزل به مصير مشابه. وهكذا سيكون مصيري...

عندما اصبح نبأ نفي راما معروفاً، انهار الملوك والعامة المجتمعون في القاعة وبكوا، وكذا فعل كبار رجال الدين والنسّاك، بكى الرجال والنساء بصوت مرتفع، كما بكت الببغاوات في اقفاصها، والقطط في البيوت، والاطفال في المهود، والابقار والعجول. ذبلت الأزهار التي كانت قد

اينعت لتوّها، وطيور الماء والأفيال والخيول التي كانت تجر المركبات ـ كلها انهارت واخذت في النحيب مثل داساراتا نفسه، وهي غير قادرة على احتمال فراق راما. وماكان، منذ لحظات، عالم بهجة صار مأتم حزن. وتدافعت الحشود هنا وهناك، ووقفت في مجاميع عند ملتقيات الطرق، واخذت تراقب مداخل القصر، تتكهن وتعلق. قالوا: «كايكيي ـ العاهرة ذات الشفاه الحمراء. لم نشك أبداً ان مليكنا قد ضيّعه الافتتان هكذا... كنا نظن ان المرأة ذات الشفاه الحمراء مليكتنا، ولكنها كشفت عن حقيقتها ـ تستخدم جسدها كطعمٍ لهذا الخرف الذي سعى الى دماره، وبالتالي دمار بلادنا. دع كايكيي تحاول ان تحكم هذه البلاد مع ابنها ـ فلن يبقى احد ليحكموه. جميعنا سوف نقتل انفسنا او نرحل مع راما. آه، ايتها الأرض التعيسة، لم يُقدّر لكِ ان يحكمك راما! ماذا يفعل لاكشمانا؟ كيف سيتحمل هذا الفراق؟ هل هناك اي مبرر لنقض ماوُعِد به راما؟ يالها من عدالة غريبة هذه! لقد جُنّ العالم فجأة!».

عندما سمع لاكشمانا بالتطورات، ثار كالنيران التي تبدأ في التهام الارض في يومها الأخير، وعلّق قائلاً: «الطعام، الذي أُعدَّ للأسد، يريدون إطعامه لأحد كلاب الشارع ـ هكذا تخطط كايكيي ذات العيون الغزالية». والتقط سيفه وقوسه، وارتدى لباس الحرب، واخذ يجوب الشوارع مستفزاً وهو يقسم: «سوف يُتوّج راما، وسيباد كل من يعترض طريقه، فلتأتِ الدنيا كلها، سوف ادمر كل من يرفض، واجعل من جثثهم كومة عاليةً تصل عنان السماء. ساستولي على التاج ولن يهدأ لي بال حتى اضعه على رأس راما. هذا ماسأفعله في يومنا هذا». وانسحب الناس بعيداً عندما رأوا عينيه تقدحان الشرر وسمعوا

تحدياته التي اخذ يجهر بها». اذا وقف العالم كله ـ كل الآلهة في السماء، وكل الشياطين، وكل الناس الطيبين والسيئين ـ ضدي، فلن اتراجع او استسلم لرغبة انثىٰ...

وصلت اصوات تحدياته وقعقعة ورنين وتر قوسه الىٰ آذان راما، الذي كان في طريقه لوداع سوميترا زوجة أبيه ووالده لاكشمانا، وفي الحال استدار وواجه لاكشمانا: «ماالذي يجعلك ترتدي لباس الحرب هذا؟ وضد من تنطق بتحدياتك؟ ولماذا انت هائج وغاضب؟»

قال لاكشمانا: «اذا لم يكن هذا موقفاً يستدعي الغضب، فمتىٰ اذن؟ بعد أن وعدوك بالمكانه التي تستحقها ـ ينكرونها عليك الآن! لايمكنني ان اسمح بذلك، ولن تتحقق الأحلام الشريرة لتلك المـرأة ذات القلب الأسود، لن اسمح لحواسي بمشاهدة هذا الظلم في استسلام. ساقاوم ذلك حتى النهاية.»

قال راما: «كانت غلطتي. انا الوحيد المُلام لسرعة قبولي عرض أبي لتولي العرش دون تفكير في العواقب. يجب ألا تسمح للسانك، الذي تعلّم إنشاد الفيدا* وكل حقائق الحياة الإلهية، ان ينطق بما يحلوله بلا روية. لن تصمد اتهاماتك أمام تمحيص ذوي العقول الحكيمة والرصينة. يجب الاّ تنطق بمثل هذه الملاحظات المريرة ضد أناس ليسوا إلاّ أباك وأمك» (لايميز راما بين الأم وزوجة الأب). «هدىء من روعك. حين يجف نهر ما، عندئذٍ لايمكن ان يقال انها غلطة النهر ـ إنه جاف لأن السماء جافة. وهكذا أيضاً تغيير أبي لرأيه، او قسوة كايكيي الظاهرة، وهي

---

* الكتب الدينية للهندوس. (المترجم).

التي كانت مُحّبه وشفوقة، او فرصة باراتا في وراثه الحكم... هذه الأشياء ليست في الحقيقة من فعلنا، إنما قضت بها قوى عليا، القدر...»

«سأكون القدر الذي يتغلب على القدر ذاته» قال لاكشمانا في غطرسة المحارب. فكرر راما مناقشته، ولكن لاكشمانا راح يكرر: «سوف أغيرّ القدر ذاته وأُبدّله»، ثم ختم جملته بعبارة راح يكررها: «سوف ادمر من يجرؤ على مقاومة هدفي».

ثم قال لاكشمانا، وكان مايزال على تصلبه: «لا اعرف أباً او أماً غيرك لي. انت كل شيء بالنسبة لي. ولا معنى لوجودي، ولاحتفاظي بسلامة أطرافي واحساسي إذا لم اثّبتك علىٰ العرش كحقٍ لك بغض النظر عمّا تحاول ان تفعله إمرأة أفعى. إن دمي يغلي ولن اهدأ ـ سترى الآن ماذا يمكن لقوسي أن تفعل...»

عندها امسك راما بيده، وقال: «انني مقتنع تماماً ان أمنا كايكيي هي التي تستحق ان ترث هذه المملكة لانقاذها حياة والدنا ولإثبات امتنانه لها، انه حق باراتا ـ لأنه الشخص الذي اختارته كايكيي، ومن حقي ان اتخلىٰ عن المُلْك، وان ارافق نسّاك الغابة المستنيرين. هل تريد ان تطلق العنان لغضبك حتى تقهر أخاً بريئاً ليس لـه يد في ذلـك، وأمّاً قـامت برعايتنا. وأباً كان اعظم حاكم في الارض؟ هل يستحق ذلك النصر كل هذا؟ هل يستحق هذا الغضب، الذي يهدف الى تدمير كل الروابط الوثيقة، ان نرعاه وننميه؟ سيطر على نفسك وارفع يدك عن قوسك».

تراخى لاكشمانا وهو يغمغم: «ماقيمة كل هذه القوة في ذراعي! إنها مجرد عبء إذا لم تستخدم في تدمير الشر عندما أراه، وغضبي ذاته اثبت الآن ان لاطائل من ورائه».

ذهب راما مع لاكشمانا كيْ يودع زوجة أبيه سوميترا. وكما حدث مع الآخرين، تفجعت سوميترا ايضاً علىٰ نفيْ راما، وحاولت ان توقفه. ومرة اخرىٰ، عبرّ راما، ودون كلل، عن اصراره علىٰ الذهاب، وشعوره بالفرح لقدرته على تنفيذ شروط ابيه. واثناء حديثم، جاءت خادمة، ارسلتها كايكيي، حاملةً ثياباً مصنوعة من لحاء الشجر علىٰ ذراعيها، كتذكرة لراما كيْ يبدل ملابسه بسرعة ويرحل. فأُمر لاكشمانا بمجموعة اخرى لنفسه، وخلع ملابسه المبهرجة التي كان يرتديها، واستبدلها بلحاء شجر خشن. وفي الحال اصبح راما، الذي ارتدى ملابس الزاهد او التائب، مستعداً للرحيل، وبكت النسوة عندما رأينه يرحل، وبذل راما محاولةً أخيرة كيْ يبقى لاكشمانا، ولكن لاكشمانا تبعه في عناد. ثم ذهب الىٰ غرفة سيتا فوجدها وقد ارتدت الياف شجر خشنة ـ وتخلت عن ملابسها المبهرجة وحليّها التي تركتها جانباً، رغم انها كانت، منذ فترة قصيرة، قد تزينت وارتدت ملابس تليق بملكة. وعلى الرغم من ان راما كان ثابتاً علىٰ رأيه بالنسبة لنفسه، إلاّ انه شعر بالقلق لدى رؤيتها ـ فلقد كان التغيير مفاجئاً. وقال: «لم يقصد أبي ابداً ان يرسلك معي. انها ليست حياة تليق بك. وقد حضرت فقط كيْ اودعك، لاأن آخذك معي...»

«لقد ارتديتُ ملابسي واستعددت، كما ترى..

«اذا كانت رغبتك ان تتخلي عن الملابس الأنيقة لأنني لاارتديها، فمن الممكن ان تفعلي ذلك، كما لاضرورة للبسها.

«سآتي معك. مكاني، الى جانبك، حيثما تكون...

رأى راما التصميم في عينيها، فرجاها رجاءً أخيراً: «عليك واجبات تؤدينها هنا حيث يوجد أبي وأمي. سأحضر اليك ثانيةً».

«بعد اربعة عشر عاماً! هل سيكون لحياتي معنى؟ من الأفضل ان اموت. دونك، ستكون حياتي حياة اموات، انني احيا فقط عندما اكون معك. أمّا الغابة او القصر الرخامي فهما سيان عندي».

وعندما أدرك راما انه ليس في الامكان ان يثنيها عن عزمها، قال: «إذا كانت هذه رغبتك، فلتكن. ولتحفظكِ الآلهة».

عندما خرج راما ولاكشمانا وسيتا في ردائهم البسيط، كما أمـرت كايكيي، كان هناك حشد كبير تجمع خارج القصر. بكى الكثيرون لدى رؤيتهم، ولعنوا كايكيي المرة تلو الأخرى فيما بينهم. وســاد الصمت عندما وصل ڤاسيشتا وعلامات العجلة تبدو عليه. شاهد الحشد ذلك في ترقب، وتعاظم في قلوبهم الأمل في تطـورات أخيرة يمكن ان تغـيّر من الموقف بشكل سحري. ولأول مرة، شاهد الناس الحكيم ڤاسيشتا بادي البؤس والتعب. ووقف امام راما، قائلاً: «لاتذهب. الملك يريدك ان تبقى وتعود الى القصر».

«رغبته هي ان ارحل...»

«ليست رغبته، فهو لم يقلها ابداً بـل كان طلبـاً من زوجة ابيـك. إنها...

لم يرد راما منه ان يستمر في تعليقه على كايكيي، فقاطعه: «اغفر لي. من واجي ان اطيعها ايضاً، لأن سلطانها من سلطان أبي. وقد اعطاها كلمته، فكيف يمكن تغييرها الآن»؟

«إن اباك في حزن عميق لأنك راحل عنه. ومن المحتمل الّا يبقى حياً بعد هذا الفراق، وفي حالته الراهنة.....

قال راما: «انت استاذنا في كل الأمور. من فضلك، واسِ أبي واجعله

يدرك طبيعة موقفنا الراهن ـ واجبي كأبن يحافظ على كلمته. إن الكلمة التي تُعطى هي مثل سهم منطلق، لايمكنك إن ترجعه في منتصف الطريق...» وانحنى انحناءةً عميقةً تشير الى انه لم يكن لديه شيء آخر يقوله فاستدار ڤاسيشتا دون ان يتكلم، وانسحب كارهاً ان يرى الآخرون الدموع في عينيه.

وعندما بدأ راما يسير، سار الحشد كله، ثم توقفوا عندما توقف. ولم يتكلم أحد. كان الصمت ثقيلا إذا اخذنا بعين الاعتبار ضخامة الحشد، واغرورقت كثير من العيون بالدموع. وقال راما لشخص قريب منه: «الآن ساودعكم جميعاً»، ثم ضم كفّيْه الى بعضهما البعض تحيةً لهم، فردوا عليه التحية. ولكنهم تحركوا عندما تحرك، دون ان يبدو منهم اقل بادرة على توقفهم. ثم احاطوا براما وسيتا ولاكشمانا كان الحشد خانقاً وبعد ان قطعوا مسافة ما، افسح الحشد الطريق لمركبة توقفت ونزل منها سومانترا قائلاً «اصعدوا الى المركبة، فربما لم تستطع سيتا ديڤي السير وسط هذا الحشد

ابتسم راما لنفسه «لقد اخذت على عاتقها ان ترافقني، ومايزال امامها طريق طويل تقطعه على الأقدام».

«ومع ذلك، اذا كانت هناك مركبة، فاصعدوا اليها ارجوكم، يمكنكم في الأقل ان تسبقوا هذا الحشد.....

ساعد راما سيتا على الصعود الى المركبة ، وبدأت الخيل في العدو ولكن لمسافة قصيرة ـ وبلا فائدة في الواقع ، حيث ان الحشد جعل من الصعب على العربة ان تتقدم أسرع من خطوهم فقال راما «لنتقدم ببطء ، لاضرر من ذلك .» واضاف لاكشمانا «في الأقل لم تحدد زوجة

أبينا السرعة التي يجب ان تسير بها

وصلوا الىٰ ضفاف نهر سارايو وعسكروا هناك اثناء الليل . وانتشر ايضاً المواطنون الذين تبعوهم على الرمال ، ولم يعيروا المشاق أي انتباه وبعد منتصف الليل ، ذهب الجميع الىٰ النوم بعد ان اتعبتهم الرحلة ، فقال راما في رفق لسومانترا «حان وقت الرحيل . يمكنك ان تعود الىٰ القصر وتخبر أبي أنني في أمان .» وبينما كان الآخرون نائمين خرج راما وسيتا ولاكشمانا الىٰ نقطة ابعد علىٰ النهر وعبروه ، وصعدوا الىٰ ضفته الأخرى . وشاهدهم سومانترا يذهبون ، ثم رجع بعد أن أخذ باقتراح راما بالعودة إلىٰ العاصمة عن طريق آخر دون ان يوقظ الحشد

كان داساراتا يرقد هامداً بلاحراك ، وعيناه مغلقتان ـ إلّا أنه عندما يسمع وقع أقدام في الخارج ، عندئذٍ كانت شفتاه تتحركان وهو يهمس «هل أتى راما ؟» وعندما كان ڤاسيشتا اوكوساليا يردان عليه في لطف كان يعود الىٰ نومه مرة أخرى «من ذهب ليحضره ؟».

«سومانترا» أجاب ڤاسيشتا أخيراً كان هناك صوت وقع أقدام مرتفع قد أيقظ الملك النائم . فُتح الباب ، ففتح الملك أيضاً عينيه وهتف «آه ، سومانترا ؟ أين راما ؟» وقبل ان يتمكن ڤاسيشتا اوكوساليا من منعه عن الإجابة ، قال سومانترا موضحاً «عبر راما وسيتا ولاكشمانا النهر وصعدوا إلىٰ الضفة الأخرى ، ثم ذهبوا عبر درب ضيق يشق طريقه الملتوي عبر حرج الخيزران

«اوه !» تأوه الملك «كيف ، كيف متى » ولم يستطع إكمال جملته . وحاول سومانترا ان يقول «أراد راما ان يهرب من الحشد

كان التفكير بان راما وسيتا يسيران علىٰ درب الغابة الشاق في ما وراء

أحراج الخيزران ، اكثر مما يتحمله داساراتا . فسقط مغشياً عليه ولم يستعد وعيه ابداً من الصدمة (يقول الشاعر «مات حتىٰ اثناء كلام سومانترا»)

تركت وفاة الملك البلاد آنذاك بدون حاكم فدعا ڤاسيشتا الىٰ اجتماع لمجلس الوزراء وكبار موظفي القصر ، وقرر «اول شيء نفعله هو الحفاظ على جثمان الملك الىٰ ان يعود باراتا ويؤدي مراسيم الجنازة .» فاحتفظوا بالجثمان محنطاً في مرجل زيت

وتم إرسال رسولين ومعهما مجموعة من الرسائل المختومة الىٰ باراتا ، مسدين له النصح بالعودة العاجلة الىٰ العاصمة وكان علىٰ الرسولين ان يسافرا علىٰ فرسيهما بلا توقف ، وألّا يوضحا شيئاً او ينقلا أية معلومات كانا رجلين موضع ثقة ، ولهما خبرة في حمل الرسائل الملكية ، وكان من الممكن الاعتماد عليهما في عدم تخطي الأوامر وخلال ثمانية أيام ، وصلا الىٰ مدخل قصر أسواپاتي في كيكايا ، وأعلنا «إننا نحمل رسالة هامة الىٰ باراتا»

غمر الفرح باراتا ، فأصدر أمره «أحضروهما دون أدنى تأخير واستقبلهما في غرفته وسألهما في الحال «هل أبي سعيد وفي صحة جيدة ؟» فهمهم الرسولان بإجابة مهذبة وسأل باراتا «كيف حال أخي راما ؟» فكررا همهمتهما المهذبة وقالا «نحن نحمل رسالة الىٰ سموك .» استلم باراتا الرسالة المختومة (وكانت مكتوبة علىٰ ورقة من سعف النخل ، ومغلفة بالحرير) ، ففتحها وقرأ «عودتك الىٰ أيوديا اصبحت ملّحة ، وذلك بخصوص شؤون الدولة .» فأمر بمكافأة حاملي الرسالة بسخاء ، وبدأ في الحال يستعد للعودة الىٰ أيوديا ، دون ان

يستشير حتىٰ منجم القصر بخصوص الوقت المناسب للقيام برحلتـه الطويلة

وعندما وصلوا الىٰ ضواحي أيوديا ، سأل باراتا أخاه ساتروغنا «هل تلحظ تغييراً في الجو ؟»

«ليس هناك مركبات تسيرولا راكبي خيل ، ولا مشهد لأناس يتنقلون في الميادين والطرق العامة

«الشوارع والبيوت بلا ضوء»

«لا صوت للموسيقى ـ ولا أفراح ولا أغاني او آلات .. ياله من صمت مقبض ! قليل من الناس يشاهد في الشوارع ، حتى الشخص او الاثنان اللذان نمر بهما لاتعلو الابتسامة وجوههم ! ماخطبهم ؟»

قصد باراتا مباشرةً الىٰ قصر د اساراتا، وصعد اليه. اندفع داخلاً الىٰ غرفته وكلمات الترحيب علىٰ شفتيه وعندما لم يجـد الملك في مكـانه المعتاد ، تمهل متعجباً أين يجده عندئذٍ فُتح باب داخـلي ، وظهرت خـادمة قـالت «والدتـك تستدعيـك .» وفي الحال غـادر الىٰ مسكن كايكيي انخنى إنحناءةً عميقةً لها ولمس قدميها ، فسألته كايكيي «هل أبي وإخوتي والآخرون في أمان وسعادة في كيكايا ؟»

أجاب باراتا بأن الجميع بخير في بيت والدها ، ثم سأل «أريد ان ألمس أقـدام والدي اللـوتسية ، فـأين ذهب ؟ أين يمكنني أن أبحث عنه ؟»

أجابته كايكيي في هدوء «لقد استقبلت الملك العظيم كائنات سماوية متألقة في العالم الآخر إنه سعيد وفي أمان لاتحزن

وعندما تفهم باراتا المغزى الكامل لما اخبرته به ، واستعاد قدرته علىٰ

الكلام ، قال «لم يكن بمقدور أي شخص آخر ان ينطق بهذه الكلمات الرهيبة وبهذه الطريقة . هل قُدَّ قلبك من حجر ؟ كان يجب عليّ الّا أفارقه أبداً انه سوء طالعي وغلطتي . لم يشهد العالم حاكماً أعظم منه ، ولم يكن هناك أب اكثر نبلاً . لم يكن مقدراً لي ان اكون معه او اسمع صوته واستشعر حضوره الرائع ـ مستمتعاً بعطلتي حقاً ! ياله من وقت اخترته للراحة !» وأخذ يقص مرةً وأخرى مآثر أبيه كمحارب ، وخفّف هذا الىٰ حدٍ ما من كربه . ثم قال ، بعد فترة طويلة من التفكير الصامت «لن يخمد حزني حتىٰ ارىٰ راما واستمع الىٰ صوته »

عند هذا قالت كايكيي بطريقة تقريرية «رحل ليعيش في الغابات مع زوجته وأخيه

«ياله من وقت اختاره للذهاب الىٰ الغابات ! متىٰ سيعود ؟ ما الذي جعله يذهب ؟ هل ذهب الىٰ هناك قبل وفاة الملك أم بعدها ؟ هل ارتكب خطأً ؟ ماسبب نفيه ، ان كان ذلك نفياً ؟ هل أمر الآلهة أم الملك بذلك ؟ هل ذهب قبل او بعد وفاة الملك ؟ أوه ، يالها من فكرة مستحيلة ـ هل ارتكب خطأً ؟ ولكن إذا كان راما قد ارتكب خطأً ظاهرياً ، فلم يزل شيئاً قد تستفيد منه الانسانية ، مثل أم تعطي الدواء لإبنها بالإكراه .»

«لاشيء مما تظن . لقد رحل وكان أبوك علىٰ دراية كاملة بذلك

«أبي يموت ، وأخي يُنفى ماذا حدث ؟ ما كل هذا الغموض ؟ ماوراء ذلك كله ؟» .

«إستمع الآن الىٰ ما سأقوله ، في هدوء وبإدراك سليم . لو أنّ أباك قد عاش لكان شيئاً رائعاً بالطبع .. ولكن لم يكن ذلك في أيدينا عليك ان تتقبل الأشياء كما تحدث ، ولا تدع العاطفة تقهرك وتضعف من

حكمتك إنك أصبحت اليوم ملكاً على هذه البلاد بفضل وعد أبيك الذي لارجعة فيه ، بأن يحقق لي رغبتين . وازاح راما نفسه طواعيةً من طريقك لقد أصبح أبوك ضعيف الذاكرة نوعاً ما ، بعد ان منحني وعده

فهم باراتا الآن كل شيء ، فصّر علىٰ أسنانه ، وحملق فيها متوعداً «أنتِ حيَّة ، بلا قلب بمكرك وخداعك ، اوقعت الملك في شرك وعدٍ لكِ ولم تهتمي إذا كان ذلك يعني موته ، كيف يمكنني ان اثبت للعالم أن ليس لي يد في هذا ؟ ألا يمكن ان يعتقد شخص ما بأنني قد خططتُ لكل ذلك ؟ ...لقد اكسبتني أسوأ شهرة لأسوأ شخص منذ بدء سلالتنا الشمسية

ثم ختم كلامه في أسى «إنك تستحقين الموت علىٰ غدرك ... وإذا لم أخمد حياتك البائسة بيدي ، فلاتظني غروراً بأن ذلك بسبب كونك أماً لي ، لكني أبقي عليك لأن راما سيحتقرني لفعلتي .»

تركها دون ان يتفوه بكلمة أخرى ، وذهب باكياً الىٰ قصر كوساليا والدة راما ، التي استقبلته في لطف ومحبة ، رغم عدم تأكدها من براءة باراتا ألقى باراتا بنفسه قدّامها وهو ينتحب «في أي عالم سأطلب والدي ؟ وأين يمكنني ان أرى أخي ثانيةً ؟ هل ابقتني الأقدار بعيداً في منزل جدّي لأعاني من هذه اللوعة ؟»

بعد ان استمر هكذا لفترة من الوقت ، معبراً عن أسفه ، وتصميمه على تدمير نفسه علىٰ ان يتحمل ألم الفراق وسوء السمعة ادركت كوساليا ان باراتا بريء . وسألته عند نهاية حديثة «وهكذا لم تكن على علم بمخططات أمك الشريرة ؟»

فأثار هذا سخط باراتا الشديد ، وانفجر يلعن نفسه «لو كان لديّ أقل معرفة بما كانت تخططه أمي ، فليحكم عليّ بالإقامة في احلك جهنم خصصت لـ ....» وعدد قائمة بأسوأ الخطايا التي بسببها وُضع الخطاة في جهنم

وصل ڤاسيشتا ، فسأله باراتا «أين أبي ؟» فأُخذ الى حيث حُفظ جثمان الملك

ثم قال ڤاسيشتا «حان وقت إقامة مـراسم الجنازة .» وعنـدما استعد باراتا للطقوس ، حُمل جثمان داساراتا في موكب ، على ظهر فيل وعلى انغام الطبول والأبواق الحزينة ، الىٰ ضفة نهر سارايو حيث أُعدت محرقة لإضرام النار فيه . وُضع جثمان داساراتا فوقها ، يصاحب ذلك صلوات وطقوس وعندما حان الوقت لإشعال المحرقة ، اقترب باراتا منها وفي يده شعلة وفي اللحظة الأخيرة أوقفه ڤـاسيشتا فجـأة متذكراً وصية داساراتا الأخيرة التي تبرأ فيها من كـايكيي وأبنها وأوضح ذلك بكياسة وفي حزن عميق «إنها لأقسى مهمة تركتها الآلهة لي كي اؤديها

فهم باراتا وانسحب ، تاركاً أخاه ساتروغنا يقوم بالمهمـة ، وأخذ يفكر في مرارة «هذه أيضاً هـدية أمي لي ألّا أتمكن حتى من لمس محرقة أبي

ومع انتهاء اليوم ، انسحب باراتا الىٰ قصره واغلقه على نفسه . وبعد خمسة أيام من الحداد ، تباحث الوزراء وڤاسيشتا وفاتحـوا باراتـا ملتمسين منه أن يصبح ملكاً عليهم ، لحاجة البلاد الىٰ حاكم فرفض باراتا الاقتـراح واعلن «إنني مصرٌّ علىٰ أن أبحث عن رامـا وسـوف

أرجوه أن يعود .» وأمر بأن يستعد كل المواطنين والجيش لمرافقته الى الغابة فخرج حشد هائل من المواطنين والجيش والخيل والفيلة والنساء والأطفال في اتجاه تشيتراكوتا حيث كان راما يعسكر . وارتدى باراتا رداءً مصنوعاً من لحاء الشجر ، وأصرّ على القيام بالرحلة مشياً على الأقدام كعمل تكفيري ، محتذياً حذو راما . وعندما عبروا الكانج واصبحوا على مرمى البصر من تشيتراكوتا ، لاحظ لاكشمانا ، الذي جعل من نفسه حارساً لراما الحشد على مسافة بعيدة ، فصاح «هاهو يأتي ومعه جيش ـ ليتأكد من أنك لن تعود وتطالب بمملكته التي حصل عليها بالشر سوف أدمرهم كلهم ، فلديّ في كنانتي القوة الكافية»

وبينما وقفا يراقبان ، خلّف باراتا اتباعه من ورائه وتقدم بمفرده في ردائه المصنوع من لحاء الشجر ، ورفع ذراعيه عالياً في ضراعة ، ثم اخذ يبتهل والدموع في عينيه «راما ، راما ، اغفر لي .» فهمس راما الى لاكشمانا : «هل تلحظ مظهره العسكري والرداء الحربي الذي يرتديه؟» .

فطأطأ لاكشمانا رأسه واعترف «لقد اسأتُ الظن به»

ألقى باراتا بنفسه عند أقدام راما الذي أنهضه بكلمات طيبة

وعندما علم راما بوفاة أبيه إنهار وبعد برهة ، تماسك وبدأ يؤدي ، على ضفاف النهر ، المراسيم المطلوبة من ابن ملك راحل وعندما استقر بهم الأمر بعد اداء المراسيم ، فاتحه باراتا بالموضوع «لقد حضرتُ مع كل هؤلاء الناس لنرجو منك ان تعود الى وطنك وتكون ملكاً علينا»

هزّ راما رأسه وقال «نعم ، بعد أربع عشرة سنة . تلك كانت رغبة

أبي . انتَ الملك طبقاً لقراره»

«إذا كنت تعتقد أنّه لابد وأن أكون الملك ، فليكن هذا . ولكني اتنازل هذه اللحظة ، وأتوجكَ»

استمر الجدل بمستوىٰ اصحاب المعرفة والحكمة ، بينما المجلس كله يراقبهم في إجلال

في عالم اعتدنا فيه علىٰ التنافس حول الملكية والسلطـة والحدود ، ويتقاتل الناس حول قضايا مثل: «هذه ممتلكاتنا» او «هـذه تخصني ولاتخصك» ، كان من الغريب ان تجد اثنين يتجادلان حول من لاتمتّ المملكة له ، مؤكدين «هذه مملكتك وليست مملكتي»

وفي إحدى مراحل النقاش قال باراتا : «فليكن ، إذا كانت السلطة لي ، فإنني كحاكم امنحك إيّاها . وإنني آمرك كحاكم، إذا كنت ترغب في أن تعتقد ذلك ، بان تكون انتَ الملك» . وهكذا تواصل النقاش . وأخذ راما يكرر بأنه ليس هناك أعلىٰ من كلمة الأب ، وليس هناك من سبيل سوى الخضوع لها . وكان ، طوال الوقت ، يشير الىٰ كايكيي بأرق العبارات ودائماً كـ «أمي» . وانفجر ڤاسيشتا الذي كانَ يرقب المناقشة «لقد كنتُ معلماً لك ، وليس هناك سلطة أعلىٰ من سلطة المعلم ـ يجب عليك ان تعود الىٰ أيوديا كملك» . فقال راما «ليس من الصواب ان تصدر اليّ هذا الأمر إنّ الوالدين اللذين وهباني جسدي وعقلي اعلىٰ من المعلم.»

فأعلن باراتا : «هذا قسمي ، ولن أهتم بما يحدث . سوف أتخلىٰ عن كل شيء واعيش في الغابة مع راما لمدة اربعة عشر عاماً»

أخذت الآلهة ترقب هذا النقاش وخشيت أنه إذا ماعاد راما الى المملكة بسبب احتياج البلاد إليه ، فسيفشل الهدف من تجسده

فأعلنت «يا باراتا ، عُد واحكم نيابةً عن راما لمدة اربعة عشر عاماً»

لم يبق شيء بعد ذلك فقال باراتا «لم يعد هناك ما أقوله سوف أحكم لمدة أربعة عشر عاماً ، وليس ليومٍ واحدٍ اكثر من هذا . راما ، إذا لم تعد في نهاية الأربعة عشر عاماً، فسوف اقتل نفسي إعطني خفّيك من فضلك ، سيكونان رمزاً لك ، وسوف أحكم نيابةً عن ذلك الرمز . ولن أدخل أيوديا مرة أخرى حتى تعود ، وسأبقى خارج المدينة»

واستدار باراتا عائداً وهو يحمل خُفّيْ راما بين يديه بكل احترام وأقام في قرية صغيرة تسمى ناندغرام على مشارف أيوديا ، ووضع خُفّيْ راما على العرش ، وحكم البلاد وصياً على العرش

الفصل الرابع

لقاءات في المنفى

بعد رحيل باراتا ، غادر راما تشيتراكوتا ، فقد خشي ان إقامته قريباً من أيوديا ربما شجّعت الناس على عبور النهر ليقنعوه بالعودة الىٰ وطنه وشعر ان مثل هذه اللقاءات قد تقلل من قيمة نكرانه للذات والغرض منه وقرر الانتقال الىٰ نقطة أبعد في الغابات وعلىٰ الرغم من انّ لاكشمانا كان قد بنى في تشيتراكوتا كوخاً من الطين والخيزران وسعف النخيل والأخشاب ومواد أخرىٰ متوفرة في الغابة ، كما زيّن الأرضية والجدران وجعلها تسطع بالطين الملوّن (كان تصميمه وبناؤه جميلاً حتىٰ ان راما اضطر الىٰ أن يسأله في إعجاب : «متىٰ تعلمت ان تكون بنّاءً ممتازاً هكذا ؟») ، إلّا ان راما ترك هذا الكوخ الجميل وواصل سيره وخلال رحلتهم التقوا بالعديد من الحكماء الذين كانوا يعيشون في صوامع لهم ، وقد استقبل الجميع جماعة راما كضيوف مبجّلين . كان من بينهم أتري وزوجته انوسويا التي أعطت كل مجوهراتها وملابسها الىٰ سيتا واصرّت علىٰ ان تلبسها علىٰ الفور . واستمر راما في طريقه الىٰ

غابة داندا كا ثم الىٰ پانشڤاتي (بناءً علىٰ نصيحة الحكيم اغاستيا). وفي الطريق شاهد جاتايو النسر العظيم جاثماً على صخرة وقد أوضح جاتايو لراما انه علىٰ الرغم من أنه الآن علىٰ شكل طائر، إلّا ان اصله إلهي وقد أثبت انّه كان يمتلك نضجاً غير عادي من حيث الروح والحكمة. وكان في وقت من الأوقات صديقاً عظيماً لداساراتا ورفيقاً له في المعارك كانا حميمين حتىٰ ان داساراتا قال له ذات مرة «أنت الروح، وأنا الجسد إننا كيان واحد»

كان راما سعيداً بلقاء أحد معاصري والده في تلك البقعة النائية، كما رحّب به جاتايو كأب له في التربية. وعندما علم جاتايو بوفاة داساراتا انهار واقسم علىٰ انّ يضع حداً لحياته. ولكن راما ولاكشمانا ناشداه «لقد وجدنا العزاء في لقائك بعد ان فقدنا والدنا. ولايمكننا ان نحتمل سماع قولك بأنك تضع حداً لحياتك كُفّ عن ذلك، رجاءً» فوعد جاتايو، احتراماً لرغبتهما، ان يعيش، في الأقل، حتىٰ يتمكن راما من العودة الىٰ أيوديا بعد انتهاء فترة نفيه. وفي ذات الوقت أخذ علىٰ عاتقه مهمة حمايتهم، خاصةً سيتا، أثناء إقامتهم في پانشڤاتي. ثم قادهم في الطريق الىٰ پانشڤاتي، على ضفاف نهر غوداڤاري، مقترحاً «عندما أحلق، اتبعوني تحت ظلال جناحيْ»

وعندما وصل راما ولاكشمانا وسيتا الىٰ ضفة نهر غوداڤاري فتنتهم المناظر المحيطة بهم. وشعر راما بحنان عظيم تجاه زوجته التي بدت جميلة، خاصةً وقد زينتها الحلي التي أعطتها لها أنوسويا. كان راما يرمقها بنظرة كلما وقعت عيناه علىٰ شيء جميل كان كل لونٍ من ألوان السماء، وكل شكل لزهرة او برعم، وكل شكل جميل لمخلوق

زاحف يُذكِّره بجانب او آخر من شخصية سيتا

وصلوا الىٰ پانشڤاتي التي تحيط الغابات بها بالقرب من النهر . وكان لاكشمانا الذي أثبت كفاءته ، قد سبقهم بالفعل وأقام بيتاً لهم من الصلصال والقش وأوراق الشجر والخشب ، يحيط به سياج ، يوفر لهم الحماية من الشمس والمطر ، وايضاً الخلوة لراما وسيتا . وسُرّ راما مرة أخرىٰ بعبقرية أخيه الهندسية والمعمارية ، ودخل الىٰ بيته الجديد يملأه إحساس بالدهشة . وبالرغم من سحر الطبيعة ، وفرحته برفقة سيتا لم يغب عن بال راما إطلاقاً هدفه الرئيس من الإقامة في هذا الإقليم - فقد جاء الىٰ هنا كيْ يلاقي ويدمر الشياطين والأشرار الذين ابتليت بهم هذه المنطقة ، وسبّبوا الألم والأذى لكل النفوس الطيبة التي كانت تريد فقط ان تُترك لحال سبيلها حتىٰ تمارس طقوسها الروحية في سلام . كان كل هدف راما في التجسد تدمير راڤانا كبير الشياطين في النهاية ، ومحو الخوف من قلوب البشر والآلهة ، وتوطيد دعائم السلام والنبل والعدالة في العالم

وهكذا عندما شاهد في إحدىٰ الأمسيات فتاة رائعة الجمال ، في الغابة ووسط الزواحف والنباتات في فناء بيته الأمامي ، صار متيقظاً كانت خلاخيل الفتاة تخشخش في قدميها أثناء سيرها ، وعيناها تلمعان ، وتتلألأ أسنانها كانت هيئتها وخصرها وصدرها مثل تمثال منحوت . وافتتن راما ، حتىٰ راما الزاهد ، بجمالها . ووقف يحدق فيها بدهشة وهي تتهادى عند بوابة بيته . وعندما شعت أبتسامتها بوجهه واقتربت منه في شيء من الحياء ، قال راما «اوه ، أيتها الكاملة ، مرحباً بك . فلتحل البركة عليك أخبريني من أنتِ ، ومن أين أتيتِ ، من هم

أهلكِ ، وماذا تصنعين أيتها الكاملة والجميلة في هذا القفر ؟ ما الهدف من زيارتك هنا

«ها أنا أجيب على سؤالك في تواضع أنا ابنة الحكيم ڤيسراڤاس ابن پولاستيا ، الذي كان ابن براهما ذاته ، وأخت غير شقيقة لصديق الإلٰه شيڤا كوبيرا ، أكثر الرجال ثراءً وكرماً في كل العوالم ، والذي يعيش في الشمال ، والأخت الصغرى الرديفة لواحدٍ ترتعد الآلهة في السماء والأباطرة في الأرض لدى سماع اسمه، والذي حاول ذات مرة أن يرفع جبل كيلاس ذاته وعليه الإله شيڤا وپارڤاتي. اسمي كماڤالّي.»

سألها راما في دهشة «هل تعنين أنكِ أخت راڤانا؟»

أجابته بخيلاء: «نعم».

أخفى راما هواجسه التي تحركت داخله، وسأل: «إذا كنتِ أخت راڤانا فكيف امتلكتِ هذه الهيئة؟»

«إنني امقتُ أساليب أخي وأقاربي الآخرين وطباعهم الشيطانية، أمقتُ الخطيئة وأقدِّر عالياً الفضيلة والصلاح. أريد أن أكون مختلفة عن أقاربي، وقد اكتسبتُ هذه الشخصية من خلال صلواتي الدائمة.»

«أوه، أيتها الجميلة، ألاتشرحين لي لماذا، وأنت أخت ذلك السيد الأعظم لثلاثةٍ من العوالم، راڤانا، لايحيط بك الخدم والحشم، قد أتيتِ بمفردكِ، وبلا مرافقين؟»

أجابت: «إنني اخترتُ نبذ فاعلي الشر من أمثال أخي والآخرين، وجعلتُ نصيبي مع القديسين والصالحين. أنا أتجنب الاختلاط بأناسي، ذلك هو السبب في أنني وحيدة. لقد حضرتُ بمفردي الآن ـ كيْ أراك بالدرجة الأولىٰ.. أريد مساعدتك، فهل تمنحني إيّاها؟»

«أخبـريني غرضـكِ. إن كان قـويماً ولائقـاً، فسوف آخـذه بعين الاعتبار ». «لايليق بأمرأة ذات حسب ان تكشف عن بعيد مشاعرها، ولكني اجرؤ على أن أفعل ذلك، يدفعني اليأس الذي سبّبه إله الحب. اغفر لي...

فهم راما غرضها، وادرك أنّ منزلتها الرفيعة مجرد طلاء، ولكنها في حقيقتها مبتذلة ورخيصة، فظل صامتاً. عندها قالت في تأكيد، لأنها لم تكن متيقنة من أنه كان يشجعها أو يثبِّط من عزيمتها: «لقد كنت اهدر شبابي وجمالي في خدمة النسّاك والحكماء لأنني لم أكن اعلم بوجودك هنا. أما الآن وقد وجدتك، فلسوف تتمكن أنوثتي من تحقيق ذاتها.

شعر راما بالرثاء لها، وحاول، رغبةً منه في ألّا يظهر عداءه، ان يثنيها عن عزمها. سيطر علىٰ اشمئزازه وقال: «أنا من طبقة المحاربين وانتِ براهمانية، ولايمكنني أن اتزوجكِ.» فأجابته علىٰ الفور:

«أوه، إذا كان هذا إعتراضك الـوحيد علـيّ، فإن آمـالي المنحسرة ستقوى إذن.. أرجو أن تعرف أن أمي كانت من طبقة الشياطين، ومن المسموح به لإمرأة من تلك الطبقة ان تتزوج من أية طائفة.

ظلّ راما محتفظاً بهدوئه وذكر اعتراضه الثاني: «إنني من البشر، وانتِ من طبقة الشياطين، ولا استطيع ان أتزوجك.

أجابت بلا اكتراث: «إنني وفي تواضع اذكِّرك، وكما ذكرت لك بالفعل، أنه لارغبة لي بالبقاء في طبقتنا، ولكني انشد رفقة القديسين والحكماء. أوه، يامن تشبه ڤيشنو ذاته، لايجب ان تعتبرني بعد الآن من عـائلة راڤانا او أنني أخته. لقد ذكرتُ لك ذلك من قبل. إذا كان هذا اعتراضك، فما يزال عندي أمل.»

كان راما مايزال يشعر بالشفقة نحوها، فقال دون انزعاج او فظاظة، وبلمسة جذل: «على أية حال، عروسٌ من مثـل طبقتك يجب أن تُقـدم بشكلٍ لائقٍ، خاصةً عندما تكون أختاً لرجال ذوي مقام رفيع مثل كوبرا وراڤانا. يجب ألّا تعرضي نفسك للزواج هكذا.

«عندما يتقابل شخصان ويتحدان روحاً بروح، فلا حاجة للشيوخ ان يشتركوا بشكل رسمي في مثل هذا الزواج. إن ذلك مباح في ظل شعائر غاندارڤا، كما أنّ إخوتي يعادون النسّاك ولايوقفهم أي حائل عنـدما يريدون محاربتهم، ولا يراعون أيّة قواعد او نظم في ظل تلك الظروف. وأنت وحيد وترتدي ملابس النسّاك، فإذا رأوك فلن يمنعهم شيء من مهاجمتك، ولكن إذا ادركوا اننا تزوجنا مثل الغاندارڤا، فسوف يرقّون ويشفقون عليك بل وسيتبنونك وينعمون عليك بمظاهر الحفاوة والثراء، ويجعلون منك السيد الأعلىٰ لعدة عوالم... فكِّر في ذلك.

عند هذا ابتسم راما ولاحظ: «آه، هل هذه إحدى الوسائل لتحقيق ثمار كفارتي وتضحياتي ـ ان احرز مِنّة الشياطين واحصل على السعادة الزوجية من خلال رفقتك، وما يتبع ذلك من مكاسب؟» لاحظت ابتسامته ولكن فاتتها التورية، وكانت على وشك أن تقول شيئاً آخر عندما لاحظت وجود إمرأة أخرى. كانت سيتا قد خرجت لتوّها من الكوخ. ولدى رؤيتها لها، بدا الذهول على كماڤالّي التي تمعنت في المنظر جزءاً جزءاً، وتملكها الإعجاب الشديد وايضاً اليأس. إذا كانت تلك المخلوقة الجميلة ساكنة الكوخ، فليس لديها أمل. وسألت في فظاظة: «من هذه؟» وبدا ان بهاء سيتا قد سبق وصولها الفعلي. كانت كماڤالّي قد لاحظت اولاً الضوء، وبعدئذٍ فقط شاهدت سيتا يلفها ذلك البهاء. سقط فكّها عند رؤيتها ذلك

المشهد، وللحظة نسيت نفسها وراحت تحملق في هذا الثنائي الذي كان جمالهما يكمل أحده الآخر. لو كان هناك، في أي مكان في الخليقة، ذكر يتمتع بكل صفات الكمال تناظره أنثىٰ كاملة لكانا هنا في هذا المكان. وبسحر وجود هذا الثنائي، نسيت كماڤاليّ للحظة هيامها ولكن ذلك كان ذهولاً عابراً، وسرعان ماتجددت عواطفها. اعتقدت ان سيتا ايضاً كانت قد انسلّت الىٰ راما من احدى طرقات الغابة وربطت نفسها به، ولا يمكن أن تكون زوجة لهذا الرجل، فلا توجد زوجة ترغب في احتمال مشاق العيش في غابة. لابد انه قد ترك زوجتة بالتأكيد، إن كانت له زوجة، في موطنه، وأنه يعيش مع هذه المرأة في الغابة.

فقالت كماڤالّي بجدٍ شديد: «أيها العظيم! لاتدع هذه المخلوقة تقترب منك. لايخدعنّك مظهرها، فهو ليس لها. لقد انتحلته بفضل السحر. إنها في الحقيقة إمرأة من الشياطين. اطردها قبل ان تلحق بك الأذىٰ، فهذه الغابة مليئة بمثل اولئك المخادعات.

ربما كانت تعبِّر بذلك عن نفسها ـ فمظهرها العادي كان مظهر شيطانة ذات شعر مجدول أشعث، واسنان متوهجة تشبه الأنياب، وقامة ضخمة، وبطن منتفخة بلحوم ودماء الحيوانات التي التهمتها في نهم لانهاية له. كان اسمها سورپاناكا، وقد خصّها أخوها راڤانا بغابة داندا كا هذه كمقاطعة خاصة بها، وترك لها حرية العيش هنا كما يحلو لها، يعاونها عدد من الشياطين القساة بزعامة كارا ـ اكثر كل الشياطين ضراوةً. هنا كانت تجتمع مع حاشيتها وتقوم بنهب الغابات وفي اثناء تجوالها، رأت راما ووقعت في حبه، فقررت ان تغريه بكل ما لديها من فنون. وكخطوة أولىٰ، قامت بتغيير نفسها، من خلال تعاويذ معينة، إلىٰ

غادة جميلة. والآن، وعندما حذّرته من طبيعة سيتا الحقيقية، كما تخيلتها، بدأ راما يضحك وقال ملاحظاً: «آه، يا لها من حقيقة! ليس بإمكان احد أن يخدعك، لأنك أنت نفسك شفّافة! وملاحظتك النفّاذة جديرة حقاً بالإعجاب. لاشيء يخفى علىٰ عينيك، انظري الآن جيداً الىٰ هذه الساحرة التي بجواري كي تدركي من هي.

صدّقت سورپاناكا كلماته، فحملقت في سيتا بشدة وصاحت: «اذهبي! من أنتِ؟ ليس لكِ ان تزعجينا. إنني مشغولة في حديث خاص مع حبيبي. هيا اذهبي!» وخلال ثورة غضبها بان صوتها وشخصيتها واضحين على حقيقتهما. عندما رأت سيتا ذلك، انتابها الهلع واسرعت الىٰ ذراعيْ راما وتعلقت بهما. زاد ذلك من حنق سورپاناكا التي اتجهت نحوها وهي تتوعد.

شعر راما انهُ قد حان الأوان كي ينهي زيارتها، فمن المحتمل ان تؤدي مجرد لحظة مزاح مع شيطانة الىٰ نتائج شريرة لاحصر لها. لهذا قال: «لاتفعلي شيئاً يسبب الألم والعقاب. إذهبي، رجاءً، قبل ان يراكِ أخي لاكشمانا فلسوف يتولاه الغضب. رجاءً، ارحلي سريعاً قبل ان يحضر.»

«كل الآلهة في السماء، براهما وڤيشنو وشيڤا، وإندرا وإله الحب وانماتا نفسه، يطلبونني وينشدون وصالي وملاطفتي. ولكن لايمكنهم الحصول عليّ، كما يعرفون جميعاً. إذا كان هذا الحال، فكيف يمكنك ان تتحدث اليّ هكذا باحتقار، وتستمر في رغبتك وثقتك بهذه الساحرة الغادرة التي الىٰ جانبك؟ اوضح موقفك المتهور والطائش.

شعر راما بعدم جدوى أي حديث آخر معها. لقد ازدادت مغالاةً في

صرح كذبها بعنادها ولامبالاتها، لهذا استدار، وهو يمسك بسيتا قريباً منه، وعاد سائراً في هدوء وكياسة إلىٰ صومعته.

عندما اغلق الباب في وجه سورپاناكا، أصابها الذهول حتى كاد يُغمى عليها. وبعد ان تمالكت نفسها، فكرت: «لقد رفضني بإزدراء وبعبارات لا لبس فيها، واد ار ظهره لي. إنه مفتون تماماً بتلك المرأة.» وعندما وجدت أنّه لم يعد لديها ماتفعله هناك، انسحبت الىٰ ملجئها وراء الغابة وذهبت الىٰ فراشها، انتابها الوهن من شدة حرارة عواطفها. وكما حدث لسيتا ذات مرة، سبّب عذاب الحب ألماً شديداً لهذه المرأة البشعة أيضاً، فأزعجها كل شيء وزاد من كربها. وعندما غمر ضوء القمر الأرض، راحت تصرخ في القمر وتمنت لو كان بامكانها أن تطلق الحيّة راهو لتبتلعه. وعندما لامسها النسيم الفاتر، راحت تولول وتطلق اللعنات عليه. ونهضت كما لو كانت قد صمّمت علىٰ تدمير إله الحب ذاته، الذي كانت سهامه تخترق قلبها. ولعدم قدرتها علىٰ احتمال الألم الذي انزلته بها ظروفها، دخلت الى كهف جبليّ يمتلىء بالثعابين الميتة، واغلقته عليها. وظلت هناك تهذي. مرةً تلو الأخرى، بدا لها كما لو أنّ راما بكامل هيئته يقف أمامها. وتخيلت أنها تحتضنه وتربت على منكبيه العريضين وعلىٰ صدره. وعندما افاقت من اوهامها، صرخت: «لماذا تعذبني هكذا؟ لماذا ترفض أن تتوحد معي، وتطفىء النار التي تحرقني؟» بعد هياجها الشديد خلال الليل، جعلها تعبها اكثر هدوءاً في الصباح، فقامت بتحديد خططها: «إذا لم أتمكن من الحصول عليه، فلن أعيش بعد الآن. ولكني سأبذل محاولةً أخرى. إنه لايهتم بي بسبب سحر هذه المرأة. فإذا زحزحتها من جانبه وابعدتها عنه، عندئذٍ سيكون من الطبيعي ان يولع

بي.» وأمدها ذلك طاقةً جديدةً.

خفف ضوء النهار من آلام الحب الى حدٍ ما، وخـرجت من كهفها. سارت الى پانشڤاتي وراحت تطوف حولها تتحين فرصتها. رأت راما يخرج من كوخـه ويتجه نحـو ضفاف جـود اڤاري من اجـل حمّامـه الصباحي وصلواته، فقالت تحدث نفسها: «حان الوقت، فإذا فاتني ذلك فلسوف اخسره إلى الأبد. إنها مسألة حياة او موت بالنسبة لي، وعلى أية حال، عندما يجدها وقد رحلت، فسوف يتقبلني.» وعلى الـرغم من ان منظر راما أرسل رعشةً هزّت كيانها، إلاّ أنها منعت نفسها من ان تخر على قدميه وتعترف بحبها له. شاهدته يذهب، وسرعان ماخرجت سيتا من الكوخ لتجمع الأزهار. فقالت سورپاناكا لنفسها: «يجب ألاّ افوّت هذه الفرصة.» وبدا لها كل قرار على أنه خطوة هامة في مطاردتها لراما. وأخذت تمشي خلسةً خلف سيتا، مثل حيوان يتبع فـريسته. لسـوف تنقض وتمسك بها وتتخلص منها، وعندما يعود رامـا سيجدهـا وقد أخذت مكان سيتا. كانت الخطة ممتازة كما بدت لها، ولكنها لم تحسب حساباً آخر لها. فبسبب تركيزها على صورة راما المحبوب وعلى تحركات سيتا، لم تلحظ أنها مراقبة. لقد احتل لاكشمانا، مرتفعاً تظلله الأشجار، وأخذ يراقب كل الاتجاهات. وعندما شاهد سورپـاناكـا بالقـرب من الكوخ، تنبه. وعندما وجدها تسير خلسةً خلف سيتا، هجم عليها. وفي اللحظة التي وضعت سورپاناكا يديها على سيتا، وجدت أنها قد قبض عليها وامسك بها من شعرها، وركلت في بطنها.

«أوه! إمرأة!» تمتم لاكشمانا وقرر ان يُبقي على حياتها فأمسـك بشعرها وبدلاً من ان يخرج سهمه، استلّ سيفه وقطع أنفها وأذنيها

وثدييها. وحين هدأ غضبه، ترك شعرها

عندما عاد راما الى بيته من النهر، كانت قد تشوهت وتلطخت بالدماء، واخذت تصرخ بكل قوتها علا صوتها عويلاً الى عنان السماء، وناشدت إخوتها الأقوياء، الذين اسهبت في ذكر بسالتهم في كل العوالم، مكررةً مرةً وأخرى كيف انه من المستحيل على أخت مثل أولئك العظام أن تقاسي من هذا التعذيب والإذلال على أيدي شخصين عاديين، يرتديان ملابس النسّاك الا أنهما يحملان الأسلحة ويهاجمان الناس في غدر. أيمكن لمخلوقات بشرية كانت تُقدم كطعام الىٰ أقربائها، ان تجرؤ علىٰ فعلٍ ذلك بأخت راڤانا!...

لم يسأل راما «ماذا حدث؟» ولكنه قال: «من أنتِ أيتها الملطخة بالدماء؟ ومن أين أتيتِ؟» أجابت «ألا تعرفني؟ لِمَ تتظاهر بذلك؟ لقد تقابلنا مساء أمس وكنت لطيفاً جداً معي! آه!» وأخذت تبكي وقد عاودها الهيام.

فهم راما وسألها: «أنت نفس المرأة. أليس كذلك؟» ولم يزد في تعليقه.

أجابت في ألم شديد «ألا تجدني جميلة؟ لاعجب! إذا كان الأنف والأذنان والثديان قد قطعت، أفلا يقلل ذلك من جمال المرء؟»

استدار راما نحو لاكشمانا وسأله: «ماذا فعلتْ؟»

أجاب لاكشمانا: «كانت على وشك أن تهاجم جناكي* والشرر يتطاير من عينيها، وقد منعتها من ذلك.»

والآن اوضحت سورپاناكا: «من العدل والصواب ان اكره بالطبع اي

---

* اسم آخر لسيتا.

شخص يحرمني من رفقة حبيبي.» لقد كانت تحسب راما في فكرها مِلْكاً خاصاً بها: «ألا يشتعل قلب المرأة عندما ترى حبيبها يُسْتَلَبُ منها؟»

قال راما في بساطة «ارحلي قبل ان ينطق لسانك بكلمات أسوأ قد تسبب لك مزيداً من الأذى. عودي الى أناسك.

بذلت سوربناكا محاولةً أخيرة لتكسب حب راما، فقالت: «لم يفت الأوان بعد. سيعفو عنك أخي راڤانا لما فعلت إذا ما تزوجنا، وسيجعل منك السيد الأعظم لعدة عوالم، ويضعك فوق كل الآلهة. لم يفت الأوان بعد. ومن ناحية أخرى، إذا ما عاب أحدهم أنفي او أذني فلسوف يقضي عليه. لذا لاتتردد. لن يجرؤ أحد على القول بأنه لا أنف ولا أذنان ولاثديان لي. لازلت احتفظ بعيني، اللتين يمكنهما ان ينعما برؤية صدرك العريض وكتفيك، وذراعاي سليمتان كي احتضنك بهما إني مولهة بك. سأكون عبدتك، وسأجعل كل الشياطين عبيدك. لاأستطيع العيش بدونك. اشفق عليّ. وسوف افعل كل ماتأمر به.» كانت تتمرغ في الوحل ودمها ينزف، ولكن ذلك لم يخفف من جوها اللاهب. واستمرت تقول. «إن أقاربي قساة، وسوف يطيش صوابهم عندما يرون ماحل بي - وفي تهور سوف يدمرون كل شيء، بما في ذلك انت. سوف يدمرون البشرية ولكن إذا أخذتني إليك فلسوف أتشفع من أجلك. سوف يعفون عنك وعن كل شعبك.. ستكون السبب إمّا في تدمير البشرية أو خلاصها من ذلك.

«كلما تركتك تتحدثين، كلما إزدادت أقوالك سوءاً. إذهبي الآن الى شعبك، واحضري كل اولئك الرجال الأقوياء، وزيادة عليهم. ولسوف ألاقيهم واحداً بعد الآخر او كلهم جميعاً بإمكاني أن أكون نداً لهم. والآن انصرفي. إفهمي الآن أنّ رسالتي في الحياة هي اجتثاث الشياطين

من على وجه الأرض، وسأبقى هنا حتى انجز ذلك.

وقفت سورپاناكا هناك، حتى بعد ان قاست من التشوه علـى يديّ لاكشمانا، واستمرت في مناشدة راما كي يتقبلها، واشارت بشكل خفيّ الى أنّ بإمكانها ان تبدو جميلة مرة أخرى من خلال قواها السحرية. عند ذلك، شعر راما بأن عليه أن يوضح لها مَن هو وكيف حضر الىٰ هنا مع زوجته وأخيه. واكثر من هذا، اوضح لها مرةً أخرىٰ ان رسالته في الحياة تدمير طبقة الشياطين، وقصّ عليها كيف دمّر تاتكا وصغارها.

وبدلاً من ان يثنيها ذلك عن عزمها، ألهمها في الحقيقة فكرةً أخرى: «إذا كان هذا هدفك، فسأكون، كما تعرف، افضل حليف لك ـ إذا لم تزدريني لمظهري، وإذا لم ترفضني بسبب أسناني الضخمة وفمي الكبير. إذا تزوجتني، سأعلمك كل الفنون والحيل، السحرية وخلافها، التي جعلت شعبي متفوقاً لايقهر. بإمكاني ان اعلمك كيف تتغلب عليهم. ولكن يجب ان تكون لطيفاً معي، يجب ان تتقبلني.. حتى لو لم يكن في استطاعتك التخـلي عن رفيقتك النحيلـة ـ حسن، لاتعتبرني إضـافةً مستحيلة. هل سأكون عبئاً كبيراً؟ لا. سوف أساعدك بان اكشف لك عن كل حيل وألاعيب أعدائك لكي تحقق النصر الكامل ضدهم. إن أقدام الحيّة تعرفها حيّة أخرى؛ حتى لو لم يسمـح لك عقلـك بالتخـلي عن زوجتك... خذني كشريك ثالث، في حربك ضد الشياطين. وعندمـا تتم هزيمة أخي ويرحل، وهو الذى أمسك ذات مرة بالشمس والقمر أسيرين ـ ولستُ أنا بأقل منه بسالةً ـ عندئذٍ اجعل أخاك لاكشمانا في الأقـل يتزوجني، دعني أكنْ معكم عندما تعودون منتصرين الى أيوديا. وعندما نعود، لاتنزعج لأن هناك شخصاً ما بلا أنف في رفقتك. فلتعلم، رجاءً، أنّ

بإمكاني ان أتخذ لنفسي أية هيئة، وإذا حدث وتساءل لاكشمانا: «كيف يمكنني أن أعيش مع إمرأة بلا أنف»، فقل له ان بإمكانه ذلك وبنفس الطريقة التي تعيش أنت بها مع واحدة بلا خصر*»

عندما قالت ذلك، غضب لاكشمانا بشدة حتى أنه اعلن: «أخي، أتسمح لي بأن أضع نهاية لها؟ وإلّا فإنها لن تدعنا وحدنا أبداً!» فكّر راما في ذلك وقال: «اعتقد ذلك أيضاً ـ لو أنها اصرّت علىٰ ألّا ترحل، فذلك قد يكون الطريقة الوحيدة.» لدى سماعها لهذا، نهضت سورپاناكا ورحلت مسرعةً: «يا اغبياء، هل تعتقدون أنني أعني ما أقول؟ فقد لبثت، حتىٰ بعد أن فقدت ملامحي، وتحدثت إليكم فقط كي أسبر عمق عقليتكم الوضيعة. سأذهب، ولكني سأعود حالاً مع شخص سيكون ياما [أو الموت] بالنسبة لكم. إنه كائن أقوىٰ من كل عناصر الطبيعة واسمه كارا» ـ ثم رحلت.

كان كارا أخاً غير شقيق لراڤانا، ومحارباً شيطاناً يهابه الجميع، وكان تحت إمرته أربعة عشر زعيماً يقودون جيشاً، وكان يحمي سورپاناكا ويقوم بتنفيذ أوامرها. وبعد مغادرتها پانشڤاتي، اندفعت في غضب الى قصره وكشفت له عن جراحها، وبكت: «لقد فعل هذا بي شخصان جاءا الى مملكتنا».

«شخصان!»

«آه، ابنان مدهشان لداساراتا، لهما مظهر النسّاك، ولكنهما مسلحان لغرض القضاء علىٰ عشيرتنا. معهما إمرأة ذات جمال سماوي.

---

* هذا إطراء مبطن لبنية سيتا، فالخصر النحيل ناحية جمالية يؤكد عليها الشعراء الكلاسيكيون كثيراً وبطرق متعددة. (المترجم)

وعندما حاولت الإمساك بها، هجم عليّ هذان الآدميان، وأدمياني هكذا.

شاهد كارا عن كثب ما حلّ بها من ضُرّ، وأخذ يتوعد: «الموت لهذين الشخصين. سوف نقضي على البشر جميعاً وليس عليهما فحسب.

وانطلق مسرعاً الى المعركة، فأحاط به في الحال اربعة عشر قائداً وقالوا: «هل تعني أنك لاتثق بنا، وتنطلق بنفسك بهذه الطريقة؟ أُترك لنا هذه المهمة، سنذهب نحن ونسوّي الأمر.»

وافق كارا: «فليكن ذلك. أنتم على حق. إذا أعلنتُ الحرب على هذه المخلوقات الصغيرة الوضيعة، فسيهزأ الآلهة بي. إذهبوا واستمتعوا بدمائهم، ولكن عودوا بالمرأة واعتنوا بها.

حمل القادة أنواعاً مختلفة من الأسلحة، كالرماح ثلاثية الشعب والحراب والسيوف المعقوفة والفؤوس، وساروا تتقدمهم سوربانـاكا نحو كوخ راما. توقفت سوربانـاكا على بعد، واشارت نحو راما: «هاهو، انظروا إليه.» وغمغم الأربعة عشر شيطاناً: «هل نأسره ونأخذه أم نقذف به في الهواء ونقتله أم نطلق عليه الرمح النافذ؟»

قالت سوربانـاكا: «أحضروا ذلك الرجل حياً، سأتولى أنا أمره»

عندما شاهدهم راما يقتربون، قال للاكشمانا: «عليك بحماية سيتا، ولاتتركها». ثم أخرج قوسه وحمل سيفه واعدّ نفسه للمعركة، وخرج من كوخه غاضباً كالأسد. بدأت المعركة وانتهت بسرعة، فقد قضت سهام راما على الأسلحة التي كان يحملها الشياطين، وتقطعت رؤوسهم. أما سوربانـاكا فقد هربت من أرض المعركة واخبرت كارا بالكارثة التي حلّت بقادتها.

دقّ كارا ناقوس الخطر وجمع جيشاً من الشياطين الأقوياء، واتخذوا طريقهم نحو پانشڤاتي واحاطوا بصومعة راما دون ان يخاطرهم شك بأنهم سيقضون علىٰ حياة هذين الشخصين الطائشين. كانوا قد أعدّوا الخطط لمحاصرة الكوخ والانقضاض عليه في لحظة معينة كي يدّكوا المكان بمن فيه. استلوا اسلحتهم واقتربوا من الكوخ يصرخون ويزعقون كي تهتز أعصاب ضحاياهم. وقد طالت قليلاً هذه المعركة، ولكن النتيجة كانت النتيجة السابقة نفسها.

لقد هزم راما كارا وحلفاءه. كانت سورپاناكا تراقبهم من بعيد، وادركت اتجاه الأحداث. وللحظة قصيرة اقتربت من الجثث المشوهة والمبعثرة، بما في ذلك جثة بطلها وأخيها كارا، وأخذت تبكي. ثم قررت ان ترحل عن المنطقة. وهربت إلىٰ لانكا لتخبر أخاها راڤانا بالكارثة.

الفصل الخامس

المعذب الأعظم

جلس راقانا، الحاكم الأعلى لهذا العالم وغيره من العوالم، في قاعة الدربار يحيط به حشد هائل من رجال الحاشية والمرافقين، بينما وقف ملوك هذه الأرض، الذين اخضعهم له، وأيديهم ترتفع الى أعلى في حالة أداء تحية دائمة خشية ان يستدير راقانا في أية لحظة تجاههم ويظن أنهم لا يتذللون له بدرجة كافية. واحاطت به نساء جميلات جمعهن من كل العوالم، يغنين ويرقصن ويقضين له كلّ احتياجاته، وهن على استعداد دائم لتقديم الخدمات له وإسعاده، وعيونهن مثبتة عليه يترقبن أبسط الأوامر. كان معجبوه يمطرونه بكميات هائلة من الزهور في كل دقيقة. لقد استعبد ايضاً الآلهة الحاكمة وجعلهم يؤدون مهام وضيعة في قصره. كان من بينهم ڤايو إله الريح، الذي كان هناك كي ينفخ بعيداً بالزهور والأكاليل الذابلة ويقوم بتنظيف القاعة. واستخدم ياما إله الموت كي يدق الناقوس كل ساعة لتحديد الوقت. وكان إله النار مسؤولاً عن كل انواع الإنارة، كان يضيء المصابيح ويحرق البخور

والكافور. كانت هناك ايضاً الكالپاتارو، الشجرة السحرية التي كانت تستجيب لأية رغبة، وكانت قد أخذت من إندرا لكي تكون في خدمة راڤانا. وجلس الحكيم نارادا هناك يلعب في رفق على آلته الموسيقية. وهناك ايضاً الاساتذة الكبار ـ بريها سپاتي الذي كان مرشداً للآلهة. وسوكرا تشاريا الذي كان مرشداً لجماعة الشياطين ـ وهما رجلان امتلكا أبرع العقول، كانا هناك على استعداد لتقديم النصح الىٰ راڤانا عندما يطلب منهما ذلك، وايضاً كعّرافين بشكل عام.

شقّت سورپاناكا طريقها الى هذا المكان في جلبة واضحة، وهي تولول بصوت عالٍ حتىٰ ان كل رجال ونساء وأطفال المدينة حضروا مسرعين من بيوتهم وتزاحموا حول مدخل القصر الشمالي، حيث دخلت سورپاناكا مندفعة سريعاً وخرّت أمام عرش راڤانا باكيةً: «انظر ما حلّ بي!» .

وعندما لاحظ راڤانا حالتها، أخذ يهذر: «مامعنى هذا؟ من فعل ذلك؟» ـ وبصوت عالٍ جعل الطبيعة كلها تجفل وتنسل بعيداً عن ذلك المنظر.. حبس الآلهة أنفاسهم عاجزين عن تقدير الجيشان الذي سيعقب انتقام راڤانا. وبينما حبس كل من في القاعة أنفاسهم وانتظروا، استعلم راڤانا منها في هدوء وروية: «من فعل هذا بك؟»

شرحت له سورپاناكا بالتفصيل، وختمت كلامها مشيرةً الىٰ راما: «حتى لو كان لي الف لسان، لن يمكنني أن اوضح لك تماماً جماله وعظمة شخصيته. حتى لو كان للمرء الف عين فلن يمكنه ان يستوعب روعة هذا الكائن. إن قوته لانظير لها فقد دمرّ جيشنا كله بمفرده.» وعندما ادركت أنها ارتكبت خطأً بالكشف عن الكثير من عواطفها نحو راما، اضافت

مستدركة: «وعلىٰ الرغم من هيئته، فبالقسوة قلبه! إن مهمته في الحياة تدمير عائلتنا وعشيرتنا وطبقتنا كلّها من على وجه الأرض.»

صرخ راڤانا في تحدٍ «آه، سوف نرى ذلك. ولكن خبريني لماذا فعل هذا بك؟ كيف أثرتِ غضبه؟»

«لديه إمرأة يجب ان تكون لك. اخشى، إن فزت بها، ان تنبذ كل من تفضلهن الآن، كما اخشى ان تتنازل لها عن كل سلطانك وقوتك وممتلكاتك وفتوحاتك وان تجعل من نفسك تابعاً ذليلاً لها. اسمها سيتا لقد غلبني جمالها حتى أنني انتظرت وترقبت الفرصة لأحاول خطفها وإحضارها هديةً لك.

تحول اهتمام راڤانا من الانتقام الىٰ الحب، وقال: «ولماذا لم تفعلي؟»

«عندما امسكت بها، انقضّ عليّ أخو ذلك الرجل ـ آه! ياله من قوي! ـ وشقّ وجهي.

«أخبريني بكل شيء عنها.. أمرها راڤانا، متجاهلاً كل القضايا الأخرى.

وصفت سورپاناكا سيتا من قمة رأسها حتىٰ أخمص قدميها في تفصيل دقيق وكانت الصورة التي رسمتها مقنعة، ووقع راڤانا في حب الصورة بجنون، واصبح قلقاً وغير سعيد. وأمدته كل كلمة نطقت بها سورپاناكا بالسعادة والألم. وحثّته سورپاناكا على ان ينطلق ويمسك بسيتا، وأخيراً قالت: «عندما تنجح في الحصول علىٰ تلك المرأة، احتفظ بها لنفسك، ولكن تأكد من تسليم ذلك الرجل، راما، إليّ، وسوف أتصرف أنا معه.» لم يكن لديها شك في نجاح مخططها للفصل بين سيتا وراما، وعندها سيتحول راما بالطبع نحوها، طلباً لحبها.

شعـر راڤانـا بالقلق، فنهض فجـأة وتـرك القـاعـة حتىٰ لايلحظ المجتمعون حالته الذهنية، فأمطروه بالزهور وأخذوا يطلقون البركات ويتغنون بعظمته كما كانت العادة كلما سار في القاعة. كانت رؤوسه العشرة منتصبة وعيونه تنظر إلىٰ الأمام مباشرةً دون ان يلحظ الذين وقفوا في احترام له. كان ذهنه مشغولاً بالأفكار من أجل أن يغزو قلب سيتا ويستولي عليه، فقد أضرمت كلمات سورپاناكا جوى حارقاً داخله. تجاهل زوجاته اللاتي كنّ في انتظار وصاله، وشقّ طريقه الىٰ غـرفته الخاصة حيث أغلق الباب عليه ورمى بنفسه علىٰ فراشه الوثير. ورقد هناك يتقلب عاجزاً عن أن ينزع من ذهنه الشكل الذي رسمته كلمات سورپاناكا، واستحوذ عليه. شعر بالعذاب وثار ضد كل مايحيط به وبدا انه يزيد من معاناته. وسرعان ما ادرك انه لايمكنه البقـاء في فراشه وغرفته، وبدا كما لو أنّ المكان يشتعل من الحرارة الشديدة، فنهض وخرج إلى الغابة، تاركاً مرافقيه ومساعديه مندهشين ممّا ألمّ به وجعله يذهب إلىٰ هنا وإلىٰ هناك. وانتقل إلىٰ حديقة منزله، وهى من الرخام الخام والذهب وتقع وسط نخيل باسق واشجار مزهرة، واستلقى علىٰ فراش من الساتان الأبيض. وعندما شاهدته طيور الوقواق والببغاوات علىٰ الاشجار، صمتت.

أثبتت الحقبة الأخيرة من الشتاء، بضبابها الخفيف وريحها الفاترة، أنها غير مريحة لراڤانا الذي أخذ يصيح بها ويسأل: «أي فصل بائس انتِ؟» ـ وعندها تغير الطقس الىٰ صيف مبكر حلّ قبل أوانه. انّ المرء الذي وجد قرّ الشتاء دافئاً جداً، كان من الطبيعي ان يجد الربيع غير محتمل. وصرخ راڤانا: «لا أريد هذا الطقس. فلتأتِ الامطار الموسمية في

الحال.»

تغير الجو لينسجم وحالته النفسية وبناءً على أمره جاء فصل (الأمطار الموسمية) بسحبه وهوائه الرطب، ولكن حتى ذلك اثبت أنه دافئ جداً بالنسبة له، فصاح «أي طقس هذا؟ لقد احضرتم فقط الشتاء المتأخر الذي كان رهيباً.

أجابه مساعدوه في خنوع «وهل نجرؤ على عصيانك؟ ما استدعيناه حقيقة هو الأمطار المبكرة، كما أمرت جلالتك.

عندها قال راڤانا «اطردوا كل الفصول. دعوها تترك هذا العالم. وتبع ذلك توقف كامل في الزمن وفقدت الدقيقة والساعة واليوم والشهر والسنة كل حدودها وضاعت البشرية في فوضى اللامواسم. وعلى الرغم من كل ذلك، لم ينعم راڤانا بالسلام، وكان مايزال يكابد نار حبه اليائس لسيتا

وعندما باءت كل جهود تخفيف الجوى بالفشل - كتغطية جسده بمعجون خشب الصندل وبطبقات من اوراق رقيقة لنبات نادر مطليّ بعطر الزعفران - قال راڤانا، الذي شعر بوهنٍ في قوامه، لهؤلاء المحيطين به «من المفروض ان يكون للقمر رطوبة فاترة. انزلوا بالقمر.»

فاتح رسله القمر، الذى كان عادةً يتجنب المرور فوق اراضي راڤانا، وقالوا «إن ملكنا يستدعيك. لاتخف، وتعال معنا.» فبزغ القمر في كامل بهائه فوق البحر، ودنا في خوف من راڤانا، غامراً كل مايحيط به بضوء خافت.

ولكن راڤانا سأل خدمه الآن: «ما الذي جعلكم تحضرون الشمس؟»

فـأجابـوا «لاتجرؤ الشمس عـلى الحضور دون ان يطلب منهـا ذلك، ولانجرؤ نحن أيضاً على إحضارها الىٰ هنا.» وعندما ادرك راڤانا انـه القمر، راح يسبّه: «أنت عديم القيمة، شاحب الوجه، تبدو دائماً في حالة إعياء، تحاول ان تستعيد بهاءك ثانيةً. لاقدرة لك ولا نفع فيك. إنك جدير بالاحتقار أتكون أنت ايضاً قد بُليت بحبّ سيتا؟ احذر من ان تخامرك أية افكار عن تلك المرأة ابداً اذهب الآن. لا أريدك هنا.» ثم أمر: «ليذهب الليل. ارجعوا ضوء النهار والشمس.

وعندما انتهى الليل فجأة، شعر كل الناس في العالم بالاضطراب. فقد وجد العشاق النائمين، فجأة، ان ضوء النهار قد فضحهم، واعترى الذهول والارتباك اولئك الذين كانـوا مخمورين. وتحـركت الطيور في الاعشاش وهي لاتعرف ماذا حدث، والمصابيح، التي امتلأت بالزيت كي تضيء لليلة كاملة، خبا ضوؤها في ضوء النهار، وعلماء الفلك، الذين يحسبون حركة النجوم والكواكب ويعلنون عن أبراجها، أُخِـذوا، على حين غِرّة لأنهم لم يعلموا بحلول النهار. حتى الديكة ظلت صامتة، عاجزةً عن ان تتكيف مع ضوء النهار المفاجىء. وقال راڤانا «هل هـذه هي الشمس؟ أتدعوها الشمس! إنه القمر مرة أخرى الذي كان هنا منـذ لحظة، وجعل دمي يغلي. ليس هذا بالشيء الأفضل. انه الشيء نفسه كما في السابق. لاتكذبوا.» فأكّد له خدمه ثانيةً انها الشمس حقيقةً، عندئذٍ أمر بأن تختفي الشمس وان يبـزغ الهلال، وان تظـل امواج البحـر صامتة. ثم أمر بأن يلف الأرض الظلام الدامس، ممّـا سبّب الفوضى والعذاب لسكانها وفي ذلك الظلام الدامس، واصل راڤانـا الهذيـان وتخيل صورة سيتا تقترب وتبتعد عنه فخاطبها مناجياً

١

لم يشاهد ابداً شخصاً جميلاً هكذا في كل العوالم التي جابها وفق مشيئته وعندما ساوره الشك فيما رآه، اصدر أمره: «احضروا أختي في الحال.» وبلمحة مابين اصداره للأمـر وتنفيذه، وصلت سـوربانـاكا فسألها «إنني ارى هذه المرأة أمامي. فهل هذه ما تعنين؟»

نظرت سوربانكا جيداً وقـالت: «أوه، لا إن الشخص الذي يقف أمامنا ليس إمرأةً على الاطلاق. إنه راما، ذلك ـ ذلك الرجل. انا لا ارى سيتا هنا. انت تتخيل فقط.

«إذا كان ذلك تخيلاً من جانبي، فكيف تشاهدين راما هنا؟»

قالت سوربانكا «إنني أجد انه من المستحيل أن أنساه منذ اليوم الذي أنزل فيه هذا الضرر بي»، وهي تحاول بذلك ألّا تكشف كثيراً عن مشاعرها تجاه راما، وتراوغ بالكلمات.

فقال رافانا «فليكن ذلك. انني أذوب وأموت رغبةً في سيتـا. كيف يمكن إنقاذي الآن؟»

قالت سوربانكا «أنت السيد الأعظم لسبعة من العوالم، واقوى الأقوياء. لماذا تشعر بالحزن والتعاسة؟ اذهب وفز بها، هذا كل مـا في الأمر، نلها، فهي لك. هل هناك شيء ليس في متناول يديك؟ اسرع واترك حالة الكآبة هـذه. تقدم واخطفهـا لأنها لـك فقد خلقت لـك، وهي في انتظارك.» وهكذا نفثت روحاً جديدةً في رافانا، وجعلها ذلك سعيدة حيث ان خطتها للتخلص من سيتا كانت تسير على نحوٍ مرض ثم غادرت المكان.

شعر رافانا بالطمأنينة الآن، فاستجمع قواه كي يتخذ الخطـوات العملية لتحقيق هدفه، فأرسل بخدمه لاستدعاء مستشارية ووزرائه في

الحال. وبدون اي تأخير، بدأوا يتوافدون على ظهور الخيل والفيلة وبالمركبات الى المكان الذي اعتزل فيه راڤانا. واخذت الآلهة في السماء ترقب بقلق حركة المرور هذه، وتتكهن بما يخبئه هذا النشاط المفاجىء للكون. كانت مشورة راڤانا مع مستشاريه مختصرة، حيث أخذت شكل إعلان لهم عن قرارات سبق واتخذها. لقد كان يقدِّر، بطريقة ما، شكل الاستشارة. بعد ذلك استدعى مركبته وصعد إليها بمفرده، وطار الىٰ مكان منعزل حيث كان عمه ماريتشا يعتكف مستغرقاً في التأملْ في احد الكهوف. وكان ماريتشا قد قام بمحاولتين للهجوم على راما، وفشل في كليهما. كانت الأولىٰ في سيد اسراما كي ينتقم لموت أمه تاتكا، عندما القى به سهم راما بعيداً في البحر. وقام بمحاولة أخرى فيما بعد، وفشل في قتل راما. وتراجع بعدها الىٰ الغابة بعد ان تخلىٰ عن حياة العنف.

والآن شعر ماريتشا بالقلق لدى رؤيته راڤانا، ولكنه استقبله في لطف، وتساءل «ماذا يمكنني ان افعل لك؟»

قال راڤانا: «ذهني مبعثر وأمر بمرحلة من الخزي المطلق. ولاشك ان الآلهة ترقب ذلك وتبتهج له. ولكن لقد حلَّ عار عظيم بسلالتنا السامية، وعلينا ان نطأطأ رؤوسنا، ونزحف جانباً مثل الديدان التي لا كرامة لها، فلقد أقام انسان في داندا كا وتجرأ علىٰ تحدّي سيادتنا، وشوّه وجه أختي العزيزة، فابنة أخيك المحبوبة بلا أنف ولا أذن ولا ثدي الآن. لقد قطعهما عندما أقتربت من كوخه البائس.

كانت لدىٰ ماريتشا بالفعل فكرة عمن يكون هذا الانسان، وعندما سمع كلمة «راما» قال في الحال: «ابتعد عنه.» فشعر راڤانا بالانزعاج وقال: «لن ابتعد. أتقترح ان نرتعد أمامه؟»

١

«لاتدعنا نقترب منه.

قال راڤانا «حسن جداً، لن أقترب منه، ولكني سأختطف منه إمرأته واحتفظ بها لأنني، مهما كان، لا أريد أن أشغل نفسي بمعركة مع مجرد إنسان. ولكن يجب ان يلقّن درساً على وقاحته وعجرفته الطائشة والطريقة الأكيدة لإلحاق الأذى بانسان هي حرمانه من رفيقته.

صاح ماريتشا، الذى كان يبذل الآن قصارى جهوده كي يحيا حياةً جديدةً ويتحلىٰ بالقيم الاخلاقية والروحية: «ان اشتهاء إمرأة رجل آخر عمل لاأخلاقي..

قال راڤانا، الذى كانت مرحلته الأولىٰ من الكآبة البائسة تفسح المجال الآن لطيشه: «ليس منِ شأنها أن تصبح زوجةً له. كان يجب عليها أن تقابلني أولاً

كانت رؤية ماريتشا الراهنة لاتسمح له بقبول اقتراحات راڤانا في استسلام، فصاح: «لقد حلَّت عليك نعمة شيڤا، ومنحت المقام الرفيع والسلطة، فلا تنقص من قدر نفسك بمثل هذه المغامرات. ولا تضع نفسك في موضع القيل والقال في هذا العالم أو في العوالم الأخرى.

«وهكذا تريدني ألّا اكترث عندما ينزل الأذى بأختي وتهان! لستُ في حاجة إلىٰ نصيحتك. اريد فقط مساعدتك.

«بأية طريقة؟» تساءل ماريتشا وهو يشعر بانه يقترب من نهاية محاولاته الروحية، وربما من نهاية حياته ايضاً.

«عندي خطة لخطف تلك المرأة، ولك دور فيها.»

«هناك، داخل ذهني، نوع من دق الطبول التي تتردد معها رسالة بأنك تسعى نحو دمارك ونحو القضاء على سلالتنا.

فتساءل راڤانا في غضب: «كيف تجرؤ على ان تقلل من قوتي، وترفع من قدر ذلك المخلوق الذى لم يرحم أختى! إذا كنتُ أصبر عليك الآن فلأني مازلت اعاملك كعم ٍ لي.» فردّ عليه ماريتشا بالمثل: «وعلىٰ الأساس نفسه من العلاقة، أودّ ان تنقذ نفسك من الهلاك».

«إنك تنسى أنني هززت ذات مرة مقر شيڤا في جبل كيلاس ذاته، وان قوتي لاحد لها

«ولكن راما هو الذي كسر قوس شيڤا الى قطعتين، وقد كان في حجم جبل ميرو.»

تجهم راڤانا وقال. «مازلت تمتدحه.»

«هذا لأني شاهدته يدمر أمي وأخي سوباهو ورأيت ڤيسواميتـرا يمنحه كل القوى التي تحت إمرته، وهكذا فإن راما الآن يمتلك اسلحةً لايمكن قياس قوتها ولايحصر عدها، ويمكنه أن يواجه أي صدام وهو واثق من نفسه.»

«كفاك حماسةً. سوف أشطرك بسيفي لو تماديت، ثم انجز هدفي دون مساعدتك. هذا كل شيء.» كتم ماريتشا مشاعره وقال: «كنتُ افكر فقط في سعادتك التي هي همي الرئيسي. أريدك ان تحيا طويلاً وبسعادة.

سُرّ راڤانا لهذا، فوضع ذراعه على كتف ماريتشا وقال: «إنك طيب وقوي، ومنكباك عريضان ومرتفعان مثل الروابي. والآن اذهب واحضر سيتا اسرع. أمّا بالنسبة لنبوءتك، فإذا كان عليّ أن أموت من أجل ذلك، فليخترق سهم راما قلبي، فذلك أرحم من تلك السهام الصغيرة الغادرة من قوس إله الحب.»

«أخبرني بما يجب أن أفعله ماذا عليّ أن أفعل؟ في المرة التي قررت

فيها الانتقام لموت أمي وأخي، اقتربتُ، مع اثنين من رفاقي، من راما وانا على هيئة غزال ارقط، فقتل راما الاثنين الآخرين بسهم واحد، ونجوت انا بحياتي بشق الانفس. عندها تبنيت فكرة أخرى. والآن مرة أخرى، ماذا يبقى عليّ أن أفعله؟» واخذ ماريتشا يفكر في ابتئاس، وتوصل الىٰ ان من الأفضل له أن يقتله راما بدلاً من ابن أخيه الذي كان قد توعده حالاً

قال راڤانا: «عليك أن تختطفها بحيلة ما.»

أجاب ماريتشا: «قد يكون أكثر شهامةً وملاءمةً لشخص في منزلتك ان ينازل راما حول هذه المسألة، وان تأخذ سيتا جائزة لأنتصارك.

«أتـريدني أن أستخـدم جيشاً لأمسـك بذلـك المخلوق البشري؟ بإمكاني ان أضع حداً لإزعاجاته نهائياً بشكل حاسم، ولكني لا أريد اتخاذ تلك الخطوة، فقد تقتل المرأة نفسها إذا وجدت بعلها ميتاً، وذلك ماينزل الدمار بخطتنا.

أدرك ماريتشا ان خطته لوضع نهاية لحياة راڤانا لن تتحقق، ولم يكن هناك مخرج له، فاستسلم لقدره وقال: «نبئني ماذا أفعل.»

استعار راڤانا الفكرة من قصة ماريتشا ذاتها، واقترح عليه في حزم ودون ان يترك له الخيار: «اتخذ شكل غزال ذهبي واجذبها إليك، وسوف أتولىٰ أنا الباقي... إنها الطريقة الوحيدة للإمساك بها دون إلحاق الأذى بأي شخص.»

وافق ماريتشا قـائلاً: «بـلىٰ، سوف أذهب في هـذه اللحظة وانفـذ رغباتك.» ولكنه كان يدرك تماماً ما سيحل به فوراً وبراڤانا فيما بعد. ذهب ماريتشا في طريقه وهو يفكر في وجوم: «لقد نجوت مرتين من سهم راما، وهذه هي المرة الثالثة الآن، وسوف أهلك. أنني مثل سمكة في بركة

ماء مسمومة، وعليّ أن اموت عاجلاً أم آجلاً، سواء بقيت فيها أو خرجتُ منها.

ذهب ماريتشا الىٰ غابة داندا كا. وبالقرب من پانشڤاتي اتخذ شكل غزال ذهبي. وأخذ يسير في خيلاء أمام كوخ راما. ولفت تألقه انتباه غزلان أخرى، فاقتربت وأحاطت به. لاحظت ذلك سيتا التى كانت تتنزه في حديقتها، فعادت مسرعةً الىٰ الكوخ وناشدت راما: «عند بابنا حيوان جسمه من الذهب اللامع وأرجله محلّاة بالأحجار النفيسة. إنه مخلوق باهر الجمال. أرجوك أن تمسكه من أجلي.

كانت الأقدار تعمل عملها، وكانت هذه لحظة حاسمة في حياتهما. كان راما عادةً يناقشها في رغبتها، أمّا اليوم فقد وافق علىٰ طلبها متسرعاً، وقال في انشراح: «نعم، بالطبع سوف تحصلين عليه. أين هو؟» ونهض كي يخرج.

عند هذا تدخل لاكشمانا: «أنا لا أرغب في الاقتراب منه. ربما يكون مجرد وهم وضع أمامنا. إنه شيء غير مأمون. من سمع ابداً بحيوان صنع من الذهب والجواهر؟ إنها خدعة، لو كانت هناك أية خدعة علىٰ الاطلاق فلن تكن سوى هذه.

أجاب راما: «مخلوقات براهما عديدة ومتنوعة. ولايمكن لأحد القول بأنه يعرف كل مخلوقات هذه الأرض. كيف يمكنك أن تؤكد أن لا وجود لمثل هذا المخلوق الرائع؟»

قاطعتهما سيتا نافذة الصبر: «سيرحل الحيوان بينما تتناقشان. من فضلك، اخرج وشاهده بنفسك.»

خرج راما من الكوخ ورأى الحيوان، فقال: «انه مخلوق مدهش.

إبقي هنا، وسوف أحضره لك.»

قالت سيتا: «سأحتفظ به كحيواني المدلل، وسأعود به الى أيوديا عندما تنتهي فترة نفينا

حاول لاكشمانا مرة أخرى ان يوقف هذه المطاردة. ولكن راما لم يبالِ بحججه «ليس هناك ضرر من مطاردته. لو كان مخلوقاً شيطانياً في هذه الهيئة، فلسوف يكشف عن نفسه عندما تطلق عليه السهام. وإذا لم يكن فسوف نمسك به سليماً وستحصل سيتا بذلك على لعبة. في كلتا الحالتين لانستطيع ان نتجاهل وجوده.

«لايمكننا ان نطارده ونحن لانعرف من وضعه أمامنا. ان كان غير مؤذٍ، فمن الخطأ اصطياده. وعلى أية حال، من الأفضل ان نبتعد عنه. وعندما وجد راما مصراً على عناده، قال لاكشمانا: «أرجو ان تبقى هنا. وسوف أطارده أنا وأحاول ان اكشف عن حقيقته.»

ازداد اصرار سيتا وقالت في غضب: «أعرف أنك لن تمسك به ابداً، ثم استدارت وعادت الى الصومعة في انزعاج وغضب

شعر راما بالحزن لحدوث مثل هذا النقاش حول رغبة بريئة لزوجته التي ربطت قدرها بقدره بلا تذمر، فقال للاكشمانا: «دعني أذهب لأصطاده بنفسي واثناء ذلك، عليك ان تقوم بحراستها.»

أمسك راما بقوسه في وضع استعداد واقترب من الغزال الذهبي. لم يتقبل عقله كلمات لاكشمانا عن الحذر، بل كانت أصداء نداء سيتا الحزين تتردد في رأسه. وقرر فيما بينه وبين نفسه: «لسوف تناله، وعندئذٍ سوف تبتسم بالتأكيد مرة أخرى.» وبدأت المطاردة. كان الغزال ينتظر حتى يقترب منه، ثم يندفع كالسهم المرة تلو الأخرى. واثناء

المطاردة، لم يلحظ راما المسافة التي قطعها ولا الوقت الذي استغرقه ذلك، فقد اجتاز طرقاً في الغابة وممرات جبلية ووديانا في محاولته اللحاق بالغزال المراوغ. إصرار أعمى وتحدٍ، ومن ورائهما رغبة في ارضاء زوجته ـ كل هذا جعله يستمر في المطاردة بينما كان الحيوان الرائع يبتعد أكثر فأكثر.

وفجأة تكشف له انه يُخدع. كان لاكشمانا محقاً بالرغم من كل شيء. كان يجب عليه ألاّ يطيع زوجته بشكل أعمى. وبحركة آلية، أخرج سهماً بيده واطلقه على الحيوان. وفي ذات الوقت قام ماريتشا بمحاولة يائسة للهرب بعد ان حزر أفكار راما، ولكن محاولته جاءت متأخرة، واصاب سهم راما هدفه كالمعتاد. فصرخ ماريتشا، مقلداً صوت راما: «أوه، لاكشمانا! أوه، سيتا! أنقذوني..

بعد ان تخلص راما من ماريتشا بهذه الطريقة، عاد وهو يشعر بالقلق، فلربما سمعت سيتا صرخة ماريتشا. وفكّر: «سوف يساعدها لاكشمانا على ان تحزر ماحدث»، فقد كان معجباً بحكمة لاكشمانا وحسن ادراكه. ولكنه أسرع عائداً في اتجاه كوخه بعد أن أدرك انه ابتعد كثيراً عن پانشڤاتي.

عندما استمعت سيتا صرخة ماريتشا، قالت للاكشمانا: «لقد حلّ خطب مابزوجي. اذهب وساعده.

«لايمكن ان يصاب راما بأذى. تأكدي من ذلك. إن من تغلب على كل الشياطين في هذا العالم لن يصيبه الأذى من مجرد حيوان إذا كان حقاً حيواناً كما تظنين. لقد كان شيطاناً، وقد تم الآن القضاء عليه. كانت صرخة زائفة ومزعومة، تستهدفك بالتحديد.»

قالت: «ليس هذا وقت التفسير أو التخمين.» واثناء حديثها، سمعت الصرخة للمرة الثانية: «أوه، لاكشمانا! أوه، سيتا!» استولىٰ الرعب علىٰ سيتا وفقدت تماماً السيطرة علىٰ نفسها، فصاحت: «لاتقف هنا تتكلم! اذهب وانقذ راما!»

«يازوجة اخي المحترمة، إنه المنقذ ولايحتاج الى مساعدة من الآخرين. انتظري، واصبري قليلاً ولسوف ترينه أمامك، وعندها ستسخرين من مخاوفك.

لم تنصت سيتا لأي تفسير وراحت تردد: «اذهب، اذهب وانقذه! كيف يمكنك ان تبقى تتكلم! إنني مندهشة لهدوئك.» وبينما كان لاكشمانا يطلب منها أن تظل هادئة، إزدادت هي انفعالاً وبدأت تتحدث في غضب: «أنت الذي لم تفارقه ابداً منذ مولدك، والذى تبعته الىٰ الغابات ـ تقف هناك تثرثر معي في لحظة كهذه بدلاً من ان تسرع إليه. إن هذا ليبدو لي غريباً جداً جداً!»

مرة اخرى حاول لاكشمانا ان يطمئنها: «يبدو أنك لم تفهمي طبيعة راما ليس هناك قوة يمكنها ان تجعله يصيح طلباً للمساعدة. لو كان راما مهدداً حقيقةً لارتجف الكون كله والخليقة كلها وانهارا في الحال، لأنه ليس بمخلوق بشري عادي..

التمعت عينا سيتا بالغضب والأسى «لايليق بك ان تبقى معي هنا وتتحدث في برود بهذه الطريقة. غريب! غريب! من الواجب علىٰ اي شخص كان قريباً من زوجي، حتىٰ ولو للحظة قصيرة، ان يكون مستعداً للتضحية بحياته من اجله. ومع ذلك فانت، الذي ولدت وربيت معه وربطت ذاتك به في كل شيء ـ تقف هنا بلا حراك ولاتؤثر فيك صيحته طلباً

للمساعدة. إذا لم تكن تريد إنقاذه، فليس بإمكاني ان افعل اي شيء آخر او اطلب المساعدة من اي شخص آخر. الشيء الوحيد الذي يتبقى لي هو ان اشعل ناراً وألقي بنفسي إليها..

تألم لاكشمانا كثيراً لتلميحات سيتا وعدم ثقتها به. وفكّر مليّـاً في كلماتها وقال: «ليس هناك داعٍ لأن تنزلي الأذى بنفسك. انني ارتجف فقطلفحوى كلامك. سوف اطيعك الآن. لاتقلقي. ساذهب هذه اللحظة. لقد ترددت فقط لأن اوامرك تتعارض واوامر أخي. سأذهب ولتحمكِ الآلهة من أيّ اذى!»

واخذ يفكر: «إذا لم اذهب فسوف تقتل نفسها. وإذا ذهبت ستكون في خطر. افضل ان اموت علىٰ ان اواجه معضلةً كهذه... سأذهب وليحدث ماقُدّر له ان يحدث. يجب ان تحميها الدارما* فقط»وقال لسيتا: «إن جاتايو الأكبر هناك يرقبنا وسوف يسهر علىٰ حراستك

في اللحظة التي غادر فيها لاكشمانا، خرج راڤانا، الذي كان يراقبهما، من مخبئه. ووقف امام بوابة كوخ پانشڤاتي ونادى: «من هناك؟ هل يوجد أحد في الداخل ليرحب بناسك؟» كان يرتدي ثياب راهب نحيل مهزول الجسم، يحمل عصاً «وسلطانية» من الخشب للاستجداء. كان صوته يرتج كما لو كان شيخاً، وساقاه ترتعشان، بينما اخذ يصيح ثانيةً: «هل هناك من يعيش في هذا الكوخ؟»

فتحت سيتا الباب وشاهدت الرجل العجوز، فقالت: «مرحباً بك، ياسيدى، ماذا تريد؟»

---

* الدارما هي الفضيلة او السلوك القويم ـ المترجم

تملّك راقانا الارتباك بسبب المنظر الذى أمامه. دعته سيتا للدخول واجلسته، بينما امتلأ ذهنه بالف فكرة. «يجب ان تكون لي. ساجعلها ملكة على امبراطوريتي، واقضي بقية أيامي طوع بنانها. ساسعدها بمليون طريقة. لن أفعل اي شيء آخر في الحياة سوى الاستمتاع برفقتها   آه! إن اختي لمتبصَّرة ونافعة! ليست هناك أية مبالغة في وصفها إنها الكمال بكل معاني الكمال... كم هي طيبة اختي العزيزة لتفكيرها فيَّ عندما شاهدت هذا الملاك! سوف اكافىء أختي بان اجعلها ملكة على امبراطوريتي. سوف تحكم بدلاً مني، بينما أعيش في جنة هذه المرأة.» ونسى بالفعل انه كان ينوي ان يجعل من سيتا ملكةً على امبراطوريته.

وبينما كان ذهنه مشغولاً بهذه الخطط السـ ارة، كانت سيتا تستعلم منه «كيف تأتّىٰ لك ان توجد علىٰ طريق الغابة المقفر هذا ـ وفي مثل سنّك هذا؟ من أين اتيت؟»

تنبه من احلام يقظته ليجيب: «حسن، هناك شخص...» واخذ يعطي وصفاً تفصيلياً عن نفسه بضمير الغائب ـ «الأقوى في الخليقة، والمفضّل لدى الإله شيفا ذاته، ومن القوة بحيث يأمر الشمس والقمر بالدوران في مداريهما او خارجاً عنهما كما يحلو له. «يهرع كل الآلهة لخدمتهِ لدى أقّل إشارة منه، وكل الفتيات السماويات، اورڤازي وتيلوتاما والآخريات، على استعداد دائم لتدليك قدميه وربط حذائه. إنه اعظم من إندرا، ولامثيل لعاصمته، المدينة الفخمة. إنه يهيمن على كل قوى وثروات وامجاد هذا العالم. آلاف النساء ينتظرن وصاله في لهفة. ولكنه ينتظر ويبحث عن اكثر الجميلات كمالاً في الخليقة كلها. إنه عارف

وعادل ووسيم، لانظير له في القوة والشباب، ولقد بقيتُ في عظمة حضرته فترةً طويلةً، وأعود الآن الىٰ موطني من هذه الطريق.

«لماذا يختار شخص قديس مثلك أن يعيش في بلاد الشياطين تلك، تاركاً المدن حيث يوجد رجال طيبون، والغابة حيث يعيش الحكماء؟»

«إنهم اناس طيبون، غير مؤذيين او قساة مثل الآلهة المزعومة، فلقد شوِّهت الحقائق عن عشيرة الراكشـاسا* وأسيء فهمهم. إنهم كـرماء ومستنيرون، ويخلصون بشكل خاص للنسّاك من أمثالي.

قالت سيتا في سذاجة: «أولئك الذين يعيشون وسط الشياطين من السهل ان يصبحوا شياطين ايضاً.

قال راڤانا: «من الممكن للشياطين ان يكونوا مخلصين لمن يخلص لهم. وحيث أنهم الأقوى في كل العوالم، فما احكم من العيش في تآلفٍ معهم؟»

قالت سيتا: «ولكن أيامهم معدودة، فرسالـة زوجي في الحياة هي تخليص هذا العالم منهم وإقامة السلام علىٰ الأرض.

«ليس هناك من مخلوق بشري يجرؤ علىٰ فعل ذلك. إنــه مثل أرنب صغير يأمل في تدمير قطيع من الفيلة.»

«ولكن ألم تسمــع كيف تغلب زوجي علىٰ كـارا ودوشانـا وڤـيرادا والآخرين بمفرده؟»

«كان كارا وڤيرادا والآخرون كائنات ضعيفة وهم لايمتلكون اقواساً ولا دروعاً ـ فلم تكن هزيمتهم أمراً عسيراً. انتظري حتىٰ ترين، كما سترين حالاً، ماذا سيحل به عندما يستوجب عليه لقاء راڤانا الجبّار ذي

---

* الراكشاسا: الشياطين

العشرين منكباً!»

«وماذا لو كان له عشرون منكباً؟ الم يحدث ذات مرة ان قام رجل بمنكبين فقط مثل پاراسوراما بحبس راڤانا حتى صرخ طالباً الرحمة؟»

استشاط راڤانا غضباً من هذه المقولة، واحتقنت عيناه من الغضب، وأخذ يصّر على اسنانه. وبالتدريج أخذ يفقد مظهره الكاذب كقديس. وعندما لاحظت سيتا هذا التغيير، بدأت تشعر بالحيرة. وفي الحال ظهر لها بشكل مخيف في هيئتهِ الطبيعية. ولم تعد لدى سيتا الشجاعة بان تنبس بأية كلمة.

قال راڤانا: «كان من الممكن ان اسحقك وآكلك لمقولتك الغبية، لولا انك إمرأة وأنني ارغب فيك، وساموت لو لم أُنلك. اوه، ياشبيهة البجعة، إن رؤوسي العشرة لم تطأطىء ابداً لأى إله في أي عالم. ولكني ساخلع تيجاني والمس قدميك بجبيني. فقط صيري مليكتي ومري ماذا افعل.»

غطّت سيتا اذنيها بيديها «كيف تجرؤ على الحديث هكذا! إنني لاأخشى ان افقد حياتي، ولكن إذا رغبت في إنقاذ حياتك، فاسرع واختبىء قبل ان يراك راما.

قال راڤانا: «لايمكن لسهام راما ان تلمسني. فبإمكانكِ ان تتوقعي ايضاً ان ينقسم جبل بلمسة من قشة. اشفقي عليّ، فإنني اموت رغبةً في حبك. وسوف اعطيك مكانةً اعظم ممّا تنالها أية إلهة. راعي مشاعري وكوني رحيمة. إنني اسجد أمامك.»

وعندما انكّب راڤانا على الأرض، تراجعت سيتا وبدأت تبكي بصوت مرتفع: «اوه، يازوجي! ويا أخي لاكشمانا، احضرا وساعداني.»

عند هذا تذكر راڤانا لعنةً قديمة بانه إذا لمس اية امرأة دون

موافقتها، فسيموت في الحال، فحفر الارض تحت قدمي سيتا ورفعها معها، ثم وضعها في مركبته وانطلق بعيداً

اصيبت سيتا بالاغماء ثم افاقت. حاولت يائسةً ان تقفز من المركبة، ثم بكت وناحت وناشدت الاشجار والطيور والحيوانات وجنيّات الغابة، تستشهد بها، كي تخبر بمأزقها، واخيراً اخذت تلعن راڤانا كشخص جبان ومخادع، اتخذ وسائل خسيسة فقط لخوفه من راما، وإلّا فلمَ لم يواجه راما ويحاربه؟ اعتبر راڤانا كلماتها مجرد نكتة عظيمة واخذ يسخر منها: «إنك تُقدّرين راما تقديراً عالياً جداً، ولكني لا اقدّره. إنني لااهتم بان احاربه لأن مواجهة مجرد مخلوق بشري يقلل من كرامتنا

«آه، نعم، تخجل طبقتك من ان تتبارى مع البشر، ولكن من الممكن لك ان تشتهي إمرأة لاحول لها، وان تهاجمها في خسّة. اعتقد ان هذا إنجاز ممتاز! إن الشياطين المتحجرة القلوب من أمثالك لاتعرف الخطأ من الصواب. إذا كانت لديك الشجاعة علىٰ مواجهة زوجي، اوقف مركبتك في الحال، ولاتبتعد بها اكثر من ذلك.»

كان كل ذلك مجرد لهو بالنسبة لراڤانا الذي أخذ يضحك ويمزح ويهزل بشكل طائش. وفي هذه اللحظة شعر بشيء مايسدّ عليه مجرى طيرانه. كان جاتايو، النسر الضخم الذي وعد بحراسة اطفال زميله وصديقه القديم داساراتا، قد لاحظ ماحلّ بسيتا، فصاح متحدياً واعترض طريق راڤانا، والقى بنفسه وبكل قوته علىٰ راڤانا وكان ذلك كما لو ان جبلاً قد ارتطم بالمركبة المسرعة. وقبل ان تبدأ المعركة، ناشد جاتايو راڤانا ان يعود ادراجه ويُرجع سيتا إلىٰ پانشڤاتي. وقال: «ليس عليك حتىٰ ان تعود، فقط قف وانزلها، وسوف اعود بها في أمان الىٰ

زوجها، ويمكنك ان تهرب قبل ان يعود راما.

سخر راڤانا من هذا الاقتراح وقال: «إغرب عن طريقي، ايها الطائر الخرف، واذهب بعيداً.»

نصحه جاتايو: «لاتسعَ وراء حتفك ودمار عشيرتك وطبقتك وقبيلتك كلها. إن سهام راما ستضع حداً لحياتك، لاتشك في ذلك.»

فأمره راڤانا: «توقف عن هذا اللغو. دع كل هؤلاء الأبطال الذين تتحدث عنهم يأتوا. احضرهم جميعاً ولسوف اتولىٰ أمرهم. ومهما يحدث، فلن اتنازل عن هذا الكنز الذي حصلت عليه.. ستذهب هي معي.»

انتاب سيتا اليأس وانفجرت باكيةً، فقال جاتايو: «لاتخافي، فلن يصيبك أذىٰ. سوف أدمر هذا الشيطان، ولاتقلقي ابداً» ـ وبدأ هجومه. فاحدثت رفرفة جناحيه الهائلين عاصفةً هزّت وشلّت حركة كلٍ من راڤانا ومركبته، ثم اخذ يضرب بكل جسمه ويمزق بمنقاره ومخالبه في قوة حتى ان راية راڤانا، وعليها رمز آلة الڤينا الموسيقية*، مُزِّقت، وتحطمت سارية العلم الى اجزاء صغيرة، وتطايرت تيجانه وسقطت علىٰ الأرض، وتمزقت ظُلته الملكية وتحطمت المركبة، تفاداه راڤانا وضربه واستخدم كل الأسلحة التي يمتلكها، ولكن جاتايو استمر في هجومٍ لاهوادة فيه.

حاول راڤانا، الىٰ حدٍ معين، ان يُبعد جاتايو عنه. واخيراً ازداد غضبه واستلّ سيفاً خاصاً (سيفاً لايخطىء اهداه إياه شيڤا) يُطلق عليه «تشاندراهاسا». وبعد ان لوّح بالسيف ودار دورتين، عاجل جاتايو بضربة أخيرة قطعت جناحيه الهائلين واخترقت حلقه. تمالك راڤانا

---

* عُرف راڤانا بأنه عازف ماهر علىٰ آلة الڤينا الموسيقية.

نفسه، بعد سقوط جاتايو، فهجر مركبته ووضع سيتا، وقطعة الارض اسفلها، على كتفه. ومارس قدرته علىٰ الطيران في الهواء حاملاً إيّاها الىٰ لانكا.

وفي ذات الوقت، وبجهدٍ وعزم، حافظ جاتايو علىٰ نفسه حياً الىٰ ان مرّ به راما ولاكشمانا اللذان كانا يبحثان عن سيتا. فاعطاهما جاتايو، وهو يحتضر، وصفاً لما رآه وقال لراما: «لاتيأس، فسوف تنجح في النهاية.» فسأله راما في قلق: «في اي اتجاه ذهبا؟» ولكن جاتايو قضىٰ نحبه قبل أن يتمكن من الإجابة.

الفصل السادس

ثالي

يخطو الرجل الكامل خطوةً خاطئةً، وبجلاء يرتكب هفوةً اخلاقية، ونقف نحن البشر الفانين حائرين امام الحدث. وقد يكون هذا الفعل، أقل خطأً في الواقع، مما كان يصوره قصور فهمنا في الفهم من جانبنا. وإذا قيس ذلك الحدث بالنسبة للأبدية، فربما يبدو بشكل مختلف. ولكن حتى نحصل على سعة الأفق تلك، ربما شعرنا بالأضطراب والشك في الفعل. كان راما رجلاً مثالياً، يسيطر على كل قدراته في كل الظروف، وشخصاً يتملكه احساس لاتردد فيه بالعدالة والحركة والفعل الحق. ولكنه ذات مرة تصرف، وكما يبدو، بدافع من التحيز والمعرفة الناقصة وفي تسرع، فقتل ودمّر من مخبئهِ مخلوقاً لم يُنزل به أي اذىً ولاحتى شاهده. وهذا احد اكثر فصول الرامايانا إثارةً للجدل.

شخصيات الدراما التالية هم ڤالي وسوغريڤا وهانومان وراما. وتقع الأحداث في مناطق الغابات الجبلية في كيسكيندا، وهي مملكة تسكنها وتحكمها القردة. فالمشاركون في احداث الرامايانا ليسوا من البشر فقط،

بل هناك آخرون كثيرون من خليقة الله، اذكياء ومثقفون ولهم إنجازاتهم الروحية والجسدية الخاصة: فكان جامباڤان دبـاً، وجاتـايو نسـراً، ولاكشمانا ذاته ـ اخوراما ـ كان تجسيداً بشرياً للحيّة العظيمة اديسشا التي كان ڤيشنو يستريح بين طيات جسمهـا ومهما كـان شكلهم او هيئتهم، كان مظهرهم الجسدي، عندمـا يتكلمون او يتصرفـون، غير ملحوظ.

كانت كيسكيندا يسكنها ويحكمها مـايمكن تسميته، بشكـل عام، بجنس القرود، ولكنها كانت كائنات ذات ذكاء وقدرة على الحديث غير عاديين، وذات قوة لاحدّ لها، ونبل. وكانت ذات اصل إلهي ايضاً

في بحثه اليائس عن سيتـا، رحل رامـا إلىٰ الجنوب، وعبـر حدود كيسكندا وعلىٰ الرغم من انه كان تجسيداً لڤيشنو، الإله الاسمى، في هيئة بشرية، كما رأينا، إلا انه كان يخضع لمقاييس العجز البشري في الفهم واليأس الذي ينبع من ذلك. وأخذ يقتفي أثر سيتا بما كان يسمعه من إشاعات وتلميحات، فوصل ولاكشمانا إلىٰ حدود كيسكيندا ولكن دخولهم إليها لم يكن غـير ملحوظ. كـان هانـومان رفيقـاً ومساعـداً لسوغريڤا، حاكم عشيرة القردة، وسيحل محله فيما بعد في الرامايانا كشخصية رئيسـة. شاهد هانومان، الذي كان يرقب الدخلاء، رامـا ولاكشمانا بعيداً علىٰ الطريق الجبلي، فاتخذ لنفسه هيئة عـالم شاب، ونزل واختبأ خلف شجرة تقع في طريقهم. وعندما اقتربوا، راقبهم عن كثب وتفكر في دخيلة نفسه: «يالها من هيئة نبيلة! من هما؟ إنهما يرتديان لحاء الشجر، وشعـرهما مجـدول ومعقود. إنهمـا ناسكـان. ولكنهما يحملان اقواسـاً ضخمة عـلى كتفيهما. هـل هما نـاسكان مسلحـان

كمحاربين ام محاربان يرتديان ملابس النسّاك؟ ولكنهما يشبهان ـ من؟ يبدو انهما مخلوقان لاشبيه لهما؟ ليس هناك طريقة للحكم عليهما عن طريق المقارنة. هل هما إلهان؟ ـ ولكنهما يبدوان كالبشر.» لم يستطع هانومان ان يتمالك نفسه، فتقدم نحوهما واعلن: «انا ابن ڤايو وانجانا، وأدعىٰ أنجاينيا (اوهـانومـان). واخدم زعيمي سـوغريڤـا، ابن إله الشمس. وارحب بكما في مملكتنا نيابةً عنه».

همس راما إلىٰ أخيه: «لايخدعنك مظهره. إنه يبدو كعالم شاب، ولكن لابد انه يمتلك قوة عظيمة!» ثم قال: «من فضلك، إرشدنا إلىٰ زعيمك.

والآن سأل هانـومان: «من اللـذان سأحظى بشرف الاعـلان عن قدومهما؟» وبينما تمهّل رامـا، تدخـل لاكشمانـا ليقول: «إننـا ابناء داساراتا ملك أيوديا الراحل» وقصّ باختصار تاريخهما واوضح سبب وجودهما هنا بدلاً من تواجدهما في القصر بالعاصمة. وعندما استمع إلىٰ القصة، القى أنجاينيا بنفسه عند قدمي راما. فقال راما: «لا، انت رجل علم، وانا لست إلّا محارباً، ويجب عليك ألّا تلمس قدمي.» عندها قال هانومان (او أنجاينيا): «لقد تنكرت في هيئة عالم فقط بهدف الظهـور أمامكما»، واستعاد قوامه الحقيقي علىٰ هيئة قرد ضخم، ثم تـركهما ليعود فيما بعد في رفقة سوغريڤا.

ولدى رؤيته لسوغريڤا لأول مرة، شعر راما بشفقة غريزية، كما شعر بان هذا لقاء بالغ الأهمية، ونقطـة تحولٍ في حيـاته. وعنـدما شعـر سوغريڤا بموقفه الوديّ انتهز هذه الفرصة كي يذكر الصعوبات التي يلقاها بشكل عام. «إنني اعاني من النفي والحرمان دون اي خطأ مني.

«هل فقدت وطنك وانفصلت عنك زوجتك؟» عندما وُجِّه إليه هذا السؤال، ظلّ سوغريڤا، الذي تغلبت عليه عواطفه، صامتاً. وهنا نهض هانومان وقص قصته.

قصة سوغريڤا

بَبركة ونعمة شيڤا، كان هناك شحص يمتلك قوةً لاحد لها، واسمه ڤالي، اخو سوغريڤا هذا. وفي الأزمنة القديمة، عندما حاول الآلهة والشياطين ان يمخضوا مياه المحيط بعنف كي يحصلوا على الرحيق الإلهي، مستخدمين جبل ميرو كقضيب للمخض، لم يتمكنوا من ان يحركوا المخض. وبناءً على مناشدة الآلهة له، نحّى ڤالي كل الاشخاص جانباً، وادار المخض حتىٰ حصلوا علىٰ الرحيق الذي اخذت الآلهة في إلتهامه، والذي منحهم التحرر من الموت. وكوفىء ڤالي، على هذه الخدمة، بقوة غير محدودةِ. واصبحت له طاقة اكبر من عناصر الطبيعة الخمسة، وبخطوة واحدة كان بإمكانه ان يعبر المحيطات السبعة ويصل الىٰ جبل تشاروڤلا فيما وراء البحار. وايضاً وهب هذا الامتياز الخاص: فكل من اقترب منه كي يحاربه، كان يفقد نصف قوته لحساب ڤالي، والذى كانت قوته علىٰ القتال تزداد بذلك.

وفي كل يوم كان ڤالي يزور كل الجهات الثماني، وتعبد إلىٰ شيڤا في كل مظاهره. وعندما كان يتحرك، كان اسرع من العاصفة. لم يكن بإمكان اية حربة أن تخترق صدره. وعندما كان يسير على الارض، كانت الجبال

تهتز، وسحب العاصفة تتفرق وتتبدد لدىٰ اقترابه خوفاً من أن تتسبب في اسقاط المطر. كانت الطبيعة كلها تهابه، حتىٰ ياما كان يخشى الأقتراب من المكان الذي كان يعسكر فيه ڤالي مع جيوشه. كان البـرق يخفض صوته، والأسود والحيوانات الأخرى المتوحشة تمتنـع عن الزئـير في حضرته، حتى الريح كانت تخشى ان تسقط اوراق الشجر. وقد دفع ذات مرة براڤانا ذي العشرة رؤوس جانباً وربطه بذيله.

كان ڤالي اكبـر سناً من ســوغريڤـا، ويمتلك تـألق البدر ومظهـره الهادىء، له السلطة العليا وسلطـانه لاينـازع مثل يـاما ذاتـه. كان سوغريڤا يلي مليكنا في السلطة. كناّ جميعاً سعداء في ظل حكمه. ثم ظهر وسطنا شيطان يُدعى مياڤي ـ ذو أنياب بارزة وملامح غريبة ـ ولكي يدمر وجودنا كله، تحدى ڤالي. وفي اللحظة التي نهض فيها ڤالي كي يحاربه، ادرك مياڤي انه تهوّر، فانسحب فجأة وهرب الىٰ ماوراء حافـة العالم واختبأ في ممر تحت الارض. فطارده ڤالي الىٰ هناك، مصمماً علىٰ القضاء عليه.

في غمرة انفعاله بالمطاردة، رحل ڤالي، ولكنه توقف للحظة قصيرة كي يخبر سوغريڤا، قبل اختفائه في العالم السفلي: «إبقَ هنا وراقب كل شيء الىٰ حين عودتي». ومرت ثمانية وعشرون شهراً، ولم يظهر اي أثر لڤالي، ولا اية اخبار عنه. فقرر سوغريڤا، من فرط ذهوله، ان يذهب الىٰ النفق بحثاً عن أخيه، إلّا ان مستشاريه وكبار المحيطين به اقنعوه بالتخلي عن فكرته، وقالوا له انه لايمكنه أن يتخلىٰ عن مسئوليته ويصبح حاكمـاً لكيسكندا، حيث لابد من التسليم بوفاة ڤالي. ودفعوا بكل الجبال الىٰ فتحة الكهف حتى يمنعوا، كما كانوا يخشون، عودة مياڤي المحتملة كي

يهاجم سوغريڤا ايضاً ووضعوا مجموعة دائمة من الحرّاس لمراقبة ذلك المدخل المسدود، ونصّبوا سوغريڤا حاكماً على كيسكندا

ولكن وبعد فترة وجيزة خرج ـ ڤالي، وليس مياڤي. كان ڤالي قد قضى على مياڤي في النهاية، وخرج الآن منتصراً فحاول المخرج الوحيد ووجده مسدوداً بجبال متراكمة، فاثار ذلك غضبه حيث اعتقد ان سوغريڤا كان يحاول ان يحبسه تحت الارض. فركل العائق جانباً وخرج كالإعصار. ووصل الىٰ كيسكندا، فنهض سوغريڤا ليرحب به ويعبّر عن فرحته لرؤيته يعود. ولكن ڤالي لم يدع له فرصةً ليتحدث، وراح يهدر: «هكذا كنت تعتقد ان بإمكانك ان تدفني؟» وهجم علىٰ أخيه يلكمه ويضربه في عنف وفي حضور كل رجال البلاط وكبار الرسميين. لم يتمكن سوغريڤا من ان يسمعه كلماته، ولم يحتمل قوة هجومه. حاول ان يتكلم ويشرح له، إلّا انه لم يحقق تقدماً كبيراً، رغم انه بدأ عدة مرات يقول: «المستشارون والكبار..

امسك ڤالي بسوغريڤا وحاول أن يهشمه على إحدى الصخور. لكن سوغريڤا نجح في الإفلات من بين يديه، وهرب. لكن اخاه طارده بلا رحمة، حتى وصل، بإيحاء إلهي، إلىٰ هذا الجبل، المسمّى جبل متانجا، الذي لايجرؤ ڤالي على ان يطأه. فقد انزل الحكيم متانجا اللعنة على ڤالي لسوء سلوكه إنه متما وطأت قدما ڤالي هذا الجبل، فسوف تنفجر جمجمته اشلاءً، ولن يكون هناك مفعول لأيٍ من الحصانات الممنوحة له. وهكذا لجأ سوغريڤا الىٰ هنا.

ولكن ڤالي اقسم على ان يقتله في اللحظة التي يخرج فيها من هنا وعندما عاد ڤالي، لم يستأنف سلطاته (التي لم يفقدها في الحقيقة)

كحاكم على المملكة فحسب، ولكنه استولىٰ ايضاً، وبالقوة، عـلى زوجة سوغريڤا وجعلها ملكاً له، والآن ليس لسوغريڤا موطن أو زوجة.

تأثر راما لهذه القصة وامتلأ شفقةً على سوغريڤا، فوعده: «سوف اساعدك، فاخبرني بما تريد.»

انتحى سوغريڤا جانبـاً بهانـومان وسـأله: «مـاذا تظن بعرضـه للمساعدة؟».

اجاب هانومان: «ليس لدى أدنى شك في ان بإمكان هذا الشخص ان يتغلب على ڤالي. ورغم انه لم يكشف بعد عن حقيقته، إلاّ انني اشعر شعوراً غامضاً بهويته. لايمكن ان يكون اي شخص آخر سوى ڤيشنو ذاته. وقد لاحظت ان في راحة يده علامة المحارة وقرص الشمس، كما انه لم يكن في استطاعة احد سوى ڤيشنو ان يثني قوس شيڤا ويكسره، ولم يكن. بإمكان احد سواه الهجوم على تاتكا وابنائها او إعادة اهاليا الىٰ الحياة من كيانها الحجري. واكثر من ذلك كله، فإن صوتي الداخـلي يخبرني بهويته. فعندما كنت صغيراً، قال لي أبي ڤايو باغوان: «سوف تكرّس حياتك لخدمة ڤيشنو».

«فسألته: كيف ساتعرف عليه؟، وأجابني: ستجـده حيثما يتفشّى الشر ـ ساعياً وراء تدميره. وايضاً، عندما تقابله ستمتلىء حباً، ولن تقدر على الابتعاد عن مكان وجوده، والآن اشعر بأنني مشدود بقوة غامضة الىٰ هذا الزائر. لست اشك في ماهيته، ولكن إذا كنت ترغب في اختبار قوة سهمه، فاطلب منه ان يطلقه علىٰ جذع إحدىٰ هذه الاشجار، فإذا ثقبها الرمح واخترقها، فلك ان تأخذ ذلك على ان بإمكـانه ان يطلق سهمـاً يخترق قلب ڤالي».

وعادا الىٰ راما. وناشد سوغريڤا راما ان يثبت لهما قدرته على الرمي بالسهام. فقال راما مبتسماً: «نعم، إذا كان ذلك سيساعدك. أرني الاشجار». فأخذاه حيث كانت توجد سبعة اشجار في صف واحد. كانت اشجاراً ضخمة واكثر قدماً من الڤيدا* وبقيت حيّة بعد فناء الكون لأربع مرات. تلامس فروعها السماوات. ولايستطيع احد، ولاحتى براهما، ان يقيس المسافة بين اعلىٰ نقطة في هذه الاشجار واسفلها. وقف راما أمام الاشجار السبع، وأخذ يلمس وتر قوسه، وتردد الرنين في كل التلال والوديان. ثم اخرج راما سهماً واطلقه، فاخترق ليس فقط جذوع الاشجار السبع بل وايضاً العوالم السبعة والبحار السبعة وكل الأشياء التي تعد بسبعة، ثم عاد الىٰ نقطة إنطلاقه في الكنانة غمر الأرتباك سوغريڤا لهذا البرهان، وطأطأ رأسه في تواضع، واقتنع الآن بأنه في حضرة منقذ.

على قمة هذا الجبل، لاحظ راما وجود كومةٍ من العظام البيضاء، فسأل سوغريڤا: «ماهذا؟» فقصَّ سوغريڤا القصة عليه.

حكاية داندابي

هذه عظام وحش هائل يُدعى داندابي. كان شيطاناً قوياً على هيئة جاموسة، ذهب الىٰ ڤيشنو وقال: «أريد ان احاربك». فأشار عليه ڤيشنو

* كتب الهندوس الدينية الأربعة.

بالتوجه الىٰ شيڤا كشخص مناسب لمعركة كهذه. ذهب داندابي الىٰ جبل كيلاس وحاول ان يرفعه بقرنه. فظهر شيڤا أمامه وسـألـه: «إنـك تـهز أساسنا. ماذا تريد؟» قال داندابي «اريد ان اظل احارب الىٰ الأبد. ارجوك، امنحني تلك القوة». فوجّهه شيڤا الىٰ زعيم الآلهة كلها، إندرا، الذي قال له «انزل الىٰ الارض وقابل ڤالي. إنه الوحيد الذى بإمكانه ان يحقق لك طموحك».

تقبل داندابي هذه النصيحة فنزل، وحاول تدمير كل هذا الجانب من الأرض، وهو يطلق أقذع التحديات الموجهة الىٰ ڤـالي، فـهاجمـه ڤالي. واستمر قتالهم مدة سنة دون توقف. واخيراً انتزع ڤالي قرن داندابي من رأسه، فنزف حتى الموت. ثم رفعه من رقبته وأخذ يدور به، وقذف به عالياً في الهواء، فطارت الجثة في السماء وسقطت على هذه البقعة، حيث كان الحكيم متانجا يؤدي بعض الطقوس المقدسة. فرحل الحكيم بعد ان لعن ڤالي لتدنيسه ارض صلواته.

أمر راما لاكشمانا قائلاً: «ادفع بهذه العظام بعيداً»، فركل لاكشمانا الكومة كلها بعيداً عن مرمى البصر، واعاد للمكان قدسيته الاولى.

والآن قال سوغريڤا «عليَّ ان اخبرك بهذا منذ فترة طويلـة رأينا راڤانا يحمل سيتا عنوةً في السماء. وقد لفتت صيحاتها انتباهنا وبينما كنا ننظر الىٰ اعلىٰ، حزمت مجوهراتها والقت بها، ربما لتشير الىٰ الطريق الذي مرّت به» ـ ووضع سوغريڤا حزمة المجوهرات امام راما، الذي اصابه الحزن لدى رؤيته لها اغرورقت عيناه بالدموع وأغمى عليه. فاعاده سوغريڤا الى وعيه، ووعده: «لن استريح حتى اعرف مكـانها وأعيدها إليك».

حزن راما لأنه لم يسهر على حماية زوجته ـ وقد ذكّرته الحلىّ مراراً وتكراراً بهفوته. «حتى الشخص الغريب، عندما يرى إمرأة بائسة تُهان او يُساء معاملتها، يضحي بحياته كي ينقذها. ولكني فشلت في حماية زوجتي التي وثقت بي بشكل مطلق، وتبعتني الى البرّية. لقد قصرّتُ نحوها بشكل مفجع». وهكذا اخذ ينتحب وقد اصابه الاغماء المرة تلو الأخرى.

عندئذٍ تحدث اليه سوغريڤا وهانومان بكلمات مشجعة. وكان شيئاً مؤثراً ان ترى محارباً ومنقذاً في مثل هذه الحالة من الأسى. وقد وضع سوغريڤا وهانومان خطةً مفصلةً لإقتفاء أثر سيتا واستعادتها. وفي الحال تحولت المناقشات الى مجلس حرب، وخططوا كيف ينطلقون للبحث والّا يرتاحوا حتى يعثروا على سيتا. واخذ راما ينتحب: «اوه، يالقصور التجسد البشري الذي يمنع على المرء بُعد النظر كي يعرف أين وفي اي ركن من العالم او السموات يحتفظ هذا الوحش بسيتا».

عند هذا تحدث هانومان بطريقة عملية: «اول شيء هو ان نتغلب على ڤالي يجب ان نثبَت سوغريڤا بشكل نهائي على عرشه. بعد ذلك يمكننا ان نجمع جيشنا، فنحن في حاجة الى جيش كبير لهذه المهمة، حيث علينا ان نفتش، وفي ذات الوقت، كل زاوية وركن، وان نهاجم ونهزم عدونا قبل إنقاذ السيدة النبيلة. وهكذا فأول شيء نفعله هو التغلب على ڤالي. هيا ننطلق».

وانطلقوا عبر غابات وجبال يفوح فيها عبير خشب الصندل والأشجار الأخرى، ووصلوا الى جبل كيسكندا، فقال راما لسوغريڤا: «سوف تتقدم انت وحدك وتدعو ڤالي الى النزال. وسأتنحى انا جانباً

حتى لايراني واطلق سهمي عليه في اللحظة المناسبة». اصبح سوغريڤا الآن يثق ثقةً كاملةً براما، فسار الىٰ أعلىٰ التل وصاح: «اوه، ياأخي ڤالي، تعال وواجهني الآن في معركة إن كنت تجرؤ».

ترددت هذه الكلمات في الغابات الصامتة ودخلت الىٰ أذن ڤالي اليمنى بينما كان نائماً. فانتصب ڤالي وضحك عالياً. ونهض في قوة حتىٰ ان قاعدة الجبل اهتزت. قدحت عيناه بالشرر واخذ يصرّ علىٰ أسنانه غضباً، وضرب في قوة علىٰ فخذه، وصفّق بيديه، وتردد صدى الصوت الذي احدثه في الوديان. وصاح ڤالي ناهضاً من فراشه: «نعم، نعم، انني قادم». تردد صوته كالرعد في السموات، وانقطعت الحليّ من حول رقبته وتبعثرت الجواهر.

في تلك اللحظة تدخلت زوجته تارا وناشدته: «ارجوك، لاتخرج الآن. لابد ان هناك سبباً غير عادي لسلوك أخيك بهذه الطريقة».

صاح ڤالي: «اوه، يازوجتي، افسحي لي الطريق الآن. سوغريڤا مجرد مجنون بسبب اليأس والوحدة. هذا كل شيء. ليس هناك شيء خطير كما تخشين سوف ترينني اعود بعد لحظة، بعد ان اشرب دم أخي هذا».

«إنه لم يكن ليجرؤ على ان يعترض طريقك، لكني اخشى الآن انه لابد وان لديه مساندة قوية تشجعه على ان يتحداك. لهذا كن حذراً».

«يازوجتي العزيزة، لو قاومتني كل المخلوقات في كل العوالم، فبامكاني ان اواجهها وادمرها. انك تعرفين ذلك جيداً انت التي تمتلكين رشاقة الطاووس وصوت العندليب، استمعي، أنسيتِ ان كل من يتحداني يعطيني نصف قوته ـ كيف يمكن لشخص ان يهرب مني؟

إنه مجرد مخلوق احمق، ذلك الذي يقدم المساندة لأخي».

والآن قالت تارا في هدوء: «اخبرني بعض الأشخاص الذين يهتمون برفاهيتنا باشاعة مفادها ان شخصاً يدعى راما انتقل الىٰ هذه المنطقة، وهو حليف سوغريڤا ويحمل قوساً لاتقهر، وقد اعطى ذلك أملاً جديداً لسوغريڤا».

«أوه، ايتها المخلوقة الغبية، إنك تتنكرين لذكاء المرأة وتكشفينه عن لسان يردد الإشاعات، وتنطقين بالتجديف الذي بسببه كنت اقتل اي شخص آخر. ولكني اعفو عنك. لقد ارتكبت خطأً فاحشاً في الحكم والحديث. اعرف عن راما ـ اكثر مما تعرفين، فلدي مصادر معرفتي الخاصة بما يدور في العالم الخارجي، سمعت عن راما كشخص يمتلك الكمال والاحساس بالعدالة، ولايمكن له ابداً ان يتخذ خطوةً خاطئةً كيف يمكنك ان تتخيلي أبداً ان شخصاً كهذا يمكن ان ينحاز في شجار بين أخوين؟ هل تعرفين انه تنازل عن حقه في العرش وتحمل كفارة حياة الغابة، كل ذلك لأنه اراد ان يرى وعود والده القديمة تتحقق؟ وبدلاً من ان تنطقي اسمه باحترام، كيف شوهت سمعته؟ حتىٰ لوقاومته كل العوامل، فليس بحاجة الىٰ اية قوة سوى قوسه العظيم «كوداندا». أيحسب حساباً لمساندة قرد بائس مثل سوغريڤا ـ حتىٰ لو أفترضتِ انه يتوقع إنقاذ زوجته بمساعدةٍ من سوغريڤا؟ أيمكن لشخص وهب حقه الطبيعي الىٰ شقيق اصغر ان يستخدم براعته الفائقة وينحاز الى احد الجانبين في نزاع عائلي بين غرباء؟ ابقي هنا ياحبيبتي، ولاتتحركي. وسأعود في طرفة عين بعد ان اتخلص من ذلك المزعج المدعو سوغريڤا».

، خشيت تارا من ان تعارض زوجها اكثر من ذلك، فتنحّت جانباً لتدعه

يمر. اما هو فقد انتفخ رغبةً في القتال، وبدا شكله ضِعْفَ ما كان عليه، وانزل الرعب بكل من شاهده. وبينما كان ڤالي يسير في المنطقة الىٰ جانب الجبل، وينطق بالتحديات والصيحات المتنوعة، توقفت كل المخلوقات التي سمعته واصابها الذهول والصمم.

وعندما شاهد راما قوام ڤالي، همس لأخيه لاكشمانا: «هـل هناك مشهد للقوة يشبه هذا في الكون كله، حتىٰ لو ادخلت في اعتبارك كـل الآلهة والشياطين وعناصر الطبيعة؟»

وكان لدى لاكشمانا شكوكه: «لست متأكداً إذا ما كان سوغريڤـا يحاول أشراكك فيما هو اكثر من قتال عادي بين مجرد قردة. لا اعرف ان كان علينا ان نشارك في هذا الصراع علىٰ الاطلاق. كيف يمكنك ان تثق بحليف لم يتردد في التآمر المميت ضد أخيه؟».

«ولماذا تقصره على القردة؟ إن النزاع بين الإخوة شائع بين البشر ايضاً. والحالات التي تشبه حالة باراتا نادرة حقاً. ويجب ألا نتفحص الصديق اكثر من اللازم ولا أن ننظر في عمق اكثر من اللازم في الدوافع الاساسية بل نتقبل فقط مايبدو انه مفيد لنا في المقام الأول، ونتصرف بناءً علىٰ ذلك».

وبينما كانا في نقاشهما هذا، كان ڤالي وسوغريڤا يقتتلان، ثم تباعدا واخذا يتراوغان. ثم امسك احدهما بالآخر مرة أخرى. وعندما كانت اكتافهما او اقدامها تحتك احدهما بالآخر، كانت تصدر عن ذلك شرر تعمي. كان الشرر يتطاير من عيونهما، وسال الدم منهما بسبب نشب الاظافر والتمزيق والجراح البليغة. وامتلأ الجو بهديرهما وتحدياتهما وضرباتهما المدوِّية التي كان يكيلها الواحد للأخر. وحاول كل واحـدٍ

منهما ان يلفّ ذيله كي يقضي على حياة الآخر. وكان من المستحيل، اثناء اشتباكهما، معرفة الفائز او الخاسر منهما.

واخيراً اصيب سوغريڤا بلكمة ورفسة، فجرح واوجعته الضربات حتىٰ انه انسحب في ارتباك وشُلّت قواه. فتوقف لحظة، ثم اقترب من راما وقال لاهثاً: «انجدني. لايمكنني ان اتحمل اكثر من ذلك..» قال راما: «من المستحيل ان اميّز بينكما وانتما مشتبكان مع بعضكما البعض، وانا لااريد ان اقتلك خطأً. لماذا لاتقتلع ذلك النبات البريّ المتسلق بازهاره وتضعه حول رقبتك حتىٰ يكون في استطاعتني التعرف عليك اثناء دورانكما هكذا بشكل عاصف؟ والآن عد الى النزال». وفي الحال اقتلع سوغريڤا نباتاً برياً متسلقاً كان يتدلىٰ من فرع شجرة وارتداه كاكليل زهر، ثم عاد الىٰ النزال بنشاط وأمل متجدد، وهجم على ڤالي بصرخة مرعدة. ورد ڤالي اللطمة وانهال عليه بقبضات يديه وبقدميه ضاحكاً في سخرية، وضرب سوغريڤا في مقاتل من جسده. لم يعد لدى سوغريڤا أقل شك الآن في ان نهايته قد حلّت، فالقى بنظرة يائسة باتجاه راما. وفي تلك اللحظة، امسك ڤالي به من رقبته وخصره، ورفعه فوق رأسه كي يقذف به في عنف علىٰ صخرة وينهي حياته. فسحب راما سهماً من جعبته في رشاقة، وثبّته علىٰ وتر القوس وأطلقه، فانطلق في سرعة مفرطة واخترق صدر ڤالي مثل إبرة تخترق ثمرة.

استولت الدهشة علىٰ ڤالي، فتوقف لحظة ليتدبر الأمر. وارتخت قبضته من حول عنق أخيه تلقائياً. وبيدٍ واحدة أمسك بقبضة السهم كي يوقفه من اختراق صدره. وتشبث به الآن بيديه وقدميه وبلفّات ذيله، فاضعف من حركته واعاقها في قوة عنيدة حتى ان ياما، إله الموت، توقف

بعيداً وأخذ يهز رأسه في إعجاب.

لم يتوقع ڤالي ابداً، ولا خطر بباله، ان تكون هناك اية قوة علىٰ الأرض او في السموات يمكنها ان تقهره بأي سلاح او تصمد أمامه في قتال. كل هذا كان حقيقة معترف بها، ولكن هاهو ذا، مثل دودة بائسة، غير قادر حتىٰ على ان يفهم الذي طرحه ارضاً. هل يمكن ان تكون «تريسولا» شيڤا أم هي «تشاكـرا» ڤيشنو أم «ڤـاجرايـودا» إندرا؟ وضحـك في سخرية. وفي ذات اللحظة شعر بإعجاب تجاه مهاجمه المجهول. من هو؟ وأخذ يفكر متناسياً آلامه. فطبقاً لوعد الآلهة له، كان من المتعذر إنزال الأذى به، ولكن هاهي الحقيقة: السهم في قلبه. وضحك في مرارة لثقته المفرطة طوال هذه السنين. من هو، وماذا يمكن ان يكون؟ ولِمَ التخمين؟ دعني اكتشف ذلك. بعد ان قال هذا، استعمـل كل قـوته المتبقيـة في استخراج السهم من صدره لينظر الىٰ العلامة التي على مقبضه وصفّق الآلهة استحساناً لقوة ڤالي وهم يراقبونه من أعالي السموات وقد نجح في استخراج السهم. وتدفق الدم من الجرح كـالنافـورة. وعندمـا رأى سوغريڤا ذلك، أصابه الحزن وأخذ يبكي بصوتٍ عالٍ، ونسى عداوته. وبقواه الخائرة، امسك ڤالي بالسهم بـالقرب من عينيـه، وقرأ في بطء وصعوبة اسم راما على السهم. نظر إليه وتفكر في تهوره عندما أخذ يؤنب زوجته لدى ذكرها اسم راما، فلقد كان رأي تلك المخلـوقة المسكينـة أصدق من رأيه.

«راما، ياإله الثقافة والتهذيب والحصافة والعدالة، كيف يمكنك ان تفعل هذا؟ لقد دمَّرت الأساس الراسخ لفضائلك. هل فقدت كل إحساس بالعدالة وأخذت تتصرف في تهور بسبب انفصالك عن زوجتك؟ إذا كان

شيطان ما مثل راڤانا قد تصرف في غدر، فهل هذا يبرر لك الحضور الى هنا وقتلْ زعيم عشيرة القرود الذي لاعلاقة له البتة بالموضوع؟ هل هذا فقط ماعلّمتك إياه مبادؤك الأخلاقية؟ أيها الشاب، اي خطأ رأيته فيَّ حتىٰ تدمرني هكذا؟ من سيحمل شارة الفضيلة في هـذا العالم او في العوالم الأخرى، وقد القيت بها بعيداً في استخفاف؟ هل علينا نحن فقط، المخلوقات التي تزحف وتسمى قردة، ان نذوق مسبقاً تجـربة «يـوغا كالي*»؟ وهكذا، أيها العطوف، هل المقصود انه على المخلوقات الضعيفة فقط ان تمارس الفضيلة؟ عندما يرتكب رجال أقـوياء الجـرائم، هل تصبح اعمالاً بطولية؟ اوه، يامن لانظير له، لقد اسلمت الكنز والمملكة، التي اعطيت لك، الىٰ أخيك الأصغر. ذلك مافعلته في المدينة، فهل تريد ان تكرر عملاً مشابهاً في هذه الغابات بأن تسلب أخاً اكبر حياته ومملكته؟ عندما يعارض اثنان أحدهما الآخر، كيف يمكنك مساندة أحدهما وان تختبىء وتهاجم الآخر؟ إنّ ماصنعته بي ليس عملاً بطولياً ولم تقم به في إطار قوانين الحرب. إنك بالتـأكيد لاتعتبـرني عبئاً عـلىٰ هذه الأرض الثقيلة، ولست عدواً لي. من فضلـك، ماالـذي دفعك الىٰ هـذا القرار الرهيب؟ لقد اوقع راڤانا زوجتك في الشرك وخطفها. ربما كنت في حاجة

---

* «تستمر كل يوغا مدة ٣ آلاف سنة، بقياسات سماوية، ولكن السنة السماوية الواحـدة تعادل ٣٦٠٠ سنة من الزمن البشري، وهكذا فإن فترات اليـوغا الأربـع تغطي فترة ٤٣٫٢٠٠٫٠٠٠ سنة بشرية. ولكل واحدة من فترات اليوغا الأربع.. خصائص خاصة من الخير والشر.. وفي فترة الكالي يوغا تختفي تماماً الاستقامة والفضيلة والطيبة. ويتم التخلي عن الطقوس والمحرقات كمجرد خرافات. ويسود الغضب والكرب والجوع، ويتصرف الحكام كقطاع طرق ويستولون علىٰ السلطة والثروات بطرق عديدة.»

الىٰ مساندة سوغريڤا لكي تستعيدها وتنتقم منه. إن هذا يشبه توددك الىٰ أرنب بينما كان في إمكانك ان تستدعي أسداً ليخدمك.

رجاءً، اي منطقٍ هذا؟ بكلمة واحدة منك كنتُ قد اقتلعت راڤانا من حصنه والقيتُ به عند قدميك.

«لقد قمت بعملٍ أنهى حياتي. إذا كان أحدهم قد خطف زوجتك، فبدلاً من ان تنازله وجهاً لوجه، تنتحي جانباً وتختبىء، وتستخدم كل مهارتك كرامٍ للسهام ضد شخص غريب غير مسلح. أكان تدريبك كله كمقاتل فقط لهذا الغرض؟ إننا وأمثالنا من المخلوقات، نختبر جدارتنا وقوتنا بعضلاتنا ومقدرتنا الجسدية، ودائما مانحارب بأيدينا، ولانمسك ابداً بسلاح كما تفعل».

خرج راما في تؤدة من مخبئهِ واقترب من ڤالي المحتضر، وقال في هدوء تام: «عندما اختفيت في العالم السفلي وانت تطارد مياڤي، انتظرك أخوك في قلق ولوقتٍ طويلٍ جداً، ثم بدأ، وبقرار مفاجيء، يتتبع طريقك في النفق حيث خشى ان تكون في حاجة الىٰ مساعدة ـ ولكن قادة الجيش والمستشارين في قصرك اوقفوه وضغطوا عليه كي يحكم كوصيّ مؤقتاً. ولكن في اللحظة التي عدت فيها، اسأت فهم كل شيء، وقبل ان يتمكن من التعبير عن ارتياحه وفرحته لرؤيتك، إنهلت عليه بالضرب بلا رحمة امام الآخرين وحاولت ان تقتله. وعندما كان مايزال يقاوم كي يشرح لك ويطلب العفو منك عن اي خطأ من جانبه، رفضت نداءه. وحتىٰ بعد ان ادركت تماما انه لم يرتكب خطأ، تركت العنان لهياجك من خلال إحساسك بالقوة، تتنعم باطلاق العنان لغضبك، مهما كان ذلك لامبرر له. لقد تهجمت عليه وتبعته بهدف قتله. وبعد ان هرب، تركته وحده،

ليس لأنه اعترف بخطئه وطلب العفو منك، وليس حتى لأنه من الخطأ ان تطارد شخصاً وظهره لك اثناء القتال، وليس لأنه أخوك، ولكن فقط لأنك لم تجرؤ علىٰ ان تخطو فوق تل ماتنجا ـ من اجل الحفاظ علىٰ الذات. وانتظرت الفرصة الملائمة. حتىٰ الآن كنت ستزهق حياته لولا سهمي. وخلاف ذلك، فلقد اعتديت على شرف زوجته وجعلتها لك. إن الواجب الأول الذي يقع علىٰ عاتق اي كائن ذكي هو الحفاظ على شرف المرأة. ولكن لإحساسك بقوتك اللامحدودة فإنك تتصرف بشكل شائن، وتنجح في ذلك دون اي وغز رادع من ضميرك لأنك تشعر انه لايمكن لأحد ان يسائلك. إنك تعلم جيداً قوانين السلوك والأخلاق. ولكن بدلاً من توفير الحماية لإمرأة بائسة، الا هي رفيقة حياة أخيك، طمعت بها.

«وحيث ان سوغريڤا التمس صداقتي وطلب العون مني، شعرتُ ان من واجبي ان أساعده».

أجاب ڤالي: «لقد أخطأت في حكمك علينا جميعاً، وأساسك مغلوط. وتبالغ كثيراً في حصولي علىٰ زوجة أخي، فهو شيء مشروع في عرفنا ورغم ان أخي كان عدواً لي، إلّا انّني أردت ان احمي واساعد زوجته بعد ذهابه. لم يكن في مقدوري ان اتركها لقدرها».

«واجبي اولاً مساعدة الضعيف وتدمير الشر حيثما اراه. إنني اساعد هؤلاء الذين يطلبون العون مني، سواء كان ذلك عن معرفة او بغيرها».

أجاب ڤالي: «إن الزواج وكل قيوده علىٰ علاقات الرجال والنساء موضوعة للمجتمع البشري وغير معروفة لدينا. لقد أمر براهما لنا بالحرية المطلقة في علاقاتنا وعاداتنا وتواصلنا. وليس هناك في عرفنا أمر

مثل الزواج. لسنا مجتمعاً بشرياً، فنحن قردة، ولاتنطبق علينا قوانينكم ومبادئكم الأخلاقية».

قال راما: «انا لايخدعني تفسيرك ولامظهرك كقرد. واعلم أنك ابن كبير الآلهة، وتمتلك قدراً كافياً من الذكاء كي تعرف الصواب من الخطأ، وان تناقش قضيتك حتىٰ علىٰ هذا المستوى. وإنك لعلى وعيٍ تام بالحقائق الأبدية. لقد اخطأت وتعلم ذلك، فكيف يمكنك القول بأنك بريء؟ هل يمكن ان يُصنّف غاجندرا، الذي صلّى يطلب المساعدة من ڤيشنو عندما أمسك به تمساح بين فكيه، علىٰ انه فيل عادي؟ هل يمكن ان يكون جتايو طائراً عادياً؟ إن الحيوان العادي لايميز بين الصواب والخطأ. ولكنك تكشف في حديثك عن معرفة عميقة بقيم الحياة. ويمكن للمخلوقات في هيئة بشرية ان تسمى حيوانات إذا لم تظهر معرفةً بالصواب والخطأ، وبالعكس فالحيوانات المزعومة التي تكشف عن عمقٍ في التفكير تكف عن كونها حيوانات وتصدر عليها الأحكام طبقاً لأعلى المستويات. وليس هناك مهرب من ذلك. فمن خلال تأملاتك وصلواتك المخلصة الىٰ شيڤا، أنعم عليك بقوة تفوق حتىٰ ماللعناصر الخمسة. والمرء القادر على مثل هذا الإنجاز لايمكن إلا ان يحكم عليه طبقاً لأعلى مستويات السلوك».

قال ڤالي: «حسن جداً سأتقبل ماتقول، ولكن كيف يمكنك، وانت حامي كل المخلوقات، ان تطلق سهمك من مخبئك مثل صياد وضيع يتعقب حيواناً برياً، بدلاً من مواجهتي في القتال ـ إذا كنت تشعر انني استحق ذلك الشرف؟»

فأجابه لاكشمانا: «لقد اقسم راما علىٰ أن يساند أخاك سوغريڤا

عندما جاء يطلب الحماية. ذلك كان وعداً مسبقاً وكان عليه ان يفي به، بينما لو كان راما قد جاء أمامك وجهاً لوجه، ربما كنت قد قدمّت إليه رجاءاً مشابهاً، مما كان يخلق تشوشاً في الهدف. ذلك هو سبب إطلاقه السهم دون ان تراه».

ادرك ڤالي المعنى العميق لهذا الإيضاح وقال: «الآن افهم كلماتك بطريقة تختلف عمّا تبدو عليه. إنها بسيطة ولكنها ذات قوة خفّية، وإنني لواثق من ان راما لم يرتكب عملاً جائراً. إن الأشخاص ذوي العقول البسيطة مثلي لايمكن ابداً ان يدركوا الحقائق الأبدية دون تخبط وإخفاق مستمرين. ارجوك، أعفو عن أخطائي وحديثي الفظ. فبدلاً من ان تعاملني كمجرد قرد، كما كنت انا قانعاً بذلك، رفعت من قدري وعاملتني باحترام. إنك تهبني، وانا علىٰ وشك الموت، وبعد ان اخترق سهمك جسدي - اعلىٰ درجات الاستنارة التي اعتبرها اعظم بركة منحت لي. وعلىٰ الرغم من عنادي، ساعدتني علىٰ الحصول علىٰ الفهم العميق، وتفتح ذهني بقوة سحرك. وبينما تمنح الآلهة الاخرىٰ عطاياها بعد ان يُطلب منها ذلك، فإنك تهب عطاياك بمجرد النطق باسمك. لقد حاول حكماء عظام، بعد فترات لانهاية لها من التقشف، ان يبصروا الله، ولكنك وهبتني ذلك دون سؤالٍ مني. إنني اشعر بالفخر والسعادة في هذه اللحظة.

لديّ رجاء واحد فقط. اتمنى ان يبرهن أخي بأنه يستحق ثقتك به. ولكن إذا حلّ به ضعف، في أي وقت ما، ووجدته مخطئاً، فارجوك الّا ترسل سهمك في اتجاهه، وعامله بشفقة.

«شيء آخر. إذا وجّه إخوتك اللوم، في أي وقت، الى سوغريڤا علىٰ أنه

دبّر موت أخيه، فارجوك ان توضح لهم ان سوغريڤا دبّر أمر خلاصي فقط. رجاء آخر. لم ينُعم عليّ بفرصة استئصال ذلك الشيطان الأكبر راقانا بطرف ذيلي. ولكن هاهو هانومان سيفعل ذلك بأمر منك، وسيطيعك ايضاً في كل الأمور. دعه يخدمك، فلسوف يكون هو وسوغريڤا حلفاء لك لايقُدَّرون بالأموال».

ثم اتجه بالحديث الىٰ سوغريڤا: «لاتحزن لموتي، فالذي طعنني ليس سوى الإله العظيم ذاتـه. وفي هذه اللحظـة ادرك إنني كائن متميـز. سيكون لك دوماً مفخرة الـوقوف الىٰ جـانبه، فـارجوك ان تخلص في خدمته». بعد ذلك قام ڤالي، وبشكل رسمي، بتسليم سوغريڤا الىٰ راما علىٰ انه محل اختياره كخليفة له، واسدى له النصح في كيفية الحكم.

وهذا هو اكثر اجزاء ملحمتنا العظيمة حزناً، فنحيب تارا وانغارا، زوجة ڤالي وابنه، عندما هبطا يحملان جثة ڤالي القوي، يملأ قلب المرء حزناً. ولكن لابد لكل قصةٍ من نهاية سعيدة. فبالرغم من ان تارا تشبثت بجسد ڤالي الهامد بعد ان فارقته الحياة، إلّا ان روحه صعدت الىٰ أعلى السموات، ووجدت مكاناً هناك، لأن الإله العظيم نفسه هو الذي اطلق روحه وبناءً على أوامر من راما، بدأت الترتيبات لتتويج سوغريڤا وتم تنصيب أنغارا الشخص الثاني في القيادة.

الفصل السابع

عندما تتوقف الأمطار

تم تتويج سوغريفا في احتفالات وطقوس باذخة، وبعد ان ارتدىٰ زياً ملكياً ولبس تاجاً متألقاً، دنا سوغريفا من راما، الذي ظلّ خارج كيسكندا طوال فترة الاحتفالات، واعلن في امتنان عميق: «إنني علىٰ استعداد لأن اخدمك، ياسيدى. ماهي أوامر؟»

وضع راما ذراعيه في رفق علىٰ كتفيه وقال: «عد الى قصرك وإلى مهامك كحاكم». وطبقاً لقاعدة الأرفع منزلة، وجَّه اليه النصح في كلمات قليلة: «اجمع من حولك هؤلاء الذي يتمتعون بالأمانة والشجاعة والقدرة علىٰ التمييز، واحكم رعاياك بمساعدتهم. وليكن كل شيء تفعله قائماً علىٰ اساس من مبادىء السلوك المقَّرة». واوضح له كيفية السهر علىٰ مصالح رعاياه، وأهمية الرقة في الحديث، وقال: «حتىٰ عندما تدرك ان الشخص الذي أمامك عدولك وتجب معاملته في صرامة، لاتؤذه بالكلمات ولاتسيء الىٰ مشاعر احد ـ حتى أبسطهم ولاحتى بملاحظة ساخرة» ـ وتذكر راما كيف انه اعتاد ان يسخر من عاهة كوني الجسدية عندما كان صغيراً

ويرميها بكرات من طين، واعتقد ان كوني ربما كانت تحقد عليه طوال حياتها، ووجدت الفرصة في الانتقام عندما اخذ داساراتا يخطط لتتويجه. واوضح راما كيف. ان سبباً تافهاً ربما يجلب كارثة في اعقابه، ثم اسهب في كيفية ان يتنازل المرء عن رأيه، وإلىٰ اي مدىٰ، لشخص آخر ـ خاصةً بدافع من الحب، وقال: «ليس الىٰ مدىٰ بعيد»، مشيراً الىٰ مطاردته للغزال الذهبي من اجل إرضاء سيتا. وقال: «من الممكن ان تقود النساء المرء الىٰ الموت»، مشيراً الىٰ إفتتان ڤالي بزوجة سوغريڤا. وفي نهاية لقائهما، ناشده سوغريڤا: «ارجوك ان تشرفني بالإقامة في العاصمة كضيف علينا».

فقال راما: «ليس الآن.. إذا حللتُ ضيفاً عليك فسيكون كل اهتمامك بي، بينما يجب ان تكرس كل طاقتك لواجباتك كملك. علاوةً علىٰ ذلك، فلقد اقسمتُ علىٰ العيش في الغابات مدة اربعة عشر عاماً، ولهذا لايمكنني ان ادخل مدينة الآن».

خاب امل سوغريڤا وقال: «اريد ان اخدمك...

«بلىٰ، فيما بعد. موسم الأمطار قادم، وعند نهايته احضر جيشاً. هناك وقت كاف».

وهنا قال انجانيا في عناد: «ليس لى كيان منفصل عنك أريد أن اخدمك، وأرغب في أن أكون معك الى الأبد.»

قال راما : «ليس الآن. ستعود الى كيسكندا مع سوغريڤا وتساعده ، فلسوف يحتاج الى صواب حكمك ومساندتك لضخامة المسؤوليات التي ورثها. وواجبك الأول أن تساعده. تعال اليّ بعد اربعة أشهر ، بعد الأمطار، وسوف اخبرك بما يمكن ان تفعله من أجلي». وعندما اصرَّ

سوغريڤا على دعوته، قال راما: «لقد فقدت زوجتي. ويجب ألا يقال انني استمتع بمغريات الترف في قصر ما، بينما تعاني هي كمعاناة غير محدودة في مكان ما.» وبعد ذهابٍ سوغريڤا وهانومان، عاد راما مع لاكشمانا ليقيما على احد التلال. وفي بقعة وقع عليها الاختيار، قام لاكشمانا، مظهراً عبقريته مرة اخرى كمهندس معماري، ببناء صومعة - يمكنهما قضاء شهور المطر القادمة فيها، وحيث يتمكن راما في هدوء ان يفكر فيما سيفعله في المستقبل.

بدأت الشمس تتجه جنوباً. وانتشرت السحب السود المحملة بغزارة وحجبت الشمس مراراً، وتجمعت تدريجياً مثل جيش من الفيلة الضخمة. ودمدم الرعد وزأر، وأضاء البرق السماء والارض من بدايتها الى نهايتها، وهزَّت العاصفة الأشجار ومزَّقت أوراقها وبعثرتها في الهواء، وقلَّبت الأرض ونثرت الطين والغبار. وكما شعرنا بالحرارة الشديدة والجدب التام حيث اعتادت تاتكان ان تتجول، علينا أن نشعر الآن حتىٰ الأعماق برطوبة وعتمة الأيام المطرة ومظهرها المقفر.

هطلت الأمطار في غزارة طوال الشهور كلها. وكانت المياه تجري وتندفع وتتجمع في برك. وكانت احياناً تحمل معها قطع الجلاميد او جزءاً من جوانب الجبل. وصمت الوقواق والعندليب، واختفت الطواويس. وحُصرت مخلوقات الغابة الأخرى في التجاويف الحجرية والكهوف. ولم يخرج اي حيوان، ولم تظهر هناك أية حركة. وبدا كما لو ان كل نوع من الحياة قد أصابه الشلل. وغطَّت الطبيعة نباتات برِّية غير مألوفة باشكال متنوعة من متسلقات هائلة وكروم. كانت السماء ملَّبدة بالغيوم بشكل دائم. وهبَّت الرياح باردة ورطبة فبللت الانسان وسيد

ولأيام قليلة ، كان تغيير الجو آسراً، ولكن وبمضي الوقت، اوقع الظلام والبلل الدائمان الكآبة في النفس.

واصبح راما، الذي انعزل في هذا المناخ، خاضعاً لنوبات طويلة من الاكتئاب. وجعلت الظروف المحيطة أضطرابه الداخلي اكثر حدة. شعر باليأس لانفصاله عن زوجته وبدا له استحالة القيام بأي عمل للبحث عنها، وشعر بالاحباط والبؤس. وبدأ يشعر بأنه مذنب، وان رضاه عن نفسه قد تجاوز حده. «بينما أعيش في مأمن هنا، لا استطيع ان أتخيل البؤس الذي قد تواجهه». وعندما رأىٰ زَبد ورغوة مياه الأمطار الضاربة الى الحمرة تندفع اسفل الجبل، تحمل وتدحرج امامها أشجاراً مجتثة، تذكر سيتا وهي تختطف. وخلّف ذلك ألماً عضالاً في قلبه، وقال في ذاته: «لامعنى لأستمراري في الحياة». وعندما رأىٰ أشعة البرق تشق السماء، تخيل أنها أنياب الشياطين الضخمة وهي تكشّر وتهدده من كل ناحية، فأخذ يناجيها: «في الوقت الذى اختطف فيه واحد من عشيرتكم جوهر حياتي، تريدون المزيد؟ ليس هناك من مزيد». وعندما كان احياناً يشاهد غزالاً يخرج من ملجئه عندما يخِّف قليلاً هطول المطر، كان يخاطبه: «لقد كنت تشعر بالغيرة من جناكي، كانت تنافسك برشاقة حركاتها، والآن الست سعيداً بانها لم تعد موجودة هنا؟ لقد أخذني واحد من فصيلتك بعيداً عنها. والآن ماهو غرضك من التبختر أمامي؟» وعندما كان يرىٰ شعاعاً بسيطاً من البرق على حافة سحابة، كان يتنهد: «لماذا تذكرني بصورة سيتا ثم تختفي ثانيةً؟ وعندما تدمدم، هل يعني ذلك إصرارك على ان تستعيد سيتا لي؟» ثم خاطب إله الحب، مانماتا: «إنك لمعذِّب. أحس طعناتك. وبينما ابحث عن شيء يداويني، تطعن

رماحك، المرة تلو الأخرى، نفس البقعة المتقرِّحة في قلبي ـ أيها الإله القاسي! إنك محظوظ لأنك لاتُرىٰ، وهذا ما ينقذك، كان من الممكن ان يقضي عليك أخي، لو رأىٰ كم تُعذبني. هل تعلم ماذا حدث لسورباناكا؟».

لاحظ لاكشمانا حالة راما الذهنية وشعر بأنه قد حان الوقت ليواسيه، فقال: «هل أنت قلق لأن فترة الأمطار قد طالت؟ هل تشعر بالقلق لأن الشياطين قد تثبت أنها لاتُقهر؟ هل تخشىٰ ألّا تتمكن من اقتفاء آثار جناكي ابداً؟ ارجوك، لاتدع عقلك يضعف، فهناك انجانيا، وسيساعدك أنغارا وكل العمالقة الآخرين. وسرعان ماستشرق السماء وتصفو. إن الوقت يمر، وسنرىٰ حالاً الجيوش التي وعدنا بها. ولسوف يحضرون جناكي إلىٰ جانبك في سهولة. لقد أكّدت لحكماء غابة راندااكا انك سوف تقضي على الشياطين من بينهم، وان تلك هي مهمتك الرئيسة هنا. استجمع قواك وانجز مهمتك. ولاتدع روحك ينتابها الوهن». تعزّىٰ راما بهذه الكلمات وشدَّت من إزره خلال فترة ثانية من الأمطار التي عاودت فجأة بعد فترة قصيرة من الطقس الصافي.

وأخيراً انتهت الأمطار، وصفت السموات. وظهرت أوراق جديدة علىٰ الأشجار وأينع الياسمين والزهور العطرة الأخرىٰ. ودبَّت الحياة من جديد في راماً مع إزدياد إشراق الطبيعة، فتمكن الآن من الخروج من صومعته والتصرف في إيجابية.

ومع نهاية موسم الأمطار، استأنفت الطبيعة حركتها على الأرض وفي الهواء والماء. وطارت أسراب من البجع في السماء، ومجموعات من الغرانيق وطيور الماء. ووثبت تحت سطح الماء انواع مختلفة من السمك التي ولدت توا. وازهر اللوتس. وصمتت الآن الضفادع التي كانت تنقّ

في انسجام حتىٰ بُحَّت أصواتها طوال فترة الأيام الممطـرة. وخرجت الطواويس الى الشمس نافضةً عنها قطرات الماء المتخثرة وناشرةً ذيولها على شكل مروحة بطريقة بديعة. وتراجعتِ الآن الأنهار، التي كانت تهدر وتفيض، الى مجراها المتواضع وصبَّت مياهها في البحر في رفق. ونضجت ثمار اشجار نخيل «الأريقة» في عناقيد ذهبية. وخرجت التماسيح من الأعماق تزحف على الصخور كي تنعم بالشمس. واختفت القواقع في الوحل، وانسلَّت السرطانات عائدةً الى ماتحت سطح الأرض. وأينـع فجأة وبرز للعيان ذلك النبات المتسلق النادر والمعروف باسم «ڤانجي»،* وجثمت الببغاوات على فروعه النحيلة.

لاحظ راما كل ذلك في دقة كمؤشر على تغيّر محدد في الموسم، وعلى فشل سوغريڤا في الوفاء بوعده بان يحضر مـع جيشه. قـال للاكشمـانا: «ألايبدو ان سوغريڤا تعدّى فترة الأربعة أشهر المحددة؟ اتعتقد انه يتغافل؟ بمساعدتنا حصل علىٰ مملكة قوية ليحكمها، ولكنه الآن نسينا. إن مَن يقضِ على كل روابط الصداقة وينحرف عن الصدق ويخادع، يستحق ان يُلقن درساً، وإذا قُتل اثناء ذلك فلا جناح علينا. ولكن قبل كل شيء عليك أن تذهب وتكتشف لماذا اخلف وعده، وماذا حدث له وفيما إذا كان يستحق أن يُعاقب. اخبره بان القضاء على الشر مثل القضاء علىٰ حشرة سامة، وأننا بذلك لانخرق أية مبادىء للسلوك. اشرح له ذلـك بالوضوح اللازم واطبعه في ذهنه. يبدو انه لم يعرف السلوك القـويم سواء كان في الخامسة او في الخمسين من عمره. اخبره انه إذا كان يريد ان ينجح كحاكم لهذه الكيسكندا وفي وسط اقاربه وشعبه، يجب عليه ان

* «القانجي» نبات متسلق يندر أزدهاره، يينع مرة واحدة كل أثنتي عشرة سنة.

يأتي في الحال وفي صحبته كل مايمكن ان يجمعه من مساعدة للبحث عن سيتا. وإذا لم يفعل، فلن نتردد في تدمير كل قرد في هذا العالم، وهكذا ستصبح تلك القبيلة غير معروفة لأجيال المستقبل. وإذا كان قد وجد شخصاً ما اقوىٰ من راما أو لاكشمانا لمساندته، ذكِّره بان في إمكاننا ان نواجه أي تحدٍ حيثما كان». بعد ان روَّح راما عن نفسه واراح مزاجه بهذه الكلمات، ربما كان قد شعر بانه ذهب الى ابعد مما يجب، وبانه قد يدفع لاكشمانا إلى ان يتصرف في عنف. لهذا قال له الآن: «تحدث إليه في رفق ولاتسفر عن غضبك، ولكن ليكن شرحك للموقف حازماً وواضحاً. وإذا لم يتقبل منك المغزى الذي تقصده، فلا تفقد صبرك وانصت في اهتمام إلىٰ كل مايقول، ووافني بجوابه».

تسلَّح لاكشمانا بطريقة مناسبة ورحل في الحال. وانتابه إحساس غامر بجدية مهمته. وركَّز كل همه علىٰ الوصول الى غايته في اقصر وقتٍ ممكن. وتحرك في سرعة دون ان يلتفت يميناً او يساراً، وتجنب طريقاً مألوفة تؤدي الى كيسكندا، وهي الطريق التي سلكوها عندما تقدم سوغريڤا لملاقاة ڤالي. ولأن لاكشمانا شعر بالشك في طبيعة علاقاتهما بسوغريڤا، اختار الآن طريقاً أخرىٰ، وكان ذلك ايضاً بدافعٍ من الحذر لأنه لم يرد ان يراه جواسيس سوغريڤا. فوصل الى كيسكندا بعد ان اخذ يقفز من صخرة الى أخرىٰ.

ذهب المراقبون في المخفر الأمامي الى انغارا واخبروه بوصول لاكشمانا، فاسرع أنغارا الى الخروج كي يقابله، ولكنه ادرك، حتىٰ من علىٰ مسافة بعيدة، اي نوع من المزاج كان فيه، فانسحب في هدوء واندفع الى قصر سوغريڤا، الذي كان قد صمَّمه وبناه مهندس كبير، وكان رائعاً

ومريحاً حتىٰ ان سوغريڤا ما كان ليغادره إلاّ فيما ندر. كانت غرفة نومه منثورة بالزهور. وكان مستلقياً تحيط به الجميلات بضفائرهن الطويلة وصدورهن الكبيرة، واللاتي وفّرن له وسائل الراحة، وغنيّن من اجل تسليته. إن رفقة النساء الجميلات بعطورهن التي تصيب بالدوار وأريج الزهور والبخور النادرة، وفوق كل ذلك ماتعاطاه من كميات كبيرة من النبيذ، أصابه كل ذلك بدوار مبهج غامر. كان سوغريڤا يرقد في خمول، غير عابىء بالعالم الخارجي. فدخل انغارا في رفق وقام بتحية عمه المضطجع باحترام، وهمس له: «ارجوك، أصغ إليّ. لقد حضر لاكشمانا اخو راما، وانني استطلع في وجهه الغضب والحاجة الملحّة. فما هي اوامرك الآن؟».

لم يجب سوغريڤا. وحيث انه لم تبدر منه اية إشارة على فهم كلمات انغارا، خرج الأخير وذهب يبحث عن هانومان، فاستشاره واخذه معه ليقابل أمه تارا. واوضح لأمه ماحدث والتمس منها ان ترشده. فغضبت وصاحت: «لقد انغمستم جميعاً في الأعمال الخاطئة دون تفكير في مباديء الأخلاق او في النتائج. تحصلون على اهدافكم ثم تتناسون مسؤولياتكم، ولا تعترفون بالجميل. لقد الححتُ عليكم مراراً وتكراراً بان الوقت قد حان لمساعدة راما، ولكن يبدو انني كنتُ اتكلم مع حجر أصمّ. عليكم الآن ان تتحملوا نتيجة لامبالاتكم. انكم لاتدركون كم يتحمل راما وكم صعب عليه ان يبقىٰ حياً. لقد انغمستم جميعاً في الملذات. كلكم أنانيون ناكرون للجميل. إنكم اغنياء ولاتفكرون في الآخرين. والآن تتساءلون ماذا يجب ان تفعلوا. سوف تفنون جميعاً لو اعلنتم الحرب علىٰ راما ولاكشمانا. ماذا هناك كي انصحكم به؟»

عندما قالت تارا ذلك، اوصد سكان كيسكندا أبواب المدينة واحكموا إغلاقها، ووضعوا عليها متاريس من الصخور وجذوع الشجر. وكان لاكشمانا يراقبهم منزعجاً ومتسلياً. وبدفعة وركلة منه، قـام بتحطيم التحصينات وفتح الأبواب عنوةً. تبع ذلك فوضى شديدة، وهرب السكان القردة إلىٰ الغابات المجاورة وهجروا المدينة. واخذ لاكشمانا يمشي في شكل مهيب في المدينة وينظر حواليه. ووقف أنغارا والآخرون من حول تارا وهم يراقبونه من مسافة بعيدة، وسألـوا أنفسهم في قلق: «ماذا سنفعل الآن؟»

في هذه اللحظة استشار هانومان تارا: «ارجوك ان تنتقلي الى مدخل القصر مع مرافقاتك، فلن يمر لاكشمانا من وسطكن. وإلّا، فانني اخشى التفكير فيما يمكن ان يحدث لو اندفع داخلاً إلىٰ القصر».

قالت تارا: «اتركوني جميعاً الآن، واختفوا عن الأنظار. سوف اذهب انا واواجهه».

وفي الوقت الذي اجتاز فيه لاكشمانا الممر الملكي ووصل الى القصر، سمع اصوات خلاخيل واساور، فرفـع بصره واكتشف ان جيشاً من النساء يقتربن منه في إصرار. وقبل ان يقرر إذا ما كان عليه ان يتراجع، وجد نفسه محاصراً وشعر بالاضطراب والخجل، فأحنى رأسه غير قادرٍ علىٰ مواجهتهن، ووقف خافضاً بصره، وتعجب ماذا يفعل.

خاطبته تارا في ادب جم: «يشرفنا ويسعدنا ان تزورنا، ولكنك أرعبتنا بتلك الطريقة التي حضرتَ بها، ونشعر بالقلق حتىٰ نعرف ما في ذهنك» ثم سألته في لطف: «هل هناك شيء ترغب في ان تخبرنا به؟»

رفع لاكشمانا بصره، ولدى اول نظرة له إلى وجه تارا تذكر في جلاء امه

سوميترا وزوجة أبيه كوساليا. لم يستطع ان يسيطر علىٰ نفسه واغرورقت عيناه بالدموع. وللحظة شعر بالحنين إلىٰ موطنه، فسيطر عليه وقال: «لقد ارسلني أخي لأعرف لماذا حجب سوغريڤا نفسه، بعد ان وعد باحضار جيش لمساعدتنا».

فأجابت تارا: «لاتطلق العنان لغضبك علىٰ سوغريڤا. وعلى العظماء ان يغفروا هفوات صغار الرجال. وعلىٰ أية حال فسوغريڤا لم ينس، وقد ارسل رسائل الى كل اصحابه في كل مكان، لكي يعبىء جيشاً. وهو في انتظار عودة الرسل، وذلك هو السبب الوحيد في التأخير. ارجوك ان تتحملنا. نحن نعرف ان سهماً واحداً من راما يكفي للتغلب على كل الأعداء، وان مساعدتنا ستكون رمزاً لاغير».

بدا الارتياح علىٰ لاكشمانا لدىٰ سماعه هذه الكلمات. وعندما لاحظ هانومان علامات الارتياح، اقترب من لاكشمانا في حذر. فسأله لاكشمانا: «هل نسيت انت ايضاً وعدك؟»

فاوضح له هانومان: «إن ذهني منشغل دوماً براما ولا مجال للنسيان». كان يتحدث في تواضع وإخلاص لدرجة انتهى معها نهائيا غضب لاكشمانا الذي اوضح لهم الآن: «إن الم راما عميق، ويحتاج الى مساعدة سوغريڤا في هذه المرحلة، ويخشى إن طالت فترة التأخير ان تزداد قوة مرتكبي الشر». فقال هانومان: «ارجوك، ادخل الى القصر، واتح الفرصة لسوغريڤا كي يلقاك، ياسيدى. فعندما تقف هنا وترفض الدخول فان ذلك يعطي الفرصة لأعدائنا كي ينشروا الإشاعات ويتقولوا علينا بالشر. ارجوك ان تنسى الماضي وتدخل».

تقبل لاكشمانا الدعوة وتبعه إلى داخل القصر، فاستقبله أنغارا الذي

دخل في الحال ليعلم سوغريفا بوصوله. وانسحبت تارا مع رفيقاتها في ذات الوقت. واخبر أنغارا سوغريفا بحضور لاكشمانا، واوضح له في أية حالة مزاجية وصل وكيف سقطت بوابات المدينة بلمسة منه. انصت سوغريفا في دهشة وطالبهم بان يوضحوا لماذا لم يخبروه بوصول لاكشمانا في الوقت المناسب. فأجابه أنغارا في لباقة، متحاشياً أي اتهام مباشر: «لقد اتيتُ عدة مرات وتكلمت، ولكن ربما كنت نائماً عندما كنتُ أظنك مستيقظاً».

فقال سوغريفا: «إنك لبق جداً إذ تفسر ذلك بهذه الطريقة، ولكني كنتُ مخموراً، وذلك ماجعلني انسى مسؤولياتي ووعودي. إن الخمر توهن من طاقة المرء واحاسيسه وقدرة تبصره وذاكرته، وتُنسي الوعود. إن المرء ليفقد حتى قدرة التمييز بين زوجته وأمه. لقد ولدنا بالفعل في عالم المايا، ولدنا في حالة من خداع الذات التام، ونحن نضيف الى هذه الحالة المزيد من الأوهام التي تخلقها الخمر. لاخلاص لنا. إننا لاننصت إلى نصائح الحكماء والدروس التي تشير إليها، وبدلاً من ذلك نستخلص القاذورات والحشرات التي تسبح في الرغوة المختمرة، فنعبّ من المشروب ونستغرق في النسيان. كيف يمكنني ان أواجه لاكشمانا الآن؟». فكر لفترة وجيزة ثم اعلن: «إنني بموجب هذا اقسم باسم راما الأعظم تقديساً أنني لن اشرب ابداً اي مسكر مرة أخرى».

بعد هذا القرار، شعر بالنشاط يدب فيه: «ساستقبل لاكشمانا الآن، واثناء ذلك قدّموا له، وبشكل مناسب، كل مظاهر الاحترام، ولتقم احتفالات عامة على شرفه». انشغل أنغارا في تصريف عجلة الأمور. في الوقت الذي خرج فيه سوغريفا وحاشيته لمقابلة لاكشمانا، كان الجو قد

تبدل الى مهرجان، واشترك العامة بشكل كامل في الاستقبال. كانت الموسيقى والترانيم والبخور والزهور في كل مكان، وبدا سوغريڤا مهيباً.

ولدىٰ رؤية لاكشمانا لسوغريڤا لأول وهلة، تجدد غضبه للحظة، ولكنه كبته في حزم، وصافح سوغريڤا ودخل الى قاعة القصر. أشار سوغريڤا الى مقعد ذهبي ودعا لاكشمانا الى الجلوس. فقال لاكشمانا فقط: «إن راما يجلس على الأرض الجرداء، ولستُ في حاجة الى اكثر من ذلك». وبقوله هذا، جلس على الارض الجرداء مما احزن سوغريڤا والآخرين. بعد ذلك اقترح سوغريڤا: «هل ستغتسل وتشاركنا طعامنا؟» ومرة أخرىٰ قال لاكشمانا «إن راما يعيش على جذور النباتات والاعشاب، وهكذا افعل انا. وكل دقيقة اتأخرها هنا، لن يتناول طعامه. ابدأوا فوراً في البحث عن سيتا، وسوف يعادل ذلك حصولي علىٰ حمام مقدس في نهر الجانجا وتقديم عشاءٍ لي من طعام الآلهة».

فأجابه سوغريڤا في أسىٰ شديد: «بينما يعاني راما من مثل هذا الحرمان، فإنه من الممكن لقردٍ فقط مثلي ان ينغمس في اللذة الجسدية. سامحني». واستدار بالتالي الى هانومان وقال: «لم يصل رسلنا بعد. عندما يعودون بالجيش، فأتِ بهم الى صومعة راما. إبقِ هنا الى ذلك الحين، وسأذهب انا الآن». وجمع اتباعه وشرع في السير في صمت ووقور كي يلتقي براما، وذهنه مليء بالإحساس بالذنب. ولكن في اللحظة التي التقى وجهاً لوجه براما في مكان اعتزاله بالجبل، رحَّب به راما بذراعين مفتوحتين، وربت على ظهره وقال: «اتمنى ان تكون انت ورعاياك سعداء مزدهرين».

أجاب سوغريڤا: «إن إنجازات المُلك تبدو تافهة وبسيطة لمن تلقى

البركة منك». وشعر بالعجز عن ان التوقف عن الحديث، وأخذ يدين نفسه في حرارة: «لقد فشلتُ في اداء واجبي ووعدي، وفقدتُ ذاتي في الملذات. وكشفتُ عن حدود عقـل القرد. وليس لي الحق في أن أتـوقع عفوك».

قال راما: «لقد طال موسم الأمطار بشكل غير متوقع، واعرف انك لابد قد انتظرت نهايته. والآن يبدو من حديثك انك مصرٌّ على مساعدتنا وذلك يجعلني سعيداً. إنني لا اشك في ولائك، ولكن ألا تقلل من شأنك كثيراً. أين هانومان؟»

«سوف يحضر حالاً مع الجيش».

قال راما: «والآن يمكنك ان تذهب فلابد ان لديك واجبـات أخرىٰ تؤديها. عُد عندما تجهز الجيوش». فأجاب سـوغريفـا: «فليكن ذلك. وسوف نقرر تفاصيل حملتنا فيما بعد».

بعد رحيله، تلقى راما من لاكشمانا تقريـراً كامـلاً عن كل مـارآه وسمعه اثناء مهمته في كيسكندا.

وفي الوقت المناسب، ظهرت في الوادي جيوش مختلفة يقودها قادتها. ولكي يتمكن من التعرف على اعدادها، اقترح سوغريفا ان يقف راما على مكان مرتفع ويراقبها، وأمر القادة باستعراض فرقهم، الواحدة تلـو الاخرىٰ من الشمال الى الجنوب. وتجددت آمال راما وهو يشاهد المشاة يختفون فرقة بعد أخرىٰ في سحابة ضخمة من الغبار اثارتها أقدامهم. وقال للاكشمانا: «إنني احاول ولكني دائما اخفق في إحصاء العدد. لو وقفنا هنا وحاولنا إحصاءها، فلن نصل ابداً إلىٰ نهايتها، ولن يتبقى لدينا وقت للبحث عن سيتا. الآن وقد رأينا هذا الجيش فإنني واثق من قدرتهم

على البحث والقتال». واستدار ناحية سوغريڤا وقال: «الآن لاتتأخر وارسلهم الى العمل».

ونادىٰ سوغريڤا القادة وحدَّد لكل منهم مهمة في اتجاهات مختلفة. كان على هانومان وانغارا ان يتجها الى الجنوب، وكانت تلك اكثر المهمات أهمية. وقبل ان يرحل هانومان اعطاه سوغريڤا تعليمات تفصيلية خاصة بكيفية البحث عن سيتا في كل مكان يرتادونه.

واسترسل في كلامه: «عندما ترحلون من هنا، ستصلون الى قمم جبل ڤينديا المغطاة بالسحب. ابحثوا عن سيتا في كل زاوية وركن من سلسلة تلك الجبال، سوف تعبرون نهر نارمادا الذي يلهو حتىٰ الآلهة في مياهه الفاترة، ثم تصلون الى السلسلة المسماة هِماكوتا حيث تنزل فتيات سماويات على أبراجها الذهبية، كي يقضين الساعات في نظم القصائد الشعبية وغنائها، والتي ترسل حتىٰ بالطيور والحيوانات الى النوم. اتركوا هِماكوتا واذهبوا جنوباً، وليكن بحثكم سريعاً في كل مكان. ستجدون ڤيداربا التي تعيِّن حدودها اشجار الصندل واشجار أخرى ذات عبير، وبلاد البساتين ذات الفاكهة كلها التي يمكن للطبيعة ان تقدمها. لاتدعوا جيشكم يتلكأ هنا من اجل وليمة ما». هكذا استمر في توجيه تعليمات محددة حول طريق هانومان عبر اجزاء عديدة من البلاد، معطياً صورة واضحة عن الطبيعة والجبال والوديان والأنهار التي عليهم ان يعبروها حتى يتقدم الجيش في الاتجاه السليم فلا يضل الطريق. واخيراً قال: «لاتدعوا أية بقعة مقدسة تحرف انتباهكم عن مهمتكم الرئيسة. إذا وجدتم انفسكم تقتربون من تيروڤنغارام، اقدس جبل، فانعطفوا عن الطريق. إن زيارة هذه البقعة من الأرض ستمنحكم

الخلاص بلاشك، ولكن اطلبوا الخلاص فيما بعد، العثور على سيتا. ومن غير المحتمل ان تطأ اقدام راقانا هـذه الأرض المقدسـة. إن وقتكم محدود. سوف اعطيكم مهلة ثلاثين يوماً للبحث. وأريد منكم، في اقرب فرصة بعد ذلك، ان تعودوا إلى هنا ومعكم تقريركم».

كان انجانيا على استعداد للرحيل، ولكن في هذه اللحظة سأله راما «أوه، أيها المثقف! إذا وجدت سيتا فبأي علامة ستتعرف عليها؟» لم يكن لدى هانومان إجابة على هذا السؤال. عندها انتحى به راما جانباً كي يوضح له: «إذا نظرت الى قدميها، ستجد ان اظافرها تتوهج احمراراً مثل الياقوت، وقدماها لانظير لهما. لاحظ عقباها بعناية، فقد قارنها المثقفون بكنانة السهام. لن اصف لك خصرها الدقيق غير المنظور، مثلما يجب أن يكون». وشعر براحة غريبة لدى تذكره ملامح سيتا بالتفصيل ووصفها لهانومان. واستوعب هانومان كل كلمة من كلمات راما في انتباه يتسم بالاحترام، دون ان يقاطعه بتاتاً. نجح راما في رسم صورة كاملة لسيتا في ذهن انجانيا، وبدأ الأخير يشعر بأنه ذاهب للبحث عن شخص يعرفه بالفعل. وإضافةً الى ملامحها، اعطاه راما وصفاً عن كيفية حديثها ومشيتها، وعن صوتها، وما الى ذلك. «عندما ترى هذه الشخصية، وإذا ما أوحى لك ضميرك بأنها هي ولا احد غيرها، اقترب منها ولاحظ حالتها الذهنية، وتكلم معها إسألها إن كانت تتذكر كيف رأيتُها لأول مرة في شرفة قصر جانكا في ذلك المساء عندما مررت على الطريق في رفقة معلمي ڤيسواميترا ألم تقل فيما بعد انه لو كان الشخص الذى كسر قوس شيڤا شخصاً آخر غير الذي رأته اسفل شرفتها في صحبة ڤيسواميترا لتخلت عن حياتها؟ ألم تدخل إلى قاعة

الاجتماعات في قصر والدها، تزينها المجوهرات، وهي ترفع بصرها في قلق كي تعرف إن كنتُ أنا ام شخص آخر؟ ذكِّرها بأنه عندما خرجنا الى منفانا، وما كدنا نصل الى بوابات أيوديا الشاهقة حتىٰ سألت في براءة: «أين الغابات القاسية والمستحيلة التي تحدثت عنها؟» بعد هذه السلسلة من الرسائل، أخذ راما خاتماً من اصبعه وقال: «اعطها هذا. وليكتب النجاح لمهمتك».

اتجه هانومان وأنغارا جنوباً ومعهما جيش منتقى. وعبروا جبالاً وأنهاراً وحيثما اشتبهوا في مكان ما قد يختبيء فيه راڤانا، شرعوا بالتنقيب، في سعار شديد، في كل زاوية وركن بحثاً عن سيتا. وفي محاولة يائسة للكشف عن مخبأ ربما تكون قد اختبأت فيه، اندفعوا إلىٰ فم كهف، وبعد ان تقدموا في النفق، وجدوا انه من المستحيل للخروج منه، ووقعوا في شركٍ من الظلام الدامس. وفقدوا الاتجاه والعلامات والاشكال والخطوط الرئيسة وسط الظلام الذي لفَّ كل شيء. لم يكن لديهم اي شك في ان راڤانا قد دبرَّ لهم ذلك، وشعروا بالعجز أمام خدعة دُبِّرت كي تسلبهم بصرهم. وبواسطة قواه الخارقة، ساعدهم هانومان علىٰ تحسس طريقهم الى ان وجدوا أنفسهم في اعماق الأرض وعلى مسافة بعيدة. وبعد عدة ساعات من السفر، وصلوا الى مدينة ساحرة فيها مبان فاخرة وساحات وينابيع وحدائق وشوارع عريضة. وعلى الرغم من عدم وصول ضوء الشمس الى هذه الأعماق، إلّا إنه كان هناك وهج ثابت يصدر من القباب الذهبية المتألقة التي تزينها احجار كريمة ينبعث منها ضوء طبيعي. ورغم كل هذا الكمال، لم يقع بصرهم على أحد هناك. لم يكن هناك أي بشر أو أي كائن كان. «هل نحن جميعاً موتىٰ، وقد

فتحنا أعيننا في السماء أم أن هذا وهم آخر خلقه راڤانا لنا؟ إذا كنّا موتىٰ فكيف سنؤدي واجبنا نحو راما؟ وإذا كنا احياءً فكيف سنخرج من هذا الشرك؟».

وفي الحال، وجدوا الإجابة على مشاكلهم عندما رأوا إمرأةً تجلس القرفصاء وتتأمل ـ كانت الوحيدة التي تسكن هذه المدينة الواسعة. وفي البداية ظن القردة انها سيتا، معتقدين ان راڤانا، قد وجد مخبأً مثالياً لها في أعماق الأرض. وبعد ان راقبها هـانومـان عن كثب، اعلن انها لاتحمل اية علامة من العلامات التي ذكرها راما للتعرف عليها. ايقظوا المرأة من تأملاتها، وعندما قصّت عليهم قصتها، وجدوا أنها كانت إلهة فقدت، لارتكابها خطأ ما، النعمة الإلهية، وحُكم عليها بـالعيش تحت الأرض في هذا الموقع المثالي في عزلة حتىٰ هذه اللحظة بالتحديد. وبعد كفارتها الطويلة، أقامت احتفالاً واستضافت هانومان وأتباعه. وأخيراً، وبقوة هانومان الخاصة، استطاعوا تحطيم هذا العالم السفلي والخروج منه، كما ساعدوا هذه المرأة الغريبة علىٰ الهرب من سجنها والعودة الى سمائها الخاصة.

ارتحلوا جنوباً ولم يتركوا حجراً في طريقهم لم يقلّبوه، ووصلوا الى أقصى نقطة في الجنوب حيث شاهدوا، من قمة احد الجبال، المحيط الممتد فيما وراءه. وتحدثوا فيما بينهم: «لم يعد هناك شيء آخر نفعله. لقد فشلنا، وتخطينا الشهر المحدد لنا بوقت طويل. هل نعتزل العالم ونبقى هنا كنسّاك أم نتناول السم وننهي حياتنا، وهما البديلان المتبقيان لنا؟»

فقال أنغارا «عندما انطلقنا، كنا نتباهى في تبجح في حضرة راما. والآن كيف يمكننا ان نعود ونواجهه؟ لايمكننا ان نعود ونخبره بفشلنا.

يمكننا ان نطلب مزيدا من الوقت، ولكن ماذا سنفعل بالمزيد من الوقت؟ وإذا سألنا راما ماذا سنفعل اكثر من هذا، فكيف سنجيبه؟ إنني لااحتمل مواجهة خيبة أمل راما، افضل شيء بالنسبة لي هو ان انهي حياتي هنا ويمكن لبعض منكم ان يعود ويخبره بالحقيقة».

كان احد قادة المجموعة ناسكاً مجرباً طاعناً في السن، يُدعى جمباڤان.. وعلى الرغم من أنه الآن على هيئة دب، إلّا أنه كان شخصاً ناضجاً ممتلئاً معرفةً وحكمةً. فقال لأنغارا «إنك أمل أمك الوحيد المُرسّم ولياً على العهد، ومن واجبك ان تبقى حياً يجب عليك ان تعود وتخبر راما بحقيقة عدم اكتشافك لمكان وجود سيتا، فلربما يخبرك بما يجب عليك ان تفعله بعد ذلك. ويمكنك ان تخبره ايضاً بأن الآخرين الذين تركتهم هنا قد وضعوا حدّاً لحياتهم».

في هذه اللحظة، قال هانومان: «إننا، بالطبع، قد تخطينا الوقت الذي أعطي لنا، ولكن ذلك غير مهم. هل تدركون ان هناك اجزاء أخرى كثيرة من هذا العالم والعوالم الأخرى علينا ان نبحث فيها؟ لاتيأسوا او تستسلموا هناك الكثير الذي مايزال في امكاننا ان نفعله. إذا كان علينا ان نموت فلنمت في معركة. تذكروا جتايو وكيف مات بشرف وهو يقاتل راڤانا حتى النهاية».

كان لهذا وقع مشجع في وسط الكآبة الراهنة، واحدث ذكر جتايو أثراً غير متوقع فعند ذكر اسمه، شاهدوا فجأة مخلوقاً جديداً يقترب منهم. كان ضخماً لايمكن التعرف عليه، واقترب من جماعتهم في صعوبة، ولكن في قوة وتصميم. ولدى رؤيتهم لهذا الكائن الغريب، انسحبت القردة في رعب واشمئزاز واعتقدوا انه شيطان في زي غريب، ونهض هانومان

ليواجهه وقال في تحدٍ «سواء كنت شيطاناً ام راقانا ذاته في هذه الهيئة، فلا تأمل في الهرب مني، ولسوف اقضي عليك». وهنا ذرف ذلك الكائن الدموع وناشده: «اخبرني بكل شيء عن جتايو». فقال هانومان: «اخبرني اولاً من انت، وبعد ذلك ساوضح لك الأمر». فقال الآخر: «اسمي سامپاتي الأخ الاكبر لجتايو. انفصلنا منذ زمن بعيد، وسمعتك الآن تشير الى وفاته، فهل مات؟ من قتله، ولماذا؟».

أمضى هانومان بعض الوقت في مواساة سامپاتي الذي اصابه الحزن، ومن ثم راح يقصّ قصته: «كان كلانا من ابناء ارونا سائق مركبة إله الشمس كنا سعيدين، ننزلق في سرعة ونطفو إلى السموات العليا. وفي احد الأيام قررنا ان نطير الى مسافة أعلى مما كنا نطير من قبل كي نلقي بنظرة على السموات التي يقطنها الآلهة، فطرنا معاً الى اعلى ثم اعلى، وعبرنا طريق إله الشمس الذي أنزعج لدى رؤيته إيانا وعندما وجَّه كل طاقته في اتجاهنا، لم يُؤذَ جتايو الذي كان محتمياً في ظلال اجنحتي، ولكن ريشي واجنحتي اشتعلت كلها واحترقت، وسقطتُ مثل كومة من العظام واللحم على هذا الجبل. وطوال ذلك الوقت كانت الحياة، بالنسبة لي، عذاباً شديداً. وبقيتُ على قيد الحياة بمساعدة حكيم يعيش على هذا الجبل. عزمت على أن ابقى حياً إذ قيل لي ان خلاصي سيحل عندما اسمع اسم راما ينطق على مرمى السمع مني»

عندما قال هذا، صاح هانومان ورجاله بصوتٍ واحد: «النصر لراما!» عند ذلك خضع ذلك المخلوق لتغيّر عجيب: فقد نما ريشه مرة أخرى واصبحت اجنحته كبيرة لدرجة تكفي للارتفاع به الى السموات، وتحول الى طائر مهيب جداً. وعندما وجد ان هانومان واتباعه قد اعتراهم اليأس

بالنسبة لبحثهم عن سيتا، قال: «لقد ذهب راڤانا مع سيتا من هذا الطريق. رأيته يطير بها الى لانكا التي هي الى الجنوب من هنا، وقد حبسها هناك. عليكم ان تعبروا البحر بطريقة ما كي تكتشفوا مكانها. ولاتتثبّط من همتكم رقعة المياه هذه الممتدة أمامكم، فلسوف تنجحون في النهاية في مهمتكم، والآن يجب ان اترككم، فقبيلتنا بلا قائد منذ ان مات جتايو. يجب عليَّ ان اتولى مهامه».

بعد ان قال سامپاتي هذا، طفا الى أعلى وطار بعيداً.

بعد رحيل سامپاتي، تباحثوا فيما بينهم حول كيفية عبور البحر، التى شعروا أنها مهمة يتعذر اجتيازها تماماً الى ان تكلم جامباڤان مرة أخرى، فقال لانومان: «انت الوحيد الذي لديك الكفاءة لعبور البحر وحمل رسالة أمل الى سيتا.» واوضح: «انك غير مدرك لمنزلتك الرفيعة، وذلك جزء من لعنة انزلها عليك والدك منذ زمن بعيد ـ ذلك بأن تجهل مدىٰ عمق معرفتك وقواك الخاصة. عليك ان تتغلب على هذا الوهم قبل محاولتك لأي شيء آخر الآن. تذكر ان بإمكانك ان تنمو الىٰ أي حجم ترغبه إذا قررت ذلك. بإمكانك ان تقطع العالم كله بخطوة واحدة، وتتفوق حتىٰ على ڤيشنو في قصر مهابالي. اجعل نفسك من الضخامة كما تريد، ويمكنك ان تضع قدماً علىٰ هذا الشاطىء والأخرىٰ عبر البحر على الشاطىء الآخر ـ تلك هي لانكا. وعندما تصل الى لانكا، اجعل نفسك غير مرئي، وسيكون اخلاصك لراما كافياً لارشادك حيث تقيم سيتاً».

انصت هانومان إلىٰ هذا وقد طأطأ رأسه تواضعاً: «لقد شجعتنى كلماتك لدرجة الشعور بإنني قادر على هزيمة وإبادة جنس الشياطين كله إذا لم يسلّموا لي أمي الإلهة. إن اتساع هذا المحيط يبدو لي غير ذي بال.

إن البركة التي وهبتني إياها وأوامر راما هما مثل جناحين سيحملاني الىٰ اي مكان. وبعد ان قال ذلك، إتخذ قواماً ضخماً، وبدا الآن جبل ماهندرا، الذي كان يلوح، حتى ذلك الـوقت، عاليـاً في السحب، مثل حصاة عند قدميه. ووقف هناك ينظر في اتجاه الجنوب ليختار اللحظة التي يخطو فيها عبر المحيط الى لانكا

الفصل الثامن

تذكرة من راما

عندما نزل هانومان على ارض لانكا، تقلص الىٰ حجم غير ملحوظ، وبدأ بحثه عن سيتا. فأخذ يختلس النظر الى كل مبنى في المدينة. وشاهد شوارع عديدة بمنازلها حيث كان راڤانا يحتفظ بمجموعة من النساء اللاتي احضرهم من اجزاء عديدة من هذا العالم والعوالم الأخرى. وحيث ان راڤانا لم يعد يكترث بهن بعد افتتانه بسيتا، فقد تجاهل تماماً المفضلات لديه. ولاحظ هانومان ان هناك في كل بيت نسوة جلسن في تشوّف، يأملن عودة راڤانا الىٰ احضانهن. وفي التَوْ دخل هانومان الىٰ منزل كبير يحتوي على أثاث فخم حيث رأى إمرأة على جانب عظيم من الجمال تتقلب في فراشها بينما أخذ العديد من الخدم يروّحون لها.

«ها هي نهاية بحثي»، قال هانومان لنفسه ظناً منه أنها سيتا. أخذ يدرس ملامحها عن كثب وتذكر، المرة تلو الأخرى، الوصف الذي اعطاه راما له. وامتلأ ألماً وغضباً عندما ظن ان زوجة راما تعيش في مثل هذا الترف، ربما بعد ان استسلمت لراڤانا. كاديبكي لدى فكرة أنها تعيش

في ترف الآن بينما يتحمل راما مثل ذلك العذاب في بحثه عن زوجته وللحظة، شعر هانومان انه لم يعد هناك مايفعله، وان كل خططه لمساعدة راما قد انتهت نهايةً غير متوقعة.

وبينما كان يجلس هناك على السطح بلا فضول، ادرك انه ربما يكون مخطئاً. وبعد ان راقبها لفترة اطول، لاحظ عدة اختلافات في ملامح هذه المرأة، فعلى الرغم من جمالها، إلّا أنها كانت على بعض من الفظاظة، فقد كانت تنام دون اية رقّة بينما امتدت ذراعاها وساقاها بشكل اخرق، وافترقت شفتاها. كانت تغط في النوم وتتحدث بشكل غير مترابط. فقال هانومان لنفسه في ارتياح «لايمكن ان تكون هذه الإلهة التي ابحث عنها».، وادرك في الحال ان هذه هي زوجة راڤانا، ماندا دوري.

بعد ذلك انتقل هانومان إلى قصر راڤانا، وأخذ يراقبه في موضعه المزوَّد بأسباب الترف، وبعد ان اطمأن الى ان سيتا لم تكن محبوسة هناك، خلفه ومضى. وبعد ان انتهى من تفتيش كل المباني، قرر ان يبحث في الغابات والحدائق. وأخيراً وصل الى اسوكا ڤانا التي كانت معتزل راڤانا المفضّل، حيث ارض الحدائق الفخمة ذات البساتين والكهوف وحدائق الملذات. وعندما حطًّ هانومان على قمة شجرة سيمسوپا، شاهد العديد من نساء الشياطين، بغيضات وبشعات المظهر، يتسلحن بالأسلحة وينمن على الأرض. وكانت سيتا تجلس في وسطهن. فأخذ يدرسها عن كثب: كانت تنطبق عليها كل الأوصاف التي اعطاها راما له. والآن انتهت شكوك هانومان، ولكن قلبه تمزق عندما رآها في حالتها الراهنة، شعثاء بلازينة، تغطي جسدها قطعة واحدة من الساري ذي اللون الأصفر، يعلوها غبار أيامٍ طويلة. وفجأة افاقت نساء الشياطين

من النوم واطبقن على سيتا، وأخذن يهددنها يخيفنّها. فانكمشت سيتا مبتعدة عنهن، ولكنها تحدتهن ان يفعلن اسوأ ماالديهن.

وفي الحال شاهدت المعذِّبات راڤانا يصل، فانسحبن جانباً. اقترب من سيتا بكلمات محببة، وأخذ يخيفها حيناً ويتملقها حيناً آخر كي تصبح عشيقته المفضلة. ولكنها رفضت في ازدراء كل عروضه. ارتجف هانومان من المنظر الذي رآه، ولكنه امتلأ ايضا بالاحترام العميق والاعجاب بسيتا.

وفي النهاية انصرف راڤانا في غضب عظيم، وأمر النساء البغيضات بألّا يرحمنها وان يحطمن إرادتها. وبعد رحيله، أخذت النسوة يتوعدنها حتى ان سيتا بكت: «اوه، راما! هل نسيتني؟» وبعد قليل انسحبت النساء، وأخذت سيتا تعد العدَّة كي تنهي حياتها بان تشنق نفسها على شجرة قريبة. وفي هذه اللحظة، ظهر هانومان في بطء أمام سيتا، وهو يخشى ان يخيفها، وقصَّ عليها بسرعة من يكون ولماذا هو هنا. واوضح لها كل ماحدث طوال هذه الشهور العديدة، وأجاب علىٰ كل شكوكها، واثبت هويَّته. واخيراً اطلعها على خاتم راما. وقد اثبتت تأكيداته ورسالته املاً جديداً في حياة سيتا. فاعطته قطعة واحدة من المجوهرات كانت قد احتفظت بها (كانت مخبأة في عقدة في نهاية ساريها)، وناشدته بأن يسلمها الىٰ راما كتذكار منها.

وقبل رحيله، اتخذ هانومان شكلاً ضخماً وانزل الدمار باسوكا ڤانا وباجزاء كثيرة من لانكا كي يجعلهم على علم بزيارته. وعندما وصلت انباء هذا التخريب الىٰ راڤانا، ارسل بجيش نظامي ليهاجم ويمسك بهذا القرد، ولكنه راوغهم . وأخيراً ارسل راڤانا بابنه إندراجيت الذي امسك

بالقرد وقيدَّه (وقد سمح هانومان لذلك بان يحدث)، وأخذه أسيراً الى القصر. فسأله راڤانا عمن يكون ومن ارسله لتدمير بلده. واستغل هانومان هذه الفرصة للحديث عن راما، ونصح راڤانا بتغيير سبله، وحذَّره من إنزال الدمار العاجل به على يديْ راما.

وفي نوبة غضبه الشديد، أمر راڤانا بتدميره. ولكن اخاه ڤيبيشانا تدخل، وذكَّره بأنّ من غير اللائق قتل الرسول، وانقذ هانومان. وعندها أمر راڤانا بتبطين ذيله بالقطن المشرَّب بالنفط، واشعل النار به فقام هانومان بتخليص نفسه من القيود وأخذ يعدو على اسطح كل المنازل والمباني الأخرى، فاشعل النار في عاصمة راڤانا الفخمة. وبعد ان اطمأن الىٰ تحولها إلى رماد (تاركاً الشجرة التي جلست سيتا تحتها سليمةً)، اسرع عائداً الىٰ معسكر راما واخبره بتفاصيل كل ماشاهده وما فعله.

الفصل التاسع

مداولات راڤانا

بعد ان دمَّر هانومان عاصمة راقانا، اعاد مايا، المهندس السماوي، بناءها والآن أخذ راقانا يلقي نظرة شاملة عليها، ونسي للحظة النكسة التي عانى منها، واستغرقه إعجابه بعمل المهندس. ثم دخل الى قاعة اجتماعاته الجديدة يحيط به أقاربه ومعجبوه. ولكنه، بعد فترة، أمـر بإخراج الجميع باستثناء إخوته وقادة الجيش، وتبـاحث معهم خلف الأبواب الموصدة.، ومن مقعده الملكي، قال: «في هذه اللحظة، لاتدعونا ننسى ان سلطتي قد تحدّاها قرد وليس مقاتل! مـاذا كان يفعـل قادة جيشنا الذين تلمع اوسمتهم عندما حدث هـذا الموقف السخيف؟ في آبارنا، بدلاً من ان يرتفع الماء من الينابيع، توجد دماء. إن الدخان الذي في الهواء ليس من نيران المحرقات، وإنما من بقايـا المنازل والبيـوت المحترقة. والرائحة التي في الجو ليست رائحة عطر نادر، ولكنهـا من المسامير والشعر المحترق. لقد فقدت الكثير من الأصدقـاء والأقارب، دعك عن الرعية، وكل هذا قام به قرد! والآن دعونا نفكر فيما يجب ان

نفعله بالتالي. إننا لايمكننا حتى القول بأننا امسكنا بالقرد ودمرنـاه! إنني اريد منكم، من كل الرجال العظام المجتمعين هنـا، ان تقدمـوا النصح لي في صراحة وان تعبروا عمّا في اذهانكم.

وهنا قال قائد جيشه «إن اختطاف إمرأة في غياب زوجها عنها ليس من شيم الأبطال. لقد قضى هذان البشريان، راما وأخوه، على مقاتلين مثل كارا واربعة عشر جندياً تحت إمرته، وقد شوَّها اختك. كان عليك ان تنازل اولاً الرجلين ثم تأخذ المرأة بعد ذلك، والآن تتباكى لأن سلطتك قد اهتزت. حتى فيما بعد، فبدلاً من ان تستريح وتستمتع بالحياة في هذه المدينة الجميلة، كان عليك ان تأمرنا بالخروج لقتل هذين الاثنين على ارضهما ولكنك لم تفعل ذلك. والآن يجب علينا ان ننطلق ونفتش عن هؤلاء الذين دفعوا بهذا القرد كي نقضي عليهم. وإذا لم ننجز ذلك في الوقت المناسب، فإن مابدأ بقرد ربما لن ينتهي بقرد في المرة القادمة، ربما يقرر سرب من البعوض ان يتحدى سلطتك. يجب علينا ان نتصرف، فليس هذا وقت إطالة التفكير في الماضي.

وعندما جلس، نهض الشخص التالي المدعو ماهودارا، وهو عملاق وسط العمالقة، وقال: «أيها الزعيم! أمام قوتك التي هزَّت جبل كيلاس وأتت بكل الآلهة العظام يتوسلون إليك عند قدميك، يجب عليك ان تتجاهل مزحة قرد. اسمح لي، فسوف اذهب واشرب دماء هؤلاء الذين اطلقوا هذا القرد علينا وسأعود في لمح البصر.»

ونهض أخر وقال: «مهما كان، لقد خلق براهما القردة والبشر كطعام لنا إن في قدرتنا ان نعبر هذا المحيط الصغير ونقضي على نشاطهم. لماذا نهتم بذلك كثيراً؟ ايخشى المرء ابداً طعامه؟» ونهض آخرون وأخـذوا

يكررون عملياً كل ماقاله المتحدثون السابقون، ويؤكـدون على عظمـة راڤانا ودناءة اعدائهم. وهكذا اصبحوا في حالة ازدراء لاعدائهم حتىٰ انهم وصلوا إلىٰ نتيجة: «إن تعقب اثنين من البشر يتزعمان قطيعاً من القردة، مصحوباً بكل أدوات الحرب، لهو شيء لايليق بكـرامتنا. من الأفضل ان ننتظر تلك المخلوقات حتىٰ تغامر بالمجيء الىٰ ارضننا، في الوقت الذي يناسبها، وعندئذٍ نقضي علىٰ مغامرتها.

ثم نهض كامباكارنا، اخو راڤانا، ليقول بعض الكلمات الصريحة: «لقد قمت ببعض الافعال المتناقضة، فرغبت في امتلاك زوجة رجل آخر، وهذا ضد كل خلق حميد. والآن تفكـر في هيبتك وسمعتـك ومنزلتـك وشهرتك وقوتك ومقامك الرفيع. أخي العزيز، لقد خطفت إمرأة جميلة، ولم تصغ الى صراخها ومناشداتها، واحتفظت بها سجينـة كل هـذه الشهور. وهذا ما جلب علينا الكارثة اليوم. ولكن فكرٌ الآن في عمق. هل تريد ان تعيدها الى زوجها وتطلب الصلح أم لا؟ وحيث أنك ذهبت الىٰ مدىً بعيد، فعليك ان تحتفظ بها، ولنحارب من اجل امتـلاكها. وإذا انتصرنا فهذا حسن، ولكن إذا متنا، فلنمت. أخي العزيـز، إنني علىٰ استعداد الآن لأقود جيشاً ضد أعدائنا. ولا داعي للتأخير».

قال راڤانا: «يابُنَيّْ، لقد عبَّرت بصدق عما اشعر به في قرارة قلبي. فلنرفع اعلامنا ونجمع جيوشنا ونتقدم في الحال.»

والآن قال إندراجيت بن راڤانا: «أيها العظيم! يجب الاّ تستثار بهذه الطريقة مهما يكن، فإننا لسنا مواجهين بمقاتلين او فيلة، وإنما بحشد من القردة وبعض الرجال. يجب الاّ تتجشم عناء ملاقاتهم، واترك ذلك لي. سوف اطلق سهامي وستجد القردة، ذات الوجوه المجفلة، تصطك

أسنانها وتفر هاربةً. وبعد ذلك ساذهب واعدك بان احضر رأسي راما ولاكشمانا، وسأضعهما عند قدميك. ابق حيث انت.

عندما قال ذلك، قام ڤيبيشايا، اخو راڤانا الأصغر، بمقاطعة الشاب «إنك تهرف بما لاتعرف.» وخاطب راڤانا: «إنني اتكلم في أسى إنك كل شيء بالنسبة لي: أب وقائد ومعلم. مايحزنني هو أنك على وشك ان تفقد المكانة التي حصلت عليها بعد جهود شاقة إنني اتحدث من قلبي، وفي إخلاص، وبعد كثير من التروّي. ليس بإمكاني ان اصبح مثل الآخرين، وليست لديْ الجرأة ان اتحدث في تحدٍ. ولكني اتكلم عما اشعر بأنه الحقيقة. من فضلك، اصغِ كلياً إليّ دون ان تفقد صبرك. إن ما اشعل النار في هذه المدينة لم يكن في الحقيقة الشعلة التي بذيل القرد، ولكنه اللهب المحتدم في روح إمرأة تدعى جناكي. إن الانسان يفقد شرفه واسمه من خلال الشهوة والجشع فقط. لقد حصلت على قوى خارقة للطبيعة من خلال إنجازاتك الروحية، ولكنك اسأت استخدام قواك، وهاجمت الآلهة نفسها التي وهبتك القوة، والآن تسلك طرقاً شريرة. هل هناك احد هزم الآلهة واستمر يستمتع بذلك النصر؟ عاجلاً ام آجلاً يأتي العقاب دائما. لاتحتقر الرجال او القردة. تذكر انك لم تطلب ابداً الحماية ضد البشر، وتذكر ايضاً ان ناندي قد لعنك عندما قمت برفع جبل كيلاس، قائلاً ان نهايتك سوف تحل بفعلة قرد. وفيما بعد، عندما حاولت ان تهمّ بڤيدا ڤاتي وامسكت بشعرها، الم تلعنك قبل ان تقفز الى النار قائلةً انها سوف تولد مرة أخرى يوماً ما وستكون مسؤولة عن نهاية جزيرتك وحياتك ايضاً؟

«إذا تبصّرت في علامات الدهر، فربما تعمل هذه اللعنات الثلاث كلها

عملها. ولكن ربما مايزال في استطاعتك ان تتجنب الكارثة. تذكر انك طالما تحتفظ بسيتا أسيرة، فلن تنال انت ورعيتك الطمأنينة. فكّر في تراث راما وإنجازات داساراتا وكل الأعمال العظيمة الأخرى لأفراد سلالة اكشفاهو. إنهم ليسوا أناساً عاديين، وليست القردة التي تساندهم مجرد قردة. لقد اتخذ الآلهة تلك الهيئة، فقط لأنك وُهِبتَ الحصانة ضد الآلهة. والآن كلمة أخرى. اطلق سراح الإلهة التي حبستها، وسيثبت ذلك انه اكثر الاعمال في حياتك قيمةً وتقديراً

نظر راڤانا شزراً الى أخيه، وقال، وهو يضحك في مرارة: «لقد بدأت بجمل ومشاعر مستساغة، ولكنك مضيت تثرثر كشخص مجنون أكان ذلك خوفاً من ام حباً في هؤلاء البشر؟ إنك تذكرني بأنني لم اطلب الحماية ضد البشر. أَعَلى المرء ان يطلب مثل هذا الشيء؟ هل طلبت ابداً نعمة القدرة على رفع كيلاس؟ إنك تتكلم دون تفكير. وتعتقد أنني هزمتُ الآلهة بسبب الهبة التي انعموا بها عليّ. إنني لست في انتظار هبةٍ من احد كى افعل مايطيب لي. ولايمكن ابداً ان تمسني لعنة من احد.

«لماذا تتيه إعجاباً براما؟ ـ لأنه كسر قوس شيڤا الصديء القديم؟ ام لأنه اطلق سهامه فاخترقت جذوع تلك الأشجار السبع الذاوية؟ وفقد مملكته بسبب إمرأة محدوبة الظهر؟ وقتل ڤالي دون ان يجرؤ على الظهور أمامه؟ وفقد زوجته من خلال خدعة بسيطة جداً قمتُ بها؟ إنني مندهش انه بعد كل ذلك لم يقتل نفسه بل يستمر في العيش والتنقل! وانت حقاً معجب به! إنك تعتقد أنه من المحتمل ان يكون تجسيداً لڤيشنو. وماذا في ذلك؟ إنني لا اخشى ڤيشنو او اي شخص آخر، خاصةً ڤيشنو وهو اكثر

الآلهة هزائم، حيث لم يفز ابداً في معركة واحدة.»

وبعد ان قال راڤانا هذا، صاح «لننطلق الآن الى المعركة ونظر إلى ڤيبيشانا وقال «ليأت معي هؤلاء الذين يرغبون في ذلك.»

بذل ڤيبيشانا محاولةً أخرى ليوقفه، وناشده «لاتذهب. فسأله راڤانا في احتقار: «الأنه ڤيشنو؟ اين كان عندما سجنتُ إندرا ودمَّرتُ فيلته القوية بانتزاع أنيابها العاجية من رؤوسها؟ هل كان هذا الإله رضيعاً آنذاك؟ وعندما استوليتُ على العوالم الثلاثة وهزمتُ حتى شيڤا وبراهما، اين كان إلهك هذا؟ مختبئاً؟ هل تخلى هذا الإله عن هيئته الكونية الضخمة واختزل نفسه إلى الحجم البشري كي يجعل من الأسهل علينا ان نبتلعه؟ لاتتبعني إن كنت خائفاً، بل إبق في هذه المدينة الواسعة، التي هي رحبة ومريحة ولاتزعج نفسك»، قال راڤانا هذا وضحك في صخب مصفقاً بيديه

ومع ذلك، فقد زاره ڤيبيشانا زيارة خاصة في اليوم التالي، وحاول ان يمنعه بمزيد من المناقشات. وقد اغضب ذلك راڤانا «إنك تكره أقاربنا، وبدأت تُعجب براما ولاكشمانا وتحبهما وتغرورق عيناك بالدموع لدى تذكيرك فيهما، وتذوب حتى عظامك في المشاعر الرقيقة أنت تريد ان تكسب صداقة عدوي اللدود وأظن أنك خططت لمستقبلك بعد تفكير عميق انت خائن. وإنني اتذكر الآن عندما اتوا بذلك القرد أمامي وأمرتُ بتدميره وان يأكله خدمنا، تدخلتَ انت، قائلاً بأنه يجب الا نقتل رسولاً إنني ادرك الآن ان حديث ذلك القرد، عندما تغنَّى بمديح سيده وروى إنجازاته، قد جرفك معه. أيها الساذج، إنني اعلم أنك كنتُ تريد للنيران ان تلتهم هذه البلاد واعلم ان لك خططاً رسمتها في عمق. يجب

ألّا أعيش اكثر من هذا مع هذا السم المدعو بأخي الأصغر. والآن اتركني. وإذا كنتُ لاقتلك فلأنني لا أريد ان اكتسب وصمة قتل أخٍ اصغر، ولكن إن اصررت على البقاء أمامي، فلسوف تموت بيدي.

عندما استمع ڤيبيشانا الى ذلك، انسحب مع اربعة آخرين، ولكنه قال قبل رحيله «من سوء حظك ان تسيطر عليك عقول حقيرة. وانت لاتصغي للعدالة والسلوك المشروع. اخشى ان تُباد سلالتك بأكملها سارحل الآن كما أمرتَ.لقد حاولت ان اخبرك بما بدا مناسباً. اغفر لي اخطائي إن أخطات واساءني إن أسأت».

بعد قوله هذا، عبر ڤيبيشانا البحار ووصل الى معسكر راما على الشاطىء الآخر حيث تجمعت جيوش القردة بأعداد ضخمة.

الفصل العاشر

عبر المحيط

شاهد ڤيبيشانا راما يقف عند حافة البحر، وهو ربما كان يطيل التفكير في خطط إنقاذ سيتا فبقي بعيداً عن الأنظار لأنه لم يرغب ان يقحم نفسه عليه في تلك اللحظة ولكن عندما لاحظ قادة جيش راما وجوده، فيما بعد، ظنوا أنه جاسوس وعاملوه في خشونة. وعند ذلك صاح ڤيبيشانا بصوتٍ عالٍ «اوه، راما! لقد حضرتُ الى هنا طلباً لحق اللجوء. إنني اطلب البركة والحماية منك.»

وعندما وصلت صيحته الى راما، ارسل برسلٍ كي يحضروا المتوسل أمامه وارسل هانومان ايضا رسولاً خاصاً لحماية الزائر والتقصي عن ماضيه (وقد ظن جيش القردة انه راڤانا ذاته متنكراً، وقد وقع في أيديهم) فقام الرسول بسؤال ڤيبيشانا وعاد بتقرير الى راما، فانعم راما النظر في ذلك وسأل قادته العسكريين، الواحد تلو الآخر، عما يعتقدون بالنسبة للزائر.

فقال سوغريڤا «كيف يمكن لنا ان نثق بمن تصرف بشكلٍ غادر نحو

أخيه؟ لم أكن صديقا لأخي، ولكن قضيتي كانت مختلفة فلقد طوردت من اجل حياتي وحُرمتُ من زوجتي، ولم يترك ڤالي لي أي خيار ولكن في هذه الحالة، وباعترافه، كان اخوه راڤانا شفوقاً، ولكنه مع ذلك قطع روابطه به وأتى إلى هنا ويبدو ذلك لي غريباً حقاً لايمكننا ان نسمح له بدخول معسكرنا وعلى أية حال، فإنك في مهمة للقضاء على طبقة الشياطين. وبالرغم من كل حديثه النبيل، فهذا الشخص في الحقيقة شيطان أيضاً

بعد ذلك تقدم جامباڤان ليقول «اننا نخاطر حين ندخل اي شخص من معسكر العدو، وعندما تكتشف الحقيقة سيكون الأوان قد فات إن الشياطين معروفون جيداً بحيلهم وتنكرهم تذكر أن مابدا غزالا ذهبياً اتضح انه ماريتشا

استمع راما في صبر إلى كل شخص وطلب من قائد جيشه ان يتكلم، فقال: «لديَّ بعض المعرفة بما تقوله الكتب بخصوص العملاء والجواسيس واللاجئين. استثني أولئك الذين عانوا كثيراً على أيدي العدو، ان جندياً من جنود الأعداء أدار لهم ظهره، وهو غير قادر على ان يقاتل اكثر من ذلك، او جاراً للعدو فقد بيته وأسرته ـ عندما يأتي هؤلاء، حتى لو كانوا من أقارب اسوأ عدو، فيمكنك ان تسمح لهم بالدخول وتتقبل صداقتهم. الا اننا اذا درسنا حالة ڤيبيشانا وحللنا وقت وصوله والظروف المحيطة بذلك، لوجدنا انه لم يحدث مايدفعه الى هنا كيف يمكننا ان نثق بمجرد إدعائه الفضيلة والصلاح؟ لايمكننا ان نجد له مكانا في اي من صنوف اللاجئين المحددة في كتبنا المقدسة.» وتحدث كثيرون آخرون واعلنوا بالإجماع أنه يجب رفض ڤيبيشانا.

نظر رامـ إلى هانومان وقال «إنك لم تقل شيئا ماذا تعتقد؟» قال هانومان «بعد ان تكلم كل مستشاريك بوضوح هكذا، فإنني اتردد في التعبير عن افكاري، ولكن حيث انك تمنحني هذا الحق فدعني اؤكد لك انني لا اعتقد إن هذا الرجل شرير عندما انظر إليه يتصح لي أن له روحاً صافية ونقية، وان قلبه طيب. إنني متأكد انه حضر إليك بـدافعٍ من الحب الشديد. ولديَّ كل سبب للاعتقاد بأنه أتى باحساس من الافتتان بك. لقد سمع بمساعدتك لسوغريفا، وسمع بتنازلك لباراتا إنه يعرف مافي ـ هنك وقد أتى إليك لأنه مقتنع بان في إمكانك ان تساعده وتنقذه من طغيان أخيه لقد بذل جهده كي ينقذ أخاه ولكنه فشل. وعندما ذهبْت الى لانكا ونظرت الى ما حولي، اتيحت لي فرصة النظر إلى مافي بيته إنه، على خلاف بيوت الآخـرين من عائلتـه المتخمة بيـوتهم باللحـوم والخمر والنساء، فبيته بيت رجل تقي طاهر وعندما أمر راڤـانا بقتـلي، كان ڤيبيشانا هو من تدخل واقنعه بان يبقي على حياتي حيث انني لم اكن سوى رسول في ذلك الوقت لم يكن ينوي الحضور إلى عنا، وعليه فإنها لم تكن خطوة مقصودة. صادق ويطلب حمايتك يجب علينا ان نقبله دون اي مزيد من التفكير.»

بعد ان ستمع راما الى هانومان، اعلن إنني اتفق معك. ومهما يكن، فإن الحمايـة يجب ان تمنح لمن يطلب حق اللجـوء ومهما تكن النتائج، فإن واجبنا الأول هو الحماية حتى لو هُزمتُ بسبب تصديقي إياه، فلن يقلقني ذلك. يبقى انني فعلتُ ماهو صواب. ومن ناحية أخرى، إذا انتصرتُ في الحرب بعد رفضي له، فبالنسبة لي لن اكون بانتصاري هذا جديراً بالاستحقاق إن من يتحدث عن نفسه يجب ان نتقبل المعنى

الظاهري لكلماته، ومن يطلب حق اللجوء يجب حمايته. لقد ضحّى احد اجدادي بحياته كي يحمي حمامة طلبت حمايته من صقر. لقد حسمت أمري، وارجو من اصدقائي هنا ان يلاحظوا ذلك. دعوه ياتِ.» ونظر الى سوغريڤا وقال: «عليك ان تذهب وتخبره باننا نقبله رحب به واحضره إلى هنا

وفي الحال قاد سوغريڤا ڤيبيشانا الى حضرة راما وتحدث معه راما بكلمات رقيقة. وتقبل ڤيبيشانا صداقة راما في كياسة وتواضع وآخيرا استدار راما الىٰ لاكشمانا وقال. «اعتبر ڤيبيشانا حاكماً على لانكا، ولكنه في المنفى الآن. اعطه كل ما يحتاج اليه من وسائل الراحة وكل الاجلال الجدير بملك.

فاوضح ڤيبيشانا «لم يكن غرضي ان اطالب بتاج لانكا، ولكن حيث انك تنعم عليَّ به، فعليَّ ان اقبله صدّقني، ياسيدي، ان غرضي الوحيد في الحضور الىٰ هنا هو ان اكون معك واتلقى بركتك.» ويوماً بعد يوم تباحثوا، واوضح له ڤيبيشانا طريقة تنظيم قوات راڤانا. وطبيعة اسلحته وقوة جيشه وقد ساعد كل ذلك راما في رسم خطة للهجوم على لانكا.

كانت المرحلة التالية في عمليات راما هي محاولة عبور البحار. فوقف على شاطىء المحيط، وكلما اطال النظر إليه ازداد شعوره باليأس حول كيفية عبوره مع جيشه. فصلّى وصام لمدة سبعة ايام، واستدعى إله البحر وأمره: «افسح الطريق لجيوشي.»

فقال إله البحر: «إنني اخضع لقوانين الطبيعة مثل العناصر الأخرى. فماذا يمكنني ان افعل؟»

عندها شعر راما بالغضب وهدّد باطلاق سهامه على البحر حتى تتبخر كل المياه ويسهل مروره. فناشده إله البحر ان يكفَّ عن ذلك والاّ يدمر البحر ومخلوقاته الحيَّة واقترح: «إنني ساتقبل واستخدم افضل استخدام كل مايؤتى به إليَّ لإقامة. جسر على البحر.»

ففارق الغضب راما وقال: «فليكن ذلك.» وفي الحال احضر جيش القردة الطين وصخوراً ضخمة، وحتى اجزاءً من جبال. واشترك الرجال والقردة وكل الحيوانات في هذه المهمة. وقيل انه حتى السنجاب الصغير كان يدحرج الحصى ليملأ البحر تماماً وجاء اليوم الذى تكوَّن فيه ممر خلقته جهودهم كلهم، وعبر جيش راما عليه ونزل على ارض لانكا.

الفصل الحادي عشر

حصار لانكا

امر راقانا بانتشار صفوة قواته لحراسة مداخل العاصمة ، وقام بتعيين قواده الموثوق بهم واقاربه خاصة مسؤولين عن الاماكن الرئيسة

ومع ذلك فان عالمه بدأ ينكمش تدريجياً ، ومع تطور القتال ، خسر زملاءه الواحد تلو الأخر ولم يرجع أي شخص خرج للقتال

وفي يأسه، حاول ترتيب بعض الاجراءات المخادعة، فارسل جواسيس في لباس جيش راما من القردة كي يحرفوا ويفسدوا البعض من بين اقوى مساندي راما، مثل سوغريفا الذي كان يتحمل العبء الكامل لهذه الحرب. كما استخدم السحرة لتشويش ذهن سيتا، وهو يأمل، إن هي استسلمت له، ان ييأس راما في النهاية. فأمر ساحراً بعمل رأس مقطوعة تشبه رأس راما، ووضعها أمام سيتا كدليل على هزيمة راما وعلى الرغم من ان سيتا صُدمت في البداية، إلاّ انها سرعان ما استعادت رباطة جأشها، وظلّت غير متأثرة بما شاهدته.

وأخيراً وصل رسول من راما وقال: «أمرني راما بان احذرك من ان

نهايتك قريبة، وانه حتى الآن لم يفت الآوان بالنسبة لك كي تعيد سيتا وتطلب العفو من راما لقد سبَّبت المتاعب للعالم لفترة طويلة جداً. ولاتصلح للاستمرار كملك. وفي معسكرنا، تم بالفعل تتويج أخيك ڤيبيشانا ملكاً على هذه البلاد. والعالم يعلم بإن الشعب كله سوف يسعد في ظله.

فأمر راڤانا بقتل الرسول في الحال. ولكن القول كان اسهل من الفعل، فقد كان الرسول انغارا بن ڤالي الجبّار. وعندما حضر اثنان من الشياطين للامساك به، وضع كلاً منهما اسفل ذراع ٍ من ذراعيه وارتفع الى السماء، ثم قذف بهما. وعلاوة على ذلك، فقد رفس وحطم برج قصر راڤانا، ثم رحل. وشاهد راڤانا البرج المحطم في فزع ٍ

انتظر راما عودة انغارا، وعندما استمع إلىٰ تقريره، قررر انه لم يعد هناك مزيد من اسباب الأمل في حدوث تغيير من جانب راڤانا، وأمر بالهجوم على لانكا في الحال.

ومع ازدياد ضراوة المعركة، فقد الجانبان قدرة التمييز بين الليل والنهار. وامتلأ الجو بصيحات المحاربين وتحدياتهم وهتافهم ولعناتهم، واقتلعت الأبنية والأشجار. وكانت القردة، كما اخبر احد الجواسيس راڤانا، مثل بحر يكتسح لانكا ولم تبدُ النهاية قريبة

وفي إحدى مراحل المعركة، هاجم إندراجيت راما ولاكشمانا، برماح خفيفة ثعبانية مما جعلهما يسقطان مغشياً عليهما في ارض المعركة. وعاد إندراجيت الىٰ أبيه ليعلن انتهاء أمر راما ولاكشمانا، وان القردة، بدون قائد، سوف تُباد سريعاً

ابتهج راڤانا لدى سماعه ذلك وصاح «الم أقل ذلك؟ ايها الأغبياء

اعتقدتم انني لابد وان استسلم.» واضاف: «اذهب واخبر سيتا ان راما وأخاه قد انتهى أمِرهما. اصعد بها عالياً في مركبتي، پوشپاك ڤيمانا، واجعلها تشاهد جثتيهما على ارض المعركة.» فتم تنفيذ كلماته في الحال. ورحَّبت سيتا بفرصة إلقاء نظرة على وجه افتقدته طويلاً، وصعدت الى اعلى، وشاهدت زوجها يرقد ميتاً على الأرض اسفلها، فانهارت: «كم ارغب لو تُركتُ لحالي ولم يأتوا بي لأرى هذا المشهد. آه.. ساعدوني كي اضع حداً لحياتي.

فهمست لها تريجاتا، إحدى نساء راڤانا: «لاتيأسي، فهما لم يموتا. واوضحت لها لماذا أغمى عليهما.

وبعد برهة وجيزة، تم إبطال تأثير الرماح الخفيفة الثعبانية عندما ظهر غارودا، النسر الجبّار والعدو اللدود لكل الأفاعي على مسرح الأحداث. ولدى اقتراب غارودا، تبعثرت الرماح السامة التي كانت تطوّق راما ولاكشمانا، ونهض الأخوان على اقدامهما مرة أخرى.

ومن مكانه بالقصر، شعر راڤانا بالدهشة لسماعه مرةً أخرى هتافات حشود العدو خارج المتاريس، واستؤنف الحصار مرةً ثانيةً. كان مايزال مع راڤانا قائد جيشه وابنه إندراجيت وخمسة او ستة آخرون شعر أنه يمكنه الاعتماد عليهم في اللحظة الأخيرة. فارسلهم الواحد تلو الآخر. وتحطمت أعصابه عندما جاءته الأنباء بموت قائد جيشه.

فقال: «لاوقت للتراخي. سوف اذهب بنفسي وادمر راما هذا وحشوده من القردة.» وصعد الى مركبته ودخل ارض المعركة.

وفي هذا الصدام سقط لاكشمانا مغشياً عليه. ورفع هانومان راما على كتفية وقام بهجوم في اتجاه راڤانا. ولأول مرة، كان المقاتلان الرئيسان

وجهاً لوجه. وفي نهاية هذا الاشتباك اصيب راڤانا بجرح بالغ، وتحطم تاجه ومركبته. ووقف امام راما في عجزٍ خالي اليدين، فقال راما: «يمكنك ان تذهب الآن وتعود غداً باسلحة جديدة.» ولأول مرة في حياته التي امتدت لآلاف السنين، واجه راڤانا مهانـة قبول تنـازل، وعاد منكس الرأس إلى قصره.

أمر راڤانا بإيقاظ أخيه كومبا كارنا الذي كان معروفاً بنومه العميق. كان بإمكانه الاعتماد عليه، وعليه فقط، الآن. وكان إيقاظ كومباكارنا مهمةً ضخمة، وتوجب إشراك جيش صغير، فنفخوا في الأبواق ودقوا الطبول قرب آذانه، وأعدّوا له كميات ضخمة من الطعام والشراب، لأنه حين يستيقظ من نومه، يكون مريعاً، كان يلتهم كل من يمسك به قرب فراشه. ضربوه بالنبابيت وهاجمـوه ودفعوه وجـذبوه، وقـاموا بهـزِّه بمساعدة الفيلة. و أخيرا فتح عينيه ودفع ذراعيه بقوة مهشماً عدداً ممن ايقظوه. وبعد ان أكل وشرب، اقترب منه كبير وزراء راڤـانا واخبـره «سيدي، المعركة تدور بشكل سيء بالنسبة لنا.

فسأل، ولم يكن قد استيقظ بشكل كامل: «أية معركة؟» وكان عليهم ان ينشطوا ذاكرته: «لقد قاتل أخوك وهُزم، واعداؤنا يتغلبون علينا، واسوار حصننا تنهار..»

أفاق كومباكارنا «لماذا لم يخبرني احد بذلك من قبل؟ حسن، لم يفت الأوان: سأنازل راما هذا، فقد حلَّت نهايته.» ومشى، بعد ان قال هذا، بسرعة الى غرفة راڤانا، وقال: «لاتقلق على شيء بعد الآن. سأتولى كل شيء.»

تكلم راڤانا وبدأ القلق والانكسار في صوته. فقال كومباكارنا الذي لم

يره من قبل في هذه الحالة: «لقد اصررت على طريقك دون إن تصغي الىٰ احد، وجلبت على نفسك هذا المأزق. كان عليك ان تحارب راما وتفوز بسيتا لقد قادتك وحدها بعيداً ولم تعر لكلمات الآخرين اذناً إيه.. ليس هذ وقت الحديث عما مضى من أحداث. لن اتخلىٰ عنك كما فعل الآخرون. وسوف اجلب لك رأس راما على طبق.»

احدث دخول كومباكارنا الىٰ المعركة الفوضى، فقد دمَّر وابتلع المئات والآلاف من القردة المقاتلة، وكاد ان يقضى على سوغريڤا العظيم ذاته. وكان علىٰ راما نفسه ان يشترك في تدمير هذا الشيطان، فاطلق امضى سهامه مما أدى الى تقطيع اوصال كومباكارنا، ولكنه حارب في ضراوة بما تبقَّى سليما من جسمه وفي النهاية قام راما بفصل رأسه باحد السهام. وكانت تلك نهاية كومباكارنا.

وعندما سمع راڤانا بذلك انتحب: «لقد قُطعت يدي اليمنى.»

فذكَّره احد ابنائه: «لماذا تيأس؟ لقد وهبك براهما المناعة ضد الهزيمة، فلا تحزن.» وقال له إندراجيت: ممَّ تخشى وانا حيّ؟»

كان لدى اندراجيت القدرة على القتال وهو غير مرئي، وتسبب في احداث الكثير من التدمير في معسكر الاعداء. كما خلق شخصية تشبه سيتا. حملها في مركبته وأخذها أمام جيش راما وقتلها على مرمى البصر منهم.

اضعف ذلك تماماً من معنويات القردة التي توقفت عن القتال وصاحت «لماذا نحارب، وها هي إلهتنا سيتا قد قُتلت؟» واصاب القردة الاضطراب الشديد إلى ان حضر ڤيبيشانا لإنقاذها واستجماع قواها مرة أخرى.

وفي النهاية سقط إندراجيت على يد لاكشمانا. وعندما استمع راڤانا الى خبر موت ابنه، ذرف الدموع المريرة، واقسم: «حان اوان قتل تلك المرأة سيتا، سبب كل هذا البؤس.

وقد شجَّعت قِلَّة من انصاره هذه الفكـرة، ولكن احد مستتشـاريه نصحه: «لاتلحق الهزيمة بهدفك وتنقص من كمالك بقتل إمرأة. ليحرق غضبك راما وأخاه. إجمع كل جيوشك واذهب كي تلحق الهزيمة براما ولاكشمانا. انت تعرف ان ذلك باستطاعتك، وبعدها خذ سيتـا. ارتدِ درعك المباركة وانطلق.

الفصل الثاني عشر

راما وراڤانا في المعركة

في كل لحظة، كانت الأنباء توافي راقانا بكوارث جديدة في معسكره، فقد خسر معظم قادته، الواحد تلو الآخر. ولم يسمع ثانيةً عن أي مبارز انطلق يصيح صيحات المعركة. وعلت صيحات وصرخات وعويل ارامل المحاربين على صوت اناشيد وأغاني الانتصار التي نظمها رجال بلاطه كي تتواصل بلا انقطاع وبنبرة مرتفعة في قاعة اجتماعاته. اصبح راقانا قلقاً، وفجأة غادر القاعة وصعد الى برج يستطيع منه ان يلقي نظرة على المدينة بأكملها. واستعرض المنظر لكنه لم يستطع احتماله لقد وجد، وهو الذي قضى حياته في التخريب، ان المشهد الدموي لايحتمل. وصل الأنين والعويل الى أذنيه بوضوح تام. ولاحظ ان حشود القردة وجدت متعة بالغة في عملها الدموي. كان هذا، بالنسبة له، اكثر مما يحتمل. وشعر بالغضب الرهيب يموج داخله، مختلطاً ببعض الإعجاب ببسالة راما. وقال لنفسه: «لقد حان الوقت كي أؤدي المهمة بنفسي».

اسرع بالنزول من سلم البرج وعاد الى غرفته واستعد للمعركة.

واغتسل طبقاً للشعائر وأدّى صلوات خاصـة كي ينال بـركة شيفـا، وارتدى لباس المعركة درعاً لانظير لها واساور وتيجان. وارتدى درعاً واقيـة لكل جـزء من جسمه. وثبَّت حـزام سيفه، ثم علَّق بجسمـه كل التجهيزات اللازمة للحماية والزينة.

وعندما خرج من غرفته، كان مظهـره البطولي مثيـراً فاستـدعى مركبته التي كانت تجرها الجياد اوتسير وحدها اذا ماأصاب الجياد أذى وانتحى الناس جانباً عندما خرج من قصره ورقى مركبته. وقال لنفسه «هذا قراري. سيكون هناك سبب عن قريب، لتلك المرأة سيتا او لزوجتي ماندوداري، في ان تبكي وتتمرغ في التراب حزناً. وقبل ان ينتهي هذا اليوم، ستصبح أحداهما أرملة بالتأكيد.

لاحظ الآلهة في السماء تصميم راڤانا وشعروا بأن راما سيحتاج الى كل مساندة يمكنهم ان يحشدوها. فناشدوا إندرا ان يرسل مـركبته الخاصة كي يستخدمها راما وعندما ظهرت المركبة في معسكر راما، خلَّف تألقها وعظمتها أثراً عميقاً في نفسه، وتساءل: «كيف اتت الى هنا؟»

فأجاب سائق المركبة: «سيدي، اسمي متالي، ولي الشرف ان اكون سائق مركبة إندرا لقد أمرني براهما، الإله ذو الاربعة وجوه وخالق الكون، وشيفا الذي امدت قوته راڤانا بالجرأة على ان يتحداك الآن، ان احضرها الى هنا كي تركبها. وفي استطاعتها ان تطير اسرع من الريح فوق كل العقبات، وفوق اي جبل وبحر وسماء، وستساعدك على الخروج منتصراً في هذه المعركة.»

أخذ راما يفكر في صوت مرتفع. «ربما خلق الشياطين هذا الوهم لي. ربما تكون فخا. لا اعرف كيف احكم عليها.» عندها تحدث متالي بشكل

مقنع كي يطرد الشك من ذهن راما. ونظر راما، الذي كان مايزال متردداً على الرغم من اقتناعه الجزئي، إلى هانومان ولاكشمانا وسألهما «ما رأيكما في ذلك؟» فأجابه كلاهما: «ليس لدينا شك في ان هذه مركبة إندرا، وليست وهماً.»

ثبَّت راما سيفه وعلَّق كنانتين مليئتين بالسهام النادرة على كتفيه وصعد الى المركبة.

أمّا دقات طبول الحرب وصيحات التحدي من الجنود، والأبواق والمركبات المندفعة وهي تسرع لتواجه إحداها الأخرى، فقد احدثت خليطاً من الضوضاء يصم الآذان. وبينما اصدر راڤانا التعليمات الى قائد مركبته كي يسرع، أمر راما في لطف شديد سائق مركبته: «راڤانا في ثورة عارمة، دعه يقم بكل مايرغب فيه من اعمال غريبة حتى ينهك نفسه. إبق هادئاً حتى ذلك الحين، فليس علينا ان نسرع. تحرك في بطء وهدوء، ويجب عليك ان تتبع تعليماتي في دقة، ساخبرك متى تسرع»

أمّا مساعد راڤانا واحد أقوى مؤيديه، ماهودارا ـ وهو عملاق بين عمالقة في مظهره البدني ـ فقد طلب من راڤانا «لاتدعني مجرد متفرج عندما تواجه راما. دعني أنل شرف مصارعته، واسمح لي ان اهاجم راما»

أجاب راڤانا: «راما هو الوحيد الذي يهمني. إذا كنت ترغب في المشاركة في القتال، فيمكنك ان تقاتل أخاه لاكشمانا.»

وعندما لاحظ راما هدف ماهودارا، اتجه بمركبته ليقطع عليه الطريق ويمنع ماهودارا من الوصول الى لاكشمانا. وعندها أمر ماهودارا سائق مركبته: «إنطلق الآن الى الأمام مباشرةً الى مركبة راما.»

فنصحه سائق المركبة، الذي كان اكثر دراية منه «لن اقترب من راما. فلنبق بعيدين عنه.» ولكن ماعودا، العنيد الذى اسكرته حمّى الحرب، اتجه مباشرةً نحو راما، فقد اراد ان يحظى بشرف منازلة راما نفسه في نزال مباشر، على الرغم من نصيحة راڤانا ودفع ثمناً باهظاً من اجل هذا الشرف، فقد استغرق القضاء عليه لحظة واحدة من راما، وتركه على ارض المعركة بعد ان فارقته الحياة واصبح مشوهاً، وعندما لاحظ راڤانا ذلك ازدادت ثورته، وأمر سائقه «لاتتوان الآن. اسرع.» والآن كان هناك الكثير من الشواهد المنذرة بالسوء ـ فقد تقطعت فجأة اوتار قوسه، واهتزت الجبال، ودمدمت السموات مرعدةً، وسالت الدموع من عيون الخيل، وتحركت الفيلة، ذات الجبهات المزركشة، في اكتئاب. وعندما انتبه راڤانا الى ذلك، تردد للحظة فقط وقال. «لايهمني ذلك. إن راما هذا مجرد إنسان ولا أهمية له. ونذر الشؤم هذه لاتخصني على الاطلاق.» في ذلك الوقت، توقف راما للحظة ليفكر في خطوته التالية، وفجأة استدار ناحية الجيوش المساندة لراڤانا، والتي امتدت حتى الأفق، فدعرها وشعر ان هذه الطريقة قد تنقذ راڤانا، فبعد القضاء على جيوشه كان من المحتمل ان يغير راڤانا من موقفه ولكن التأثير الوحيد تحفيزه على الاستمرار عمله، فاندفع الى الامام وأخذ يقترب

من،

انفسح جيش اما الطريق لمركبة راڤانا حيث لم يستطع ... امام قوة اندفاعه نفخ راڤانا في محار ودوّت صيحة ... حدي الحادة في الفضاء. تبعتها صيحة محارة أخرى، تُسمى «پانشاجانيا» وتخص مهاڤيسنو ... قبل بجسده الرامى والتي نطلق

صوتها تلقائياً تجيب على التحدي وتهز الكون بترديدها. ثم التقط متالي محارة أخرى وهي محارة إندرا، ونفخ فيها. وكانت تلك إشارة بدء المعركة الفعلي. وفي الحال اطلق راڤانا وابلاً من السهام على راما وادار اتباع راما رؤوسهم، غير قادرين على تحمل رؤية جسمه وقد اخترقته السهام. بعد ذلك نظرت خيول راڤانا وراما شزراً وفي عداء الىٰ بعضهما البعض، واصطدمت الأعلام التي بأعلى المركبتين ـ كان رمز الڤينا على علم راڤانا، وعلىٰ علم راما شارة الكون كله ـ واستمع المرء إلى اصوات رنين اوتار الأقواس في كلا الجانبين وهي تغطي على كل الأصوات الأخرى. وتبع ذلك وابل من السهام من قوس راما. ووقف راڤانا يحملق في المركبة التي ارسلها إندرا، وأقسم: «إن هؤلاء الآلهة، بدلاً من ان يساندوني، ذهبوا لمساندة هذا الإنسان الحقير. سوف القنهم درساً. إنه لايستحق ان يقتل بسهامي، ولكني سامسك به وبمركبته وساقذف بهماً معاً إلىٰ أعلى السماء وأنزل بهما الدمار.» وعلى الرغم من قسمه هذا، إستمر في توتير قوسه وارسل بوابلٍ من السهام على راما، ممطراً إيّاه بالآلاف منها، إلا أنه تم بعثرتها كلها في ثبات وإبطال مفعولها بفعل سهام قوس رأما التي واجهت سهماً بسهم. وأخيراً استعمل راڤانا، بدلاً من قوس واحد، عشرة اقواس باذرعه العشرين، وضاعف بذلك هجومه عشر مرات. ولكن راما صمد دون اية إصابة.

وفجأة ادرك راڤانا ان عليه ان يغيِّر خططه فأمر سائق مركبته بان يطير الىٰ اعلى السموات. ومن هناك هاجم ودمَّر عدداً كبيراً من جيش القردة المساند لراما فأمر الأخير متالي: «ارتفع في الجو جنودنا الشباب يُهاجمون من السماء. إتبع راڤانا ولاتبطىء.»

تبع ذلك مطاردة في الاعالي في سرعة شديدة عبر قبة السماء وحافة الأرض. وانهمرت سهام راقانا كالمطر، فقد اعتزم تدمير كل شيء في العالم. ولكن سهام راما حرفت سهام راقانا عن طريقها او كسرتها او ابطلت مفعولها. وتابع الآلهة هذه المطاردة، وهم في شدة الهلع. وبعد قليل اصابت سهام راقانا خيول راما واخترقت قلب متالي ذاته، فسقط سائق المركبة. وتوقف راما للحظة في حزن، وتردد بالنسبة لخطوته التالية. ثم عاد إلى وضعه السوَي واستأنف هجومه. وفي تلك اللحظة شوهد النسر الإلهي غارودا جاثماً على سارية علم راما، وشعر الآلهة الذين كانوا يرقبون، المعركة انه من الممكن ان تكون هذه علامة البشرى.

وبعد ان قامت المركبتان المتبارزتان بالدوران حول الكرة الأرضية عدة مرات، عادتا واستمر القتال فوق لانكا. كان من المستحيل تحديد مكان المعركة بوضوح حيث دار القتال هنا وهناك وفي كل مكان. واخترقت سهام راما درع راقانا وجعلته يجفل. كان راقانا عديم الحس بالالم ولايتأثر بأى هجوم. لهذا كان إجفاله علامة طيبة، وأمل الآلهة ان يكون هذا نقطة تحول الىٰ الأحسن. ولكن وفي هذه اللحظة، غيَّر راقانا فجأة من خططه. فبدلاً من مجرد إطلاق سهامه، والتي كانت قوية في حد ذاتها، قام ايضاً باستحضار عدة قوى خارقة للطبيعة من اجل إحداث تأثيرات غريبة، فقد كان محنكاً في استخدام أسلحة متنوعة في الإمكان ان يجعلها فعَّالة بفعل عزائم ورقى خاصة. وعند هذا، اصبحت المعركة هجوماً بقوى خارقة للطبيعة، وتفادياً للهجوم المماثل بوساطة قوى أخرى خارقة للطبيعة.

ادرك راڤانا ان مجرد تهديف رماحه بعشرة او عشرين من اذرعه غير مجد. لأن هذا الإنسان، الذي كان قد اعتقد في إزدراء بإمكانية القضاء عليه بجهدٍ بسيط، أثبت انه لايمكن التغلب عليه، لابل أن سهامه بدت تخترقه وتسبب له الألم. وكان احد الأسلحة، التي اطلقها راڤانا، يُسمى «راندا»، وهو هدية خاصة من شيڤا، وله القدرة على تعقب هدفه وتدميره. وعندما جاء يضيء بلهبه، شعر الآلهة بالخوف. ولكن سهم راما ابطل مفعوله

والآن قال راڤانا يحدث نفسه «هذه أسلحة تافهة يجب عليَّ في الحقيقة ان اركز تفكيري على العمل المناسب.» واستحضر سلاحاً يسمى «مايا» ـ وهو سلاح يخلق الأوهام ويربك العدو.

وبرقى وعزائم مناسبة. اطلق هذا السلاح فخلق وهماً بعودة الحياة الى كل الجيوش وقوادها ـ كومباكارنا وإندراجيت والآخرين ـ ورجوعهم إلى أرض المعركة. وفي الحال وجد راما ان كل هؤلاء، الذين اعتقد انهم قد قضي عليهم، يطلقون صيحات القتال ويحاصرونه، كما عاد كل شخص. كان في جيش الاعداء، بسلاحه مرة أخرى. وبدوا وكأنهم ينقضّون على راما ويطلقون صيحات النصر. كان ذلك مربكاً جداً، فسأل راما متالي، الذي كان قد أعاده الى وعيه الآن. «ماذا يحدث الآن؟ كيف عاد كل هؤلاء؟ لقد كانوا أمواتاً.» فاوضح له متالي «في صورتك الأصلية، انت خالق الأوهام في هذا الكون. لتعلم، ان راڤانا خلق أشباحا كي يربكك. وإذا توصلت إلى قرار، فبإمكانك ان تبددها في الحال.» كان تفسير متالي مساعدةً عظيمةً. فقد استحضر راما سلاحاً يسمى «جنانا» ـ ومعناها «الحكمة او «نفاذ البصيرة». كان ذلك سلاحاً نادراً، فاطلقه.

وتبخرت فجأة كل الجيوش، التي بدت وكأنها جاءت في تلك الحشود العظيمة

بعد ذلك اطلق راڤانا سلاحاً يُسمى «تاما»، كان من طبيعته ان يخلق ظلاماً دامساً في كل العوالم.وانهمرت سهام لها رؤوس تكشف عن عيون مخيفة وأنياب وألسنة نارية. ولفّ الظلام الدامس الأرض من بدايتها الى نهايتها وشُلَّت الخليقة كلها. وقد خلق هذا السلاح ايضاً طوفاناً من الأمطار في جانب، ووابلاً من الأحجار في جانب آخر، وعاصفة بَرَد تسقط متقطعة، واعصاراً يكتسح الأرض. كان راڤانا متأكداً ان ذلك سيصد مغامرة راما ولكن راما تمكن من مواجهتها بما يُسمى «شيڤا سترا»، فلقد ادرك طبيعة الظاهرة وسببها، واختار السلاح المناسب لإبطال مفعولها

والآن اطلق راڤانا ما كان يعتبره اكثر اسلحته إهلاكاً ـ رمحاً ثلاثي الشُعب له قوة تدميرية خارقة اهداه الآلهة ذات مرة الى راڤانا وعندما بدأ الرمح رحلته، كان هناك ذعر حقيقي في المكان كله. واتجه متوهجاً صوب راما، ولم تتأثر سرعته او مجراه بما اطلقه عليه من السهام.

وعندما لاحظ راما ان سهامه تسقط بلا فاعلية، بينما الرمح ثلاثي الشُعب يتجه نحوه، انتابه الارتباك للحظة. وعندما اصبح على مقربة منه، نطق ببعض المقاطع السحرية من أعماقه. وبينما كان يلفظ تلك التعويذة، وبمقطع سرِّي في وقت مناسب، سقط الرمح ثلاثي الشُعب. ودهش راڤانا، الذي كان متأكداً من هزيمة راما برمحه ثلاثي الشُعب عندما رآه يسقط على مسافة بوصة واحدة منه. وللحظة عجب من كون عدوه كائناً سماوياً رغم انه يبدو كالبشر. وتفكر راڤانا في نفسه: «ربما

يكـون هذا الإلــه الأعظم. من يمكن ان يكون؟ ليس شيڤـا لأن شيڤا يساندني. لايمكن ان يكون براهما ذا الوجوه الأربعة ولايمكن ان يكون ڤيشنو، لأن لديّ المناعة ضد اسلحة الثلاثي الإلهي كله، ربما يكون هذا الإنسان الكائن الأصلي وأصل الكون كله. ولكن مهما يكن، فلن اتوقف عن القتال حتى اهزمه واسحقه او في الأقل آخذه أسيراً

وبهذا القرار، ارسل راڤانا بعد ذلك بسلاح انطلقت منه ثعابين بشعة تتقيأ ناراً وسماً، لها أنياب هائلة وعيون حمراء. وجاءت تنقض من جميع الاتجاهات.

واختار راما الآن سلاحاً يُسمى «غـارودا» (وتعني «النسر»). وفي الحال كانت آلاف من النسور تطير عالياً وتنقض على الثعابين بمخالبها ومناقيرها، فقضى عليها. وعندما شاهد راڤانا هذا السلاح ايضاً يفشل، ازداد غضبه كثيراً، وبشكل اعمى افرغ ملء كنانةٍ من السهام في اتجاه راما. والتقت سهام راما بها في منتصف الطريق، وجعلتها تستـدير. وهكذا ارتدت وانغرزت نقاطها الحادة في صدر راڤانا.

كان راڤانا قد أخذت روحه تهن، وادرك انه قد استنفد حيله، ولم يعد هناك فائدة من علمه وكل اسلحته، ووصل الآن الىٰ نهاية مواهبـه في التدمير. وبينما كان ينتابه الإنهيار هكذا، كانت معنويات راما في ارتفاع. كان المتحاربان الآن قريبين بعضهما من بعض لدرجة تكفي للتماسك بالأيدي. وادرك راما ان هذه افضل لحظة كي يقطـع رؤوس راڤانـا، فاطلق سهماً على شكل هلال فقطع واحدةً من رؤوس راڤانا والقى بها بعيداً في البحر، واستمر في هذه العملية. ولكن في كل مرة قطعت فيها رأس، كان لدى راڤانا القدرة على ان تنمو واحدة أخرى مكانها. واستمر

عمل سهم راما ذي الشكل الهلالي، بينمـا استمرت رؤوس راقـانا في النمو. وبتر راما اذرع راقانا، ولكنها نمت مرةً أخرى، واصابت كل ذراع مبتورة متالي والمركبة، وحاولت ان تنزل بها الدمار. وتحرك اللسان في كل رأس جديدة واطلق التحديات، ولعن راما. أمّا علىٰ رؤوس راقانا المبتورة، فقد أدَّت الشياطين وصغار العفاريت، التي كانت في رعب من راقـانا وأطاعته وجعلته سعيداً طوال الوقت، رقصة الموت، وجعلت من اللحم وليمة لها.

والآن اصبح راقانا يائساً. حيث انغرزت سهام راما في مئات الأماكن من جسمه، فاضعفته. وسرعان ما انهار على قاع مركبته مغشياً عليه. وعندما لاحظ سائق مركبته حالتـه، انسحب واوقف المركبـة جانبـاً. وهمس متالي لراما: «هذه لحظة القضاء على ذلك الشيطان. إنه مغشي عليه. تقدم، تقدم.»

ولكن راما نحى قوسه جانباً وقال: «ليس من العدالة في الحرب ان تهاجم شخصاً مغشياً عليه. سانتظر. دعه يعد الى وعيه.» وانتظر.

وعندما استعاد راقانا وعيه، غضب من سائق مركبته لانسحابـه، واخرج سيفه صائحاً: «لقد انزلت بي العار. إن المتفرجين سيعتقدون انني انسحبت.» ولكن سائق مركبته اوضح له ان راما توقف عن القتال مؤقتاً وامتنع عن الهجوم عليه وهو مغشي عليه. وبشكل ما، شعر راقانا بالتقدير لهذا الإيضاح، فربت علىٰ ظهره واستأنف هجومه. وبعد ان استنفد كل أسلحته، بدأ راقـانا يقـذف راما، في يـأس، بكل انـواع الأشياء، مثل الهرّاوات والكرات الصلبة والصخور الثقيلة، والبقايـا التي تمكن من ان يضع أيديـه عليها. ولم تلمس أي مِنهـا راما، بـل

انحرفت عنه وسقطت بلا اي تأثير. واستمر راما في إطلاق سهامه. وبدا كما لو أنه لانهاية لهذا الصراع.

والآن كان علىٰ راما ان يتوقف ليفكر في إجراء نهائي يتخذه كي ينهي هذه المعركة. وبعد كثير من التفكير، قرر ان يستخدم «براهما سترا»، وهو سلاح صمَّمه بشكل خاص الخالق براهما في مناسبة سابقة عندما كان عليه ان يمد شيئا بسلاح لكي يدمر تريپورا، الوحش العجوز الذى اتخذ اشكال الجبال الطائرة، وأقام مسكنه علىٰ المستوطنات والمدن ساعياً الىٰ تدمير العالم. كان البراهما سترا هبةً خاصةً تستخدم فقط عندما تفشل كل الوسائل الأخرى. وبالصلوات والتعبد، استحضر راما الآن قوته الكاملة وارسل ذلك السلاح في إتجاه راڤانا مستهدفاً قلبه وليس رأسه، حيث كان من الممكن ان يصاب راڤانا في القلب، لأنه كان قد أقام الصلوات من اجل مناعة رؤوسه واذرعته العديدة، ولكنه نسي ان يقوي قلبه، حيث نفذ البراهما سترا وانهى حياته.

راقبه راما وهو يسقط من مركبته، ورأسه الى اسفل ووجهه على الأرض. كان ذلك نهاية الحملة العظيمة. والآن توهج وجه راڤانا بصورة جديدة.كانت سهام راما قد ازالت طبقات الخبث والغضب والغرور والقسوة والشهوة والأنانية التي غطَّت قشرتها حقيقة ذاته. والآن برزت شخصيته في شكلها الاول ـ فهو امرؤ ورع له القدرة على إحراز مكاسب هائلة. وبدا الآن ان تأمله الدائم في راما، رغم كونه عدواً، قد أعطى ثماره، فقد أضاء وجهه بالسكينة والأمان. لاحظ راما ذلك من أعلى مركبته، فأمر متاي: «انزل بي إلىٰ الأرض.» وعندما هبطت المركبة واستقرت على عجلاتها، ترجَّل راما وقال لمتالي: «اشكرك علىٰ خدماتك لي.

يمكنك ان تعيد المركبة الآن الىٰ إندرا.»

اقترب راما، يحيط به اخوه لاكشمانا وهانومان وكل القادة العسكريين الآخرين، من جثة راڤانا، ووقف يحدِّق فيها. ولاحظ ان تيجانه ومجوهراته قد تبعثرت اجزاؤها علىٰ الأرض. وغطّى الدم الأوسمة والدرع ذات الصنعة الفائقة علىٰ صدره. وتنهد راما كمالو انه يقول: «لم يكن ليتعذر عليه شيء لولا الرغبات الشريرة داخله!»

في هذه اللحظة، وبينما كانوا يُعدِّلون من جثة راڤانا الملطخة بالدم، أصيب راما بصدمة شديدة عندما لاحظ وجود ندبة علىٰ ظهر راڤانا، فقال مبتسماً: «ربما ليس هذا فعلاً أفخر به، حيث انه يبدو أنني قتلت عدواً كان يدير ظهره ويتراجع. ربما اخطأت في إطلاقي البراهما سترا عليه.» وبدا القلق عليه لهذه الهفوة المزعومة من جانبه حتىٰ ان ڤيبيشانا، اخو راڤانا، تقدم ليوضح له: «إن ما انجزته فريد، وإنني لأقول هذا رغم انه يعني موت أخي.»

قال راما: «ولكني هاجمتُ رجلاً ادار ظهره. انظر إلىٰ تلك الندبة.

فاوضح له ڤيبيشانا: «إنها ندبة قديمة. ففي الأزمنة القديمة، وعندما كان راڤانا يستعرض قوته حول الكرة الأرضية، حاول ذات مرة ان يهاجم الفيلة السماوية التي تحرس الجهات الأربع. وعندما حاول الإمساك بها، اخترق احد انيابها ظهره، وتلك هي الندبة التي تراها الآن. إنها ليست ندبة حديثة العهد رغم ان دماً حديثاً ينساب منها.»

تقبل راما التفسير وقال: «عاملوه باحترام وبجّلوا ذكراه كي تذهب روحه الىٰ السماء حيث مكانه. والآن سأترككم كي تشرفوا على الاستعدادات لجنازته، والتي تتناسب مع عظمته.»

الفصل الثالث عشر

مقتطف من «ڤـاليميكي»* لربط الأحداث

---

* من كتاب ألهة وشياطين و آخرون.

بعد موت راڤانا، ارسل راما هانومان كي يحضر سيتا. استولى الفرح على سيتا فقد كانت حزينة طوال الوقت، واهملت تماماً ملبسها ومظهرها ونهضت في الحال كي تخرج وتقابل راما وهي في حالتها تلك. ولكن هانومان اوضح لها ان رغبة راما الخاصة هي ان تلبس وتزين نفسها قبل ان تأتي الى حضرته.

وتجمع حشد كبير حول راما. وعندما وصلت سيتا متلهفة، بعد شهور من عزلتها ومعاناتها، استقبلها زوجها أمام جمهور كبير. فشعرت بحرج ولكنها تقبلت ذلك في استسلام. ولكن مالم تستطع ان تفهمه هو ان زوجها بدا مشغول البال ومكتئباً وغير مبالٍ. ومع ذلك فقد القت بنفسها عند قدميه ثم وقفت على مسافة تبعد قليلاً عنه، وقد شعرت بحائلٍ غريب بينها وبينه.

ظل راما يفكر للحظة ثم فجأة قال: «لقد انتهت مهمتي. لقد اطلقت سراحك الآن، وانجزت مهمتي. لم يكن كل هذا الجهد من اجل الحصول

علىٰ رضا شخصي لكِ او لي، إنما لأصون شرف سلالة الإكشفاهو وادافع عن مبادىء اجدادنا وقيمهم. بعد كل هذا، يجب ان اخبرك انه ليس من المعتاد ان نعيد الىٰ الحياة الزوجية العادية إمرأة أقامت بمفردها في منزل شخص غريب. ولا يمكن ان يكون هناك مجال لنا للعيش معاً مرةً أخرى. اترك لك حرية الذهاب الىٰ حيث ترغبين، واختيار المكان الذي تعيشين فيه، فلا قيد مني بعد الآن عليك.»

عندما سمعت سيتا ذلك، انهارت وبكت: «اذن لم تنته محنتي بعد. لقد ظننتُ ان متاعبنا انتهت بانتصارك..! فليكن.» واشارت إلىٰ لاكشمانا وأمرته: «إشعل ناراً في الحال، علىٰ هذه البقعة.

تردد لاكشمانا ونظر إلىٰ أخيه متسائلاً إذا ما كان سينسخ هذا الأمر. لكن راما بدا غير مهتم وميالاً للإذعان. جمع لاكشمانا، الذي كان دوماً الرسول المطيع، حزمةً من العصيّ وأعدَّ محرقةً مرتفعة خلال وقت قصير. وأخذ الحشد كله يراقب مايجري وقد أذهله تحول مجرى الأحداث. وعلا اللهب إلىٰ ارتفاع شجرة، ورغم ذلك لم يصدر من راما أي تعليق، بينما كان يشاهد مايجري.

اقتربت سيتا من النار وسجدت أمامها، وقالت: «اوه أغني، ياإله النار العظيم، كن شاهدي.» والقت بنفسها الىٰ النار.

ومن قلب اللهب، نهض إله النار حاملاً سيتا، وسلَّمها الىٰ راما مع عبارات التبريك. والآن، وبعد ان امتلأ راما بالرضا لأنه اثبت استقامة زوجته أمام العالم، اخذها بين ذراعيه ورحَّب بها.

الفصل الرابع عشر

التتويج

اوضح راما انه كان عليه ان يقوم بهذا الاختبار كي يثبت، دون اي شك، للعالم كله طهارة سيتا. وبدا هذا تناقضاً غريباً من جانب شخص اعاد للحياة واحدةً مثل أهاليا ارتكبت إثماً واضحاً ثم ردّها الى زوجها. ثم هناك زوجة سوغريڤا التي اضطرت الى العيش مع ڤالي، والتي اوصى راما بأنها جديرة بان يستعيدها سوغريڤا بعد موت ڤالي. وفي حالة سيتا، لم يستطع راڤانا، على الرغم من محاولاته المتكررة واليائسة، ان يقترب منها، ولم يمس طهرها. وقد ادَّت صفتها النارية الأساسية الى إشتعال إله النار ذاته، كما اعترف هو بعد محنة سيتا. في ظل هذه الظروف، كان من الغريب أن يتكلم راما بجفاء كما فعل لدى رؤيته لسيتا، يخضعها لتجربة مروِّعة

والآن شعر الآلهة، الذين راقبوا هذا في قلق، براحة عميقة. ولكن كان لديهم ايضاً شعور قلق بان راما ربما فقد إدراكه لحقيقة شخصه. وبدا هذا يحدث المرة تلو الأخرى. لقد كشف مسلك راما عن قصور الهيكل

البشري، وكان من الضروري تذكيره، من أن لآخر، بألوهيته. والآن تقدم براهما الخالق ليتكلم، وخاطب راما هكذا: «من بين الثالوت الإلهي، انا الخالق، وشيفا المدمر، وفيشنو الحامي. وثلاثتنا نستمد وجودنا من الإله الأعظم، ونحن نخضع للفناء والميلاد من جديد. ولكن ليس للإله الأعظم الذي خلقنا بداية او نهاية. ليس هناك، بالنسبة للإله الأعظم، ميلاد او نمو او موت. إنه أصل الأشياء كلها، وفيه يستوعب كل شيء في النهاية. ذلك الإله هو أنت، وسيتا، التي الىٰ جانبك الآن، جزء من تلك الألوهية. ارجو ان تتذكر ان هذه هي حقيقتك ولاتدع الخوف والشكوك، التي تنتاب انساناً عادياً، تؤثر فيك ابداً. إنك ابعد من أن يمسك شيء، وإننا لمباركون حقاً لأننا نحظى بحضرتك.

وفي السموات العليا، شجع شيفا داساراتا على أن ينزل الىٰ الأرض ويقابل راما، وقال له: «إن راما يحتاج إلى بركتك بعد ان قام بتنفيذ اوامرك، وبعد ان مرَّ بكل ذلك الحرمان لمدة اربعة عشر عاماً ليُتِمّ تنفيذ وعودك.» ونزل داساراتا في هيئته الحقيقية الىٰ وسط أسرته، فتهلل راما لرؤيته ثانيةً وسجد عند قدميه.

فقال داساراتا: «إن هذه أسعد لحظة بالنسبة لي. ولأول مرة طوال هذه السنين يخلو قلبي من الهموم. إن ذكرى الإستفادة الشريرة التي استفادتها كايكيي من وعدي لها، قد انغرزت في قلبي مثل شظّية، وبقيت هناك. وعلىٰ الرغم من أنني تخليتُ عن جسدي، ظلّ الألم ولم يخفت ـ حتى هذه الدقيقة. لقد انتهى الآن. إنك وسيتا تكوِّنان الكائن الأساسي. وقد حلَّت عليَّ البركة بعد ان ولدت كابن لي. هذه لحظة إكتمل فيها الإنجاز، بالنسبة لي. ليس لديّ ما أقوله اكثر من هذا سأعود الى عالمي

واستريح هناك في طمأنينة أبدية - ولكن قبل ذهابي، أريدك ان تطلب مني شيئاً، أي شيء، أية رغبة استطيع ان احققها لك.

قال راما: «إن مجيئك الىٰ هنا أعظم هدية بالنسبة لي. وليس هناك شيء أخر اطلبه. كانت رغبتي الوحيدة، الدائمة، ان اراك ثانيةً، وقد تم ذلك. أصرَّ داساراتا علىٰ ان يبدي راما رغبةً يستطيع ان يمنحها له. فقال راما: «إذا كانت تلك رغبتك، فارجوك ان تجد مكاناً في قلبك لكلٍ من كايكيي وباراتا، وان ترجع عن قسمك الذي قطعت به علاقة الدم التي بينهما وبينك. لايمكنني ان افكر فيها سوى كأمٍ وباراثا كأخٍ لي.

أجابه داساراتا في الحال: «إن باراتا مختلف، وقد أثبت عظمته. نعم، سوف اقبله. ولكن كايكيي - انزلت الخراب بنا جميعاً. لقد منعت تتويجك في اللحظة الأخيرة. لايمكنني ان اعفو عنها ابداً.

فاوضح له راما: «لم تكن غلطتها. لقد ارتكبتُ خطأً فاضحاً لايغتفر بقبولي الفوري للملك عندما عرضته عليَّ، دون ان اتمهل لأتدبر العواقب. كان يجب عليَّ ان اتروىٰ اكثر. لم تكن غلطتها.» واصل راما رجاءه من اجل كايكيي في حرارة حتى ان داساراتا وافق في النهاية. ورُفع عبء ثقيل عن قلب راما، وشعر بالطمأنينة الكاملة مع العالم مرة أخرى. وباركه داساراتا وقدَّم له بعض الارشادات، ثم ودَّعه. ثم ودَّع سيتا ولاكشمانا، كلاً على حدة، وعاد إلى مكانه في السماء.

وعندما تم ذلك، اشار الآلهة علىٰ راما «غداً، وهو اليوم الخامس للبدر، سوف تكمل اعوام نفيك الأربعة عشر. ومن الواجب ان تظهر ثانيةً في أيوديا عند اكتمال هذه الفترة. إن باراتا ينتظرك، موطد العزم، عند ناندغرام. فإذا لم تظهر هناك في الساعة المحددة، فإننا نخشى التفكير

فيما قد يفعله بنفسه.

ادرك راما ان الأمر ملح، فاستدار إلى ڤيبيشانا وسأله: «هل هناك وسيلة تساعدني بها كي أعود الى أيوديا خلال يوم واحد؟»

فقال ڤيبيشانا: «ساعطيك اليوشپاك ڤيمانا. لقد كانت لكوبرا في وقت ما، وامتلكها راڤانا فيما بعد لاستخدامه الخاص. ولسوف تعيدك الىٰ أيوديا في الوقت الذى تريد.» وأمر باحضار الڤيمانا في الحال.

صعد راما إلى هذه العربة، وأخذ معه جيشاً كاملاً وكل انصاره، مثل ڤيبيشانا وسوغريڤا وآخرين رفضوا ان يفارقوه. وبدأ رحلة العودة الىٰ أيوديا. وأثناء طيرانهم، كان يلفت نظر سيتا إلىٰ معالم متعددة عبرها اثناء حملته. وعندما عبروا مداخل لانكا الشمالية، اشار إلى البقعة التي سقط فيها راڤانا في النهاية. طاروا فوق جبال وغابات، وكان لكل شبر من الأرض معناه بالنسبة لراما. ونزل لفترة قصيرة عند كيسكندا حيث عبَّرت سيتا عن رغبتها في ان تجمع مجموعةً من النساء ليرافقنها عند دخولها الىٰ أيوديا. وتوقف ثانيةً عند صومعة الحكيم بارادواج الذي اكرم ضيافته ذات مرة. وعند هذه النقطة، ارسل راما بهانومان ليسبقه إلىٰ ناندغرام ويخبر باراتا بوصوله.

في ناندغرام، كان باراتا يحصي الساعات وقد ادرك ان السنة الرابعة عشرة اوشكت على الانتهاء. لم يكن هناك اية إشارة ولا أية أخبار من راما بعد. وبدا كما لو ان تقشفه واعماله التكفيرية، طوال هذه السنين، لم تؤت ثمارها، واصبح بائساً. كان قد احتفظ بحذاء راما متوجاً علىٰ قاعدة، وكان يحكم كوصى على العرش. واستدعى أخاه ساتروغنا وقال له: «لقد حان وقتي لااستطيع ان اتخيل أين ذهب راما او أي مصير حلَّ

به. لقد اعطيتُ كلمتي بان انتظر لمدة اربعة عشر عاماً، وبعد لحظات قليلة سوف ينتهي ذلك. وليس لي الحق في العيش بعد ذلك. إنني اتنازل الآن عن مسؤلياتي لك. ستعود أنت الى أيوديا وتستمر في الحكم كوصى علىٰ العرش.» وأعد العدَّة كي يرمي بنفسه الىٰ النار.

فناقشه ساتروغنا وحاول ان يثني باراتا عن عزمه بطرق شتى. ولكن باراتا كان عنيداً. ولحسن الحظ وصل هانومان في تلك اللحظة في هيئة شاب براهماني، وكان اول شيء فعله هو إطفاء النار. فسأله باراتا: «من أنت؟ بأي حقٍ تطفىء ناراً او قدتها انا؟»

فاوضح له هانومان: «لقد احضرتُ رسالة لك من راما. وسوف يصل الىٰ هنا بعد قليل.

لم يصدقه باراتا، وعندها اتخذ هانونان، للحظة، هيئتة الضخمة، واوضح من يكون. ثم قصَّ علىٰ باراتا كل الأحداث التي وقعت خلال هذه الأعوام الاربعة عشر. وختم كلامه قائلاً: «والآن، أصدر اعلاناً عاماً عن وصول راما. ولتزيَّن كل الشوارع والمباني لاستقباله.

أدّى هذا الخبر الى تبدل الجو كله. فقام باراتا في الحال بإرسال الرسل الىٰ المدينة وأقام الاستعدادات ليستقبل راما ويعود به الىٰ مكانه الشرعي في أيوديا.

بعد قليل وصلت ڤيمانا، مركبة راما. وتجمعت أمهات راما، ومن بينهن كايكيي، في ناندغرام لاستقباله. كان تجمع الشمل بهيجاً. وكان اول شيء فعله راما هو التخلي عن ردائه البسيط جداً. وأعد نفسه وارتدى ملابس تليق به كملك، واشار علىٰ سيتا بان تحذو حذوه. واستقبل ڤاسيشتا الملك والملكة الجديدين، وحددً ساعة التتويج التي أعيقت اربعة عشر عاماً.

خاتمة

دخل راما إلى أيوديا بعد اربعة عشر عاماً من النفى، خلّص خلالها هذا العالم من قوى شريرة كانت مصدر عذاب له لعدة قرون. كان لقاء جمع الشمل سعيداً في العاصمة. واستؤنفت احتفالات التتويج التي كانت قد اوقفت قبل اربعة عشر عاماً. وأحاط اصدقاء راما ومؤيدوه به. كان هناك هانومان وسوغريفا وكل الآخرين من كيسكندا في هيئة بشر لكي يماثلوا ملامح مضيفيهم الجسدية. وكان ڤيبيشانا، خليفة راڤانا في لانكا، ضيف الشرف. واحاطت أم راما وزوجات أبيه به، حتىٰ كايكيي التي تخلّت عن قساوتها. كان ملوك الأرض هناك، وايضاً كل الآلهة في هيئة بشر. وكانت تلك اعظم لحظة رضا بالنسبة لباراتا، فقد تم تحقيق قسمه بان يرى أخاه على العرش. وانتهت، بالنسبة للجميع، فترة المحن والتضحيات.

وتم تتويج راما امبراطوراً في ساعة ميمونة من اليوم الذي وقع عليه الاختيار. وقد جلس على العرش، وإلىٰ جانبه سيتا تحت «مظلة الدولة البيضاء» (كما وصفها داساراتا)، وامسك في يده اليمنى بالكودا ندا، وهي القوس التي خدمته كثيراً كل هذه الأعوام. ووقف لاكشمانا علىٰ بعد خطوة واحدة خلفه، في إخلاص ويقظة. وركع هانومان عند قدميه، وهو يرفع بصره الىٰ أعلى ويضم راحتي يديه في تعبد، مستعداً لأن يهبَّ الى العمل لدى ادنى إشارة.

دار المأمون للترجمة والنشر

تأسست في منتصف عام ١٩٨٠ لتتولى مسؤولية الترجمة ونشر المطبوعات الدورية الناطقة باللغات الاجنبية والمطبوعات المترجمة من والي اللغة العربية وبما يؤمن الاسهام الفعال في عملية التواصل والتفاصل الحضاريين بين العراق والعالم

تصدر دار المأمون الصحف التالية :ـ

١ ـ جريدة بغداد اوبزرفر ـ يومية سياسية ناطقة باللغة الانكليزية

٢ ـ مجلة بغداد ـ شهرية سياسية عامة ناطقة باللغة الفرنسية

٣ ـ مجلة كلكامش ـ مجلة الثقافة العراقية الحديثة ـ فصلية ثقافية ناطقة باللغة الانكليزية

وتترجم الدار كتبا من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية واخرى من اللغات العربية الى اللغات الاجنبية وتصدرها

كما تقدم خدمات الترجمة الفورية والتحريرية للمؤتمرات والندوات الدولية داخل العراق وخارجه

هذا الكتاب

تزوج راما ابن الملك داساراتا بسيتا ابنة الملك جانكا بعد ان نفذ شرط ابيها بشد اوتار قوس ضخم كان الآله شيفا قد اهداه لاجداده ولما عزم داساراتا على التخلي عن العرش لابنه راما طلبت منه زوجته كايكيي انْ يفي بوعده ويهب العرش لابنه باراتا من بعده وان ينفي راما الى الغابة اربعة عشرة عاماً وعندما مات داساراتا كمداً غضب باراتا على امه غضباً شديداً على فعلتها هذه وقرر اللحاق بأخيه يقنعه بالعودة الى البلاد فيقرر راما ان لا يعود اليها الا بعد انْ ينتهي الاجل المعلوم

ويذهب راما الى الجنوب وتقع في حبه سورباناكا اخت راقانا حاكم لانكا وكبير الشياطين كما يقع راقانا في حب سيتا ويعقد العزم على اختطافها وتدور رحى معركة فاصلة بين الفريقين يخرج منها راما منتصراً على راقانا وانصاره من الشياطين ويعود الى البلاد بعد اربعة عشر عاماً ليتوج ملكاً على البلاد

تصميم الغلاف: سلمان داود الشهد

السعر: ١,٢٥٠ فلسا

دار المأمون للترجمة والنشر